MAG810-21
سجل تحت رقم 1767
بتاريخ 31 ماي 2008
الرقم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان -

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها

الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي في القرن الخامس الهجري

رسالة للحصول على شهادة الماجستير في الأدب العربي

إعداد الطالب : الصديق مقدم

إشراف : د. محمد محيي الدين

لجنة المناقشة :

أ.د. محمد عباس-جامعة تلمسان	رئيسا
د.محمد محيي الدين-جامعة تلمسان	مشرفا و مقررا
أ.د. محمد مرتاض -جامعة تلمسان	عضوا
د.محمد زمري-جامعة تلمسان	عضوا

السنة الجامعية : 2003 / 2004

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كان القرن الخامس الهجري من أزهى عصور الأدب الأندلسي، وذلك على الرغم مما عرفته الأندلس من تمزق وضعف . فقد أظل ذلك العصر كثيرا من كبار الأدباء الأندلسيين، كابن زيدون، وابن عمار، والمعتمد بن عباد، وابن اللبانة، وابن خفاجة، وغيرهم، وخلف من الآثار الأدبية ما يعد من عيون الأدب العربي.

وقد حظي الأدب في ذلك العصر بعدد من الدراسات تناولت جوانب كثيرة منه. غير أن هناك جوانب أخرى ما تزال في حاجة إلى الدراسة، لعل أهمها : ما عرفه ذلك الأدب من اتجاهات. ومن تلك الاتجاهات الاتجاه الوطني الذي اخترته موضوعا لهذه المذكرة.

وقد كانت البواعث التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع ذاتية،وموضوعية. أما الذاتية فتتمثل في ميلي إلى الأدب الأندلسي، وحبي لقراءة ما أبدع أعلامه.

وأما الموضوعية فتتمثل في حاجة هذا الاتجاه الأدبي إلى دراسة ؛ فليس في المكتبة الأندلسية، على غزارتها ، أي كتاب في موضوعه، وذلك على أهميته.

وإذا كان لكل بحث علمي هدف يصرف الباحث جهده لتحقيقه ، فإن هدفي من وراء هذه الدراسة كان هو جمع كل ما يتوفر لي من نصوص نثرية وشعرية أندلسية من القرن الخامس أُنشئت بباعث وطني، ثم تصنيفها وتحليل نماذج منها.

وتشتمل هذه المذكرة على أربعة فصول وخاتمة.

أما الفصل الأول – وهو فصل تمهيدي- فقد أبرزت فيه العوامل التي كان لها أثرها في ظهور الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، ومن بينها:

- الفتنة الكبرى التي أدت إلى ضعف الخلافة الأموية وسقوطها، وتصدع الوحدة الوطنية وظهور دويلات الطوائف.

- نشاط حركة الاسترداد"، وما نجم عن ذلك من سقوط عدد من مدن الأندلس الشمالية في يد النصارى.

- زوال السيادة الأندلسية، وذلك بخلع ملوك دول الطوائف وإسقاط دولهم وإلحاق الأندلس بالمغرب.

- ابتعاد بعض الأدباء عن أوطانهم.

وأما الفصل الثاني فخصصته لبيان الاتجاه الوطني في الشعر الأندلسي في ذلك القرن. ومما تناولت فيه : بكاء قرطبة لما دمرتها الفتنة، ورثاء المدن التي سقطت في أيدي النصارى، ورثاء دول الطوائف التي أسقطها المرابطون، والإشادة بمحاسن الأندلس، والحنين إلى الوطن، وانتقاد ملوك الطوائف،ومدح المرابطين،وهجاؤهم.

وكان الفصل الثالث لبيان أثر الاتجاه المذكور في النثر الأندلسي في ذلك القرن. وقد وقفت عند أهم موضوعات ذلك النثر، كبيان فضل الأندلس والإشادة بمحاسنها، والدعوة إلى الجهاد، والاستغاثة، والتعلق بالوطن.

وأما الفصل الرابع، فبينت فيه سمات الأدب الأندلسي السائر في الاتجاه الوطني في ذلك القرن.

وفي الخاتمة استخلصت بعض ما توصلت إليه من نتائج بحثي في الفصول السابقة .

وقد اقتضى تتبع ذلك الاتجاه في الأدب الأندلسي من بداية القرن الخامس إلى نهايته أن اعتمد المنهج التاريخي. على أنني استعنت بغيره، حين اقتضى الأمر ذلك.

ولقد اعتمدت في إعداد هذه المذكرة على مجموعة وافرة من المصادر والمراجع يمكن تقسيمها إلى صنفين أساسيين.

- الصنف الأول : يتضمن المصادر التي وردت فيها النصوص الشعرية والنثرية، مثل كتاب ابن بسام " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة "، وكتاب المقري " نفح الطيب "، ودواوين الشعراء.

- الصنف الآخر : يضم المصادر والمراجع التي ساعدتني على تبيّن تلك المرحلة التاريخية،وعلى فهم النصوص وتحليلها . ومن هذا الصنف الكتب التاريخية والدراسات الأدبية، ككتاب محمد عبد الله عنان " دول الطوائف "، وكتاب الدكتور إحسان عباس " تاريخ الأدب الأندلسي ".

وقد اعترضني –ككل باحث– عدد من الصعوبات، حاولت التغلب عليها. وفي طليعة تلك الصعوبات جمع المصادر والمراجع ؛ فقد كلفني ذلك مشقة السفر إلى مكتبات بعيدة.

وأخيرا، فإني لا أدعي لهذا الجهد الكمال والتمام. وحسبي أني اجتهدت في معالجة هذا الموضوع . وأرجو أن أكون قد سدّدت وقاربت ، كما أرجو من الله القبول .

تلمسان، في 24 سبتمبر 2003م./ 27 رجب 1424 هـ.

الصّديق مقدّم

الفصل الأول

عوامل ظهور الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي في القرن الخامس الهجري

1- الفتنة الكبرى و تصدع الوحدة الوطنية :

إنّ دولة الإسلام بالأندلس التي قامت طيلة ثمانية قرون تقريبا، مرّت بعدّة مراحـــل، كان للأدب الأندلسيّ فيها نصيب متفاوت. ومن أخصبها نتاجـا المرحلة الثالثة التي سمّاها المؤرخون: "عصر ملـوك دول الطوائف ". ومن أهـم اتجاهـات الأدب الأندلسيّ في تلك المرحلة: الاتجاه الوطني. وقد جاء ذلك العصر حافلا بالنصوص المندرجـة في هذا الاتجاه، لأن الظرف الذي كان معيشا آنذاك اقتضى ذلك.

وقبل الحديث عن الفتنة الكبرى المبيرة التي تُعَدّ بحقّ حـدثا هاما وبـارزا في التاريـخ السياسي للأندلس، إذ أدت إلى ضعف الخلافة وسقوطها ثم ظهور دول الطوائف،عليّ أن أعرّج على بعض الظواهر التي كانت سببا في نشوب هذه الفتنة التي سماها بعـض المؤرخين :" الفتنة البربريّة ".

عند حلول سنة 300 هـ / 912 م، أخذ عبد الرحمن الثالث، الذي لقّـب نفسه " الناصر "،مقاليد الحكم .وعلى الرغم من صغر سـنه ، إذ لم يكـن يتجاوز الثالثـة والعشرين سنة، فإنّ حنكته وذكاءه والصفات الحسنة التي كـان يتسم بها، جعلت جده عبد الله يختاره لتلك المسؤولية.[1]

وقد كان عصر عبد الرحمن الثالث عصر ازدهار، لم تعـرف الأندلس علـى وجـه التقريب مثله، حيث عمد الناصر إلى إخماد نيران الفتن، و لمّ كلمه المسلمين، ورفع راية الجهاد ضدّ ملوك الإسبان، حتى أتاه أكثرهـم طوعا وكرهـا، ودان له أكثر بلاد الأندلس، وبلغت كلمته الآفاق.

وعندها أعلن نفسه خليفة للمسلمين ، إذ كـان من سبقه من الحكّام الأمويّين بالأندلس لا يلقّبون أنفسهم "بالخلفاء"، كما تذكر كتب التاريخ .

---

[1] ينظر : جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، 1970 ، ص 19.

ولا نجد وصفا لعهد الناصر أبلغ من قول المقري: " إنّ ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن . وهادته الملوك وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر .ولم تبق أمة سمعت بـــه من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائـــر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية،ومن جملتهم صاحـــب القسطنطينية الكبرى فإنه هاداه ورغب في موادعته " .[2]

ولما توطد ملك الناصر، صرف أمره إلى البناء والتشييد والعمران، فبنى قصـــر دار الروضة، واختط لنفسه مدينة الزهراء التي كانت منطلقا لخلافتـــه، فأنشأ فيها الجنان وجلب إليها المياه ، وأكثر فيها النافورات ، واتخذ فيها دارا لصناعـــة آلا ت السلاح الحربية. وقد استدعـــى لهذا كله كبار المهندســـين والمـــعماريين ، والبنائيـــن من بغداد والقسطنطينية.[3]

لقد كان عصر الناصر عصرا ذهبيا ، يضاهي ذلك العصر الذي كان في المشـــرق أيام الدولة العباسية.

ثم لما توفي عبد الرحمن الثالث سنة 350 هـــ، تولى بعده أمر الخلافـــة ابنـــه الحَكَم الملقب"بالمستنصر". وقد عمد ، هو كذلك، إلى إخماد ثورات الفرنجة. وكـــان يميل إلى العلوم وإنشاء المدارس والمكتبات، حيث بنى في قرطبة وحدها سبعا وعشرين مدرسة، كانت قبلة لطـــلاب العلم بالمجان، و استحقت قرطبة أن تلقب "مدينة العلم و الأدب"، و صح فيها القول المشهور :"إذا مات عالم في إشبيلية بيعت كتبه بقرطبة".

وقد ولى الحَكَم أيام حكمه تربية ابنه هشـــام حاجبه محمد بن أبي عامر الـــذي كـــان يتميز بالدهاء والفطنة، فاستطاع أن يستحـــوذ على وُدّ زوجة الحَكَم "صُبْح" الإسبانية الأصل.

---

[2] نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت : دار صادر،د.ط.، 1988، 179/1 .

[3] ينظر: عبد الرحمن بن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، 1992، 172/4.

والحاجب في هذه الفترة لم تكن تسميته هذه تحمل نفس الدلالة التي كانت تطلق على غيره، وإنما أصبح له دور رئيسي في توجيه أمور الدولة.

ولماّ مات الحَكَم المستنصر بويع ابنه هشام الملقب" بالمؤيد" للخلافة ، إلا أنه كان صغيرا فاستغل الحاجب محمد بن أبي عامر الفرصة فحجبه ، و منع الوزراء من الوصول إليه، إلا نادرا، إذ كان هو الآمر الناهي، و لم يكن لهشام من الخلافة إلا الاسم .[4] ثم أورث ذلك أبناءه. والفتنة الكبرى بدأت شرارتها عندما استبد العامريون بالحكم وغمطوا ذلك الحق . وقد سمى المؤرخون هذه المرحلة " فترة الحجابة".

وقد عمد محمد بن أبي عامر، كسابقيه من الحكام، إلى إخلاء الجو من كل أولئك الذين كانوا يطمعون في تقلد زمام الحكم ، وتصفيته من كل من سولت له نفسه الاستيلاء على الرئاسة .ثم حشد الجند من زناتة والبربر، وأغفل ما لهشام من حق في الخلافة، واستولى على الدولة ، وملأ الدنيا بجهاده وغزواته، بل إنه أعطى كل الأولوية لرجال زناتة و البربر و قدمهم على رجال العرب . وهكذا استبد بالأمر كل الاستبداد .

وتوفي المنصور سنة 374 هـ ، وتولى مكانه ابنه عبد الملك المظفر الذي لا تمهنا معرفة أيام حكمه . وعند هلاكه صار الحكم إلى أخيه عبد الرحمن الذي اختار لنفسه، هو كذلك،لقبا من ألقاب الخلفاء ، فكان يدعى" الناصر لدين الله".و لم يختلف الناصر عن أبيه وأخيه في تسيير شؤون الدولة، إذ حجب، هو كذلك،هشاما المؤيد، بل وصل به الأمر إلى أن أجبره على أن يكتب له عهدا بالخلافة ، فكُتب ذلك العهد بإنشاء

---

[4] ينظر : ول ديورانت : قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران ، اختارته و أنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، الطبعة الثانية، 1964، ص 288 ؛ حسن أحمد محمود و منى حسن محمود : تاريخ المغرب والأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، القاهرة : دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى، 1999، ص 153.

الكاتب أبي حفص بن برد ، و بحضور حشد من أهل الشورى.ونـــص العهد منشور في كتب التاريخ الأندلسي، ولا داعي إلى إيراده.[5]

كانت الأمور إلى هذا الحد تبدو لكثير من الأندلسيين عادية، ولكـــن عندما طمع عبد الرحمن بن أبي عامر في الخلافة، وهو أمر خطير لم يجرؤ عليه أبوه ولا أخـــوه من قبل، شبّت الفتنة. إذ عز على المضريين أن تنتقل الخلافة إلى اليمنيين (العامريـــون من أصول يمنية)، فانبعثت ريح العصبية العربية القديمة .

وتوجه عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب، احتقارا له، "بشنجـــول" (وهـــو تصغير لـــ"شانجه "، اسم جده لأمه) بحملة إلى شمال غرب إسبانيا غازيا سكـــان غاليســـيا. وكان غيابه من قرطبة كافيا لأن يثور المضريون على أعدائهم اليمنيين، و جمعوا أمرهم على أن يخلعوا هشاما المؤيد ويبايعوا محمد بن هشام بـــن عبد الجبار الأموي الـــذي اختار لنفسه لقب" المهدي".[6]

ولما وصل الخبر إلى شنجول، طفق راجعا إلى قرطبة، فكـــان كلما اقترب منـــها، انفضت عنه جماعة من جيشه، حتى صار في قلة من جنده، فاعترضه خصومه و حزوا رأسه، وأتوا به إلى المهدي . وبهذا الفعل كان محمد بن هشام أنهى فترة الحجابـــــة والدولة العامرية معا.

وقد عمل على اضطهاد البربر الذين كانوا موالين للعامريين، وقام بجلب الصقالبة. وأذيع في الناس أن هشاما المؤيد قد مات، حيث أحضر المهدي جثة شبيهة بجثة هشام، قيل هي لخلف الحصري، وشيعت والمؤيد حي في حبس المهدي.[7]

إن السنة التي نستطيع القول : إنها نقطة انطلاق حقيقية للفتنة، هي التي حددهـــا

---

[5] ينظر: ابن خلدون : م.س، 177/4.

[6] ينظر : هنري بيريس : الشعر الأندلسي : ملامحه العامة و موضوعاته الرئيسية و قيمته التوثيقية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، القاهرة: دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى ،1988 ، ص 13.

[7] ينظر : الطاهر أحمد مكي : دراسات عن ابن حزم و كتابة طوق الحمامة ، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، 1977،ص 109.

المؤرخون في نهاية القرن الرابع الهجري، وهي سنة 399 هـ ، وهي أيضا السنة التي تقلد فيها المهدي الحكم.وقد عاشت الأندلس انطلاقا من هذه السنة حربا أهلية دامية، قاربت ربع قرن من الزمن، انقسم فيها المجتمع الأندلسي إلى جبهتين متعارضتين هما : الواجهة الأندلسية، والواجهة البربرية . وقد كانت هذه المرحلة من التاريخ الأندلسي مضطربة غاية الاضطراب. والسبب في ذلك أن الذين كانوا يمسكون مقاليد الحكم كانوا ضعفاء. ثم أدى ذلك إلى سقوط الخلافة الأموية. وكان آخر خليفة هو هشاما الثالث، الذي خلع سنة 422 هـ. وعلى إثر هذا الحادث قامت دويلات الطوائف التي حكمها ملوك من البربر والعرب والموالي .[8]

وقد يُستنتج من البحث الدقيق والدراسة المتأنية لتاريخ الأندلس،أن العنصر البربري كان في معظم الأحيان مصدر توتر ليس في هذه المرحلة فقط (مرحلة الفتنة) بل يعود ذلك إلى عهد الولاة ، إذ كان البرابرة يقومون بثورات ضد العرب. وهذا ما جعل الخليفة هشام بن عبد الملك يرسل نجدات إلى المنطقة. وكان من بين تلك النجدات الجنود السوريون الذين تمكنوا من القضاء على تلك الثورات في الأندلس.

ومن أسباب ذلك أن البربر كانوا معتدّين بأنفسهم. ويرجع ذلك إلى أن الفاتح كان من بني جلدتهم . ويضاف إلى ذلك أن استبداد محمد بن هشام بالسلطة كان مثيرا لغضب البربر. وهو من الأسباب الرئيسية في اندلاع هذه الفتنة.

على أن اعتلاء محمد بن هشام كرسي الخلافة سنة 399 هـ، لم يدم طويلا،وذلك لأن هذا الحاكم عُرف بالفسوق وسوء الخلق و اللهو والانشغال بالملذات على الرغم من تسميته " المهدي" . واشتهر كذلك بعدم الرفق ، وعدم لين الجانب...كل هذه الأمور جعلت عامة الناس تنفر منه ولا تطيقه، فاستغل الفرصة أموي آخر يدعى هشام ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وتَزعّم فئة من البربر الذين كانوا يكنّون

---

[8] ينظر : جمعة شيخة : الشعر الأندلسي، حدوده و أبعاده كمصدر للتاريخ، المجلة العربية الثقافية، تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم، العدد السابع و العشرون، 1994، ص 121.

حقدا وضغينة للمهدي ، و طلب هشام من المهدي أن يخلي له الجو للخلافـــة،وأثناء ذلك لم يتخل البربر عن طبعهم، إذ قاموا بالعبث وإثارة الفتن بقرطبة. و لم يبـــــــق القرطبيون مكتوفي الأيدي، بل قاموا بمطاردتهم.

والحقيقة أنهم لم يقوموا بذلك حبا في المهدي ولا دفاعا للبربر عنه، وإنما كان ذلك دفاعا عن أنفسهم ، وذودا عن وطنهم .

وقد استطاعوا بذلك أن يدفعوا شرهم . وأثناء ذلك ضرب المهدي عنق هشام بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر، وانتهى أمره في فترة وجيزة .[9]

ثم إن أطماع الأمراء الضعيفة نفوسهم لم تنته، فكل واحد كان يقول : أنا أحقهم بالخلافة، وينظر حوله يمينا وشمالا، محاولا أن يلم بعض أعداء أعدائه ليستعين بهم على مطاردة خصومه واعتلاء كرسي الخلافة .

وتأتي سنة 400 هـــ، فيقوم أمير أمـــوي آخر هـــو سليمان بـــن الحكم الملقب "بالمستعين"، فيعمـــل مثل سابقه هشام، إذ يتزعـــم البربر الحاقدين والمتربصين خارج قرطبة فيبايعونه خليفة ، ثم يجتمع معهم لأجل خلع المهـــدي . ثم إن المهدي فكر مع جموع البربر للزحف على قرطبة ، وقد استدرجوا القرطبيين الذين خرجوا لمطاردتهم والذود عن وطنهم ، لكن البربر في هذه المرة أقبلوا بجيش عرمرم ، ثم تحينـــوا الفرصة وانقلبوا عليهم من كل جانب، وأخذوا في تقتيلهم والنيل منهم.وقد ساعدهم في ذلك العمل النصارى الذين تحالفوامعهم، فدخل البربر قرطبـــة من أبوابها الواسعة. وتعرف هذه الوقعة عند المؤرخين بوقعة " قنتيش".[10]

---

[9] ينظر: أحمد هيكل : الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، القاهرة:دار المعارف بمصر،الطبعة الحادية عشرة، 1994،ص343 .

[10] ينظر : إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، بيروت، دار الثقافة، الطبعة السادسة، 1981، ص 133-143؛ كارل بروكلمان : تـــاريخ الشعـــــوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنـــير البعلبكي ، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1948، ص 305-306.

على أن المهدي فر هاربـــا من قرطبة متجها إلى طليطلة ليستنجد بأهلها ، ويقوي عزيمته مستعينا بالفرنج ، وبخاصة "أذفونش" الذي نهض معه إلى قرطبة حيث هزمـــوا المستعين وبرابرته في العام نفســـه، أي سنة 400 هـــ، ودخل المهدي قرطبة منتصرا.

ونشير هنا إلى أن الحرب الشنيعة التي دارت رحاها بين المهدي والمستعين كان من نتائجها خراب ودمار عنيف، حيث قتل الآلاف من البشر ، وهدم الكثير من القصور وعبث بمحاسنها ، وساءت حال قرطبة الحسناء ، فبدأت تظهر علـــى وجهها الجميل تجاعيد أخفت الكثير من حسنها الفاتن، بالإضافة إلى زرع الرعب في نفوس السكان الذين كانوا يعيشون قبل ذلك في أمن وسلام.

وقد اضطر دخول المهدي قرطبة المستعين إلى الفـــرار مع برابرته الذين أتـــوا على الأخضر واليابس، حيث رحلوا إلى الجزيرة الخضراء. ثم خرج المهدي وابن أذفونش ، فاقتفى أثرهـــم المستعين مع البرابرة وحاصروا المهدي حـــتى خشي الناس مـــــن اقتحـــام البربر عليهم، وأجمعوا أمرهم على درء الشر والضرر،فقتلوا المهدي محمد بن هشام، وجددوا البيعة لهشام المؤيد ثانية، وعاد إلى خلافته وأقام واضحا العامري حاجبا له.[11]

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، بـــل راح سليمان والبربر إلى إشبيلية، وبالضبـــط إلى قلعة رباح، فاستغلوا ضعفها واستعمروها وغنموا ما فيها . وقـــد أدى ذلك إلى تقوية شوكتهم. ثم عـــادوا إلى قرطبة ثانية وحاصروهـــا. وانجر عن ذلك أن خرج كثير من أهلـــها وعساكرها من الجوع والخوف جراء حصـــار المستعـــين، فاشتـــد القتال فيها ، ودخلها سليمان ثانية مالكا وناهبا ما فيها. وأخرج المؤيد من القصـــر، وحمل إلى سليمان الذي أنهى حياته. و كان ذلك سنة 403 هـــ. وبويع سليمـــان للمرة الثانية .[12]

---

[11] ينظر: ابن خلدون : م.س.، ص 181.

[12] ينظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت: دار صادر،د.ط، 1982 ، 218/9.

لقد حكم سليمان المستعين الذي نجـــح كل النجاح في الاستيلاء على الخلافـــة سنوات أكثر من أولئك الذين كانوا يتداولون عليها ، وصفها ابن حيان في قوله [13]:

"كانت كلها شدادا نكدات، صعابا مشؤومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيها حيف، ولا فورق خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة وخرق الهيبة واشتعال الفتنة واعتلاء المعصية وطعن الأمن وحلول المخافة، دولة كفاها ذما أن أنشأها شانجه فقشعها أرمقند. وثبتها الجلالقة ومزقها الفرنجة، ودبرهـــا فاجر شقي، ووزر لها خب دني، فتمخضت عن الفاقرة الكبرى، وآلت بمن أتى بعدها إلى ما كان أعضل وأدهى مما طوى بساط الدنيا، وعفى رسمها وأهلك أهلها" .

وهكذا لم يستـــرح المستعين إلا عندما تسلم الخلافة ، بل أخذها عنوة . وقد طال جلوسه على كرسيها. على أنه لولا البرابرة وبعض الصقالبة لما كان له ذلك.

بيد أنه في عُصر الفتنة الكبرى لم يكن يؤمن للبربر جانب، فسرعان ما ينقلـــب مزاجهم ليحققوا حاجة في نفوسهم. وأي حاجة أكبر من الطمـــع في السلطـــة التي شغلت الناس عن دينهم، وجرتهم إلى التقتيل والتدمير والخراب وغير ذلك ؟

وفي سنة 407 هـــ كان قد استوى لأميرين أخوين من أكـــابر البرابرة حكـــم ولايتين هامتـــين مكافأة من ذهب منحها إياها سليمان المستعين لمعاضدتهـــما. هذان الأخوان هـــما : علي بن حمود الذي تولى منطقة سبتة وطنجة ،والقاسم الذي تولى الجزيرة الخضراء . ولقد شكلت هذه المكافأة في نفس علي بن حمود شيئا من الاعتداد بالنفس، ورغبته في الخلافة. فما كـــان من علي إلا أن اتفق مع صقلبي يدعى خيران العامري، وأخبره بأنه ينوي الزحف إلى قرطبة معقل المستعين، وكان الذيـــن قووا فيه تلك العزيمة هم البربر الذين كانوا يمثلون السواد الأعظم من الجند، وكانـــوا سببا في اعتلاء المستعين كرسي الخلافـــة، فاستطاع علي بن حمود الإطاحة بالمستعين، مستعينا

---

[13] ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ليبيا-تونس : الدار العربية للكتاب،د.ط.، 1978 ، 25/1/1.

بالبربر. وقد تم له ذلك في السنة نفسها، إذ لما وصل خبره إلى سليمان هـــبّ لملاقاته، فاعترضه البربر وقدموه إلى علي فأنهى أمره إلى الأبد .[14] وفي اليوم نفسه الذي قتل فيه المستعين، أقيمت البيعة لعلي بن حمود بقصر قرطبة .

على أن المرحلة التي تولى فيـــها علي السلطة لم تخل هي كذلك من الاضطرابات، إذ سرعان ما أثار البربر سلسلة من الفتن،واجهها علـــي بن حمـــود بقسوة،إذ كـــان يضرب رقبة كل من وجد له يداً في جرم.

وأسوق في هذا الموضوع خبر حادثة أوردها المقري، مفاده أن علي بن حمود خرج ذات مرة فصادف في طريقه فارسا من البربر و أمامه حمل عنب، فسأله عن مصدره، فأجابه الفارس بأنه أخذه كما يأخذ الناس. عندها ضرب عنقه ووضع رأســـه وسط الحمل، وطيف به في البلد ليكون ذلك عبرة لغيره من البربر .[15]

على أن بقاءه على كرسي الخلافة لم يدم طويلا، فسرعان ما ارتد عنه الذي آزره من قبل، وهو خيران العامري، حيث انقلب عليه وراح إلى شرق الأندلس يعلن تأييده الكامل لأمير أموي جديد هو عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصـــر، وقد بويع في شرق الأندلس وسمي " المرتضى". ثم قتل علي بن حمود على أيدي بعض خدمه من أعوان الأمويين. وكان ذلك سنة 408 هـــ.

وكان علي بن حمود ، قبل موته ، قد عين أخـــاه القاسم حاكما على إشبيليـــة . وكان القاسم يحاول تقريب الشخصيات الإشبيليـــة التي لها وزن ثقيـــل في المجتمـــع، فتمكن من الحظوة لديه أحـــد قضاتها الكبار الأثرياء ، يدعـــى محمد بن إسماعيل بن عباد. فلما قتل علي بن حمود،تولى مكانه أخوه القاسم،فوكل إلى القـــاضي محمد بن إسماعيل تسيير شؤون إشبيلية .[16]

---

[14] ينظر : أحمد هيكل : م.س، ص 345 .

[15] ينظر: م.س.، 482/1.

[16] ينظر: صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري، بيروت : دار الثقافة، د.ط، 1975، ص 113.

ثم إن المرتضى الذي عين خليفـــة بشرق الأندلس، فر بمن معه من الموالي العامريين قاصدا غزو قرطبة ، حيث كان القاسم خليفة، لكن الأمر لم يكن سهلا ، إذ أن هذا الزحف كان سببا في مقتله، و ذلك لخلاف شب بين المتحالفين .[17]

و لم تقف القضية عند هذا الحد، وذلك لتعدد الطامعين في الخلافـــة، إذ أن القاسم ابن حمود " المأمون " لمـــا ذهب إلى إشبيلية ، سار ابن أخيه يحيى بن علي من مالقة إلى قرطبة، فدخلها دون عناء،وراح يدعو الناس إلى بيعته، فاستجاب له القرطبـــيون ولقبوه "المعتلي"، وذلك سنة412 هـــ ، ومكث بقرطبة خليفة فيها ، وعمه القاسم بإشبيلية يستميل العساكر من البربر الذين قوي بهم .

ولما طار إليه خبر ابن أخيه ولى وجهـــه شطر قرطبة التي دخلها سنة 413 هـــ ، وذلك بعد أن خرج منها ابن أخيه متجها إلى مالقة . وكان السبب في خروج المعتلي هو الكبر الذي خالط نفسه، وعدم وفائه ببعض ما طلبه منه أهل قرطبة.[18]

ولكن ما لبث إلا قليلا،حتى قامت ثورة شعبية في قرطبة سنة 414 هـــ، فغادرها القاسم متجها إلى إشبيلية، ولكن رفضه الإشبليون هو ومن معه من البرابرة . وبعد مد وجزر، واستعطاف واستمالة، لم يفلح القاسم في دخول إشبيلية. وعندها توجـــه إلى منطقة "رعش". فلما سمع بذلك ابن أخيه قاده إلى السجن وفيه لقي حتفه.[19]

ثم إن قرطبة بقيت قرابة شهرين دون حاكم ، حتى تطلعـــوا إلى أمير أموي جديد بايعوه للخلافة ، وهو عبد الرحـــمن بن هشـــام بن عبد الجبـــار بن الناصر ، ولقب "بالمستظهر"وذلك سنة 414 هـــ. ومما قام به هذا الخليفة الأموي أنه مال إلى البرابرة فأكرم مثواهم، و ألان جانبه لهم، وانهمك مع الأديب الشـــاعر المعروف أبي عامر بن شهيد في قرض الشعر، وانكب على العلـــوم والآداب . وكانت السجون في وقتـــه

---

[17] ينظر : ابن بسام : م.س.، 453/1/1 و ما بعدها.

[18] ينظر : ابن الأثير : م.س.، 275/9.

[19] ينظر : صلاح خالص : م. س .، ص 115 .

تعج بشرار الناس، فأراد أن يطلق قيد شخص يدعى أبا عمران، لكن بعض وزرائه حذروه من مغبة فعله. وعلى الرغم من ذلك أخرجه مع المسجونين الآخرين و لم يقبل نصيحتهم.فتمردوا عليه ، وأفسدوا دولته ، حيث كان أثناء ذلك مشتغلا بالأدب والأدباء، فعملوا مع البربر على خلعه. ثم قتل في نفس السنة التي بويع فيها،أي سنة 414 هـ، وهو لازال في ريعان شبابه، إذ لم يتجاوز عمره الثالثة والعشرين.[20]

والذي قام بقتل المستظهر هو من العائلة الأموية نفسها، ويدعى محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر، بعد أن قام بثورة ضده. ثم بويع هذا الأموي ولقب "المستكفي"،لكن هذاالأخير أساء توجيه إدارة حكمه، فأدت تصرفاته السيئة إلى سخط أهل الصفوة من المجتمع القرطبي المتمثلة في أعيانها وعلمائها، وأصحاب الحل والعقد فيها، فسحبوا الثقة منه.ثم إن يحيى بن حمود الذي قتل عمه ، عَلِم بالاضطرابات التي تعيشها قرطبة ، فتشوقت نفسه إلى الخلافة ، فاستغل الفرصة التي سنحت له، إذ جاء بجيش لا قبل للقرطبيين به، فضاق الأمر بالمستكفي ، فهرب من قرطبة متخفيا في هيئة امرأة، ثم حيكت له مؤامرة لقي فيها حتفه، إذ دس له خصومه سما قاتلا.[21]

أما المعتلي يحيى بن حمود فقد بايعه القرطبيون خليفة للمرة الثانية، فاتخذ وزيرا له يدير الخلافة نيابة عنه، وترك جنودا يقيمون الأمن في قرطبة. ويبدو أن المعتلي كان كلما أقبل إلى قرطبة عاوده الحنين إلى مالقة .

إلا أن المجتمع القرطبي لم يكن من السهل التحكم في أموره، لا سيما والخليفة بعيد عنهم. وقد ضاق القرطبيون بالبربر الذين كانوا يشاركونهم الحكم،وتحالف في هذه المرة خيران العامري، الذي سبق ذكره، وقد كان حاكما"للمرية"، مع عامري آخر مع

---

[20] ينظر : المقري: م.س.، 489/1.

[21] ينظر: أحمد هيكل : م.س.، ص 346-347 .

اسمه "مجاهد"،وكان يحكم "دانية" فاتفقا على إنهاء الدولة الحمودية وإرجاع الحق إلى ذويه وهم بنو أمية.

والملاحظ في هذه الفترة، أي فترة الفتنة، أن الحكم قد تداولته عائلتان : بنو أمية، والحموديون . وكان كل واحد منهما يسعى إلى أن يطيح بخصمه ويصبح في هرم الدولة.

ولما سئم القرطبيون حكم الحموديين،قاموا بمؤامرة مع الزعيمين السالفي الذكر، خيران ومجاهد، للإطاحة بالحكم الحمودي ، إذ أنهم عملوا على فتح كل الأبواب للقوات التي كان يرسلها الصقلبيان العامريان، فتم طرد كل البربر الذين نغصوا على القرطبيين عيشهم . ثم قام أعيان الدولة وأكابرهم بتعيين خليفة أموي جديد، اختاره الوزير أبوالحزم بن جهور، اسمه "هشام بن عبد الملك بن الناصر" ، وهو أخ لعبد الرحمن الرابع الملقب "بالمرتضى" الذي سلف ذكره. وقد لقب هشام هذا "بالمعتد بالله" . وكان ذلك سنة 418 هـ . وأشير هنا إلى أن بيعة المعتد بالله وقعت وهو غائب ، إذ أنه كان خارج قرطبة، التي قدم إليها بعد مشاكل اعترضته بسبب شرذمة كانت معارضة لأصحاب الحل والعقد.[22]

غير أن تصرفات هشام الثالث "المعتد" التي لم ترض الخاصة ولا العامة، كانت سببا في نشوء الثورة ضده ، إذ أن انهماك الخليفة في اللهو والملذات أعمى بصيرته ، فترك تسيير شؤون الدولة لوزيره "الحكم بن سعيد". ولم يكتف بهذا ، بل أساء إلى العلماء، وإلى الشعب كذلك لما فرض عليه ضرائب أثقلت كاهله.

وإلى جانب هذا كان الوزير "ابن جهور"، الذي اختاره الخليفة، قد زاحم هشاما ونافسه، وعمل على حل خلافته ، وكان من قبل قد عقدها. ثم إن الجند قد تمردوا وثاروا لتأخر أجورهم. وفي هذا التمرد قتل من فوضت إليه إدارة أمور الخلافة

---

[22] ينظر : م. ن.، ص 347.

(الحكم بن سعيد) ، وخرب القصر ، وتعرض للسطو . عندها التجأ هشام المعتـــد بالله إلى أحد الأبراج و اعتصم به. كل هذه الأجواء والأحوال عجلت بإنهاء الخلافـــة وإلغائها. وقد اتجه أصحاب الرأي والمشورة إلى الثائرين وناشدوهم الكف عن عنفهم، فتم لهم ذلك. ثم طلبوا من هشام أن يتنازل عن الخلافة ، ويعلن عن نهايتها، مقابل أن يدفعوا عنه شر ما أثير حوله من شغب، ففعل ذلك. ثم سجن،وفوض الحكم إلى الهيئة التي كان يرأسها أبو الحزم. و بذلك انتهت الفتنة المبيرة،وابتدأت فترة أخرى جديدة سميت "عصر ملوك دول الطوائف" .[23]

كان أرقى العصور التي عاشتها الأندلـــس هو ما كان أثناء خلافـــة الناصر وابنه الحكم، وما إن امتدت إلى الخلافة أيادي العامرية والبربرية ، حتى بدأ الوهن يسري في أوصالها، ونشبت تلك الفتنة المبيرة التي بينت معالمها وحدودها.

والحقيقة التي لا مناص عن ذكرها هي أن هذه الفتنة البربرية كان بالإمكان التوقع بحدوثها، لأنه لا يعقل أن تبقـــى مقاليد الحكم في أيدي فئة وتحرم أخرى، فلقد كان ذلك الوضع مثيرا لغضب البربر لأنهم كـــانوا يرون أنهم أسهموا بنصيب وافر في فتح بلاد الأندلس.

وكانت الفتنة التي ظهرت في الأندلس لا مثيل لها على امتداد الرقعة العربية،فتداول أربعة عشرحاكما السلطة من سنة 399 هـــ إلى سنة 422 هـــ ليس بالأمر المفرح. وإن الذي يتتبع أحداث هذه المرحلة ليتصبب عرقه ، لهول ما وقع فيها، ولبشاعتـــها وشناعتها، فلقد وصل الأمر أن يقتل الرجل عمه إرضاء لشهوة الحكم الفانية.

ولقد كان اعتماد الحكم على أبشع الطرق وأخبثها،كالقتل و المؤامرة و المكيدة ، باعثا لأولئك العقلاء وأولي الرأي إلى التفكير في حل نهائي للأزمة، فاهتدوا إلى إنهاء أمر الخلافة وجعلِ الحكم في قرطبة شبيها بالحكم الجمهـــوري ، أو ما عـــرف عند المؤرخين بحكم الجماعة.

---

[23] ينظر: م.ن.،ص 347-348.

إن الذي يمكن أن نستنتجه من دراسة تاريخ هذه الفتنة المبيرة، هو أنها كانت سببا رئيسيا في إنهاء عصر،وبداية عصر جديد في التاريخ الأندلسي. وليس ذلك جديدا في التاريخ، فيكفي أن نقول : هذا عصر أموي، و ذاك عصر عباسي...إلخ ، فكان كل عصر من هذه العصور يقوم على أنقاض العصر الذي سبقه، إما استردادا لحق، أو رفضا لوضع.

ويلاحظ أنه قبيل إنهاء أمر الخلافة المركزية في قرطبة، كان في كل منطقة من بلاد الأندلس وال يتولى حكم الرعية بأمر من الخليفة الذي عيّنه، فلما زالت الخلافة، بدأ كل وال يوقد النار لِقِدره ويدعو لنفسه.

وهكذا آلت الأندلس إلى دول متعددة، لكل واحدة منها ملك يحكمها بإدارة وجيش و حياة أدبية و فكرية، وأصبح الشغل الشاغل الذي يقض مضجع هؤلاء الحكام ، هو أن كلا منهم يريد أن يستقل بمملكته استقلالا يهابه به جيرانه، وذلك بإقامة الحصون المنيعة والقلاع الشاهقة ، إذ أضحت مشكلة الحدود الداخلية أهم مشكلة بين أولئك الملوك ، بل تعدى الأمر إلى أكثر من هذا،حيث عملوا على إرضاء الإسبان، والتودد إليهم، ودفع الأموال لهم، بل وتسليمهم بعض الأماكن من الدولة. كل هذا لأجل توفير الحماية من بعضهم.[24]

و لم يخش هؤلاء الحكام من خطر الإسبان ، أعدائهم الألداء ، الذين سلبت أرضهم وألحقت بهم الهزيمة في عقر دارهم، فلجأوا إليهم للاحتماء بهم .وكان كل واحد منهم يريد أن يستولي على جزء من إمارة جاره، ليوسع الإمارة التي يتولى أمرها.

و لم يقتصر التنافس الذي كان قائما بين هؤلاء الملوك على المستوى السياسي ، بل تعدى إلى العمران والتشييد، بالإضافة إلى جانب الأدب، حيث اتخذ كل ملك شاعرا يشيد بدولته فيسمع رجعه في الآفاق،فهذا يمدح، وذاك يهجو. وقد شجعوا كذلك مجالس الأدب والطرب.

---

[24] ينظر: إحسان عباس : م.س.، ص 8 .

والحق أن عصر ملوك الطوائف أنتج للأمة العربية أدبا ينافس ذلك كان الذي في المشرق.

ولولا ذلك الانقسام، وذلك التنافس لما أنتج أدب بتلك الغزارة، وذلك المستوى.

وأعود للحديث عن تلك الدويلات الطائفية فأقول : لقد نتج عن سقوط الدولة الأموية انقسام بلاد الأندلس إلى دويلات صغيرة، حيث استقل كل حاكم بناحيته، وأعلن نفسه ملكا عليها. وكانت هذه الدويلات،إذا نظرنا إلى أصولها،ثلاث فئات، هي: العرب ، والبربر ، والصقالبة. ومن أهم تلك الدويلات ما يلي :

أولا : العرب

أهم الدول التي تمثل هذه الفئة هي :

*** دولة بني هود الجذاميين :**

قامت هذه الدولة بسرقسطة التي كانت معقلا لدولة التجيبيين.وأول من كان على رأس هذه الدولة هو سليمان الذي كان دائم الخلاف مع المأمون بن ذي النون. ومن أشهر ملوكها المقتدر بالله الذي كان يدفع الجزية لملوك قشتالة. وقد دام ملك هذه الدولة من سنة 400 هـ إلى سنة 536 هـ .[25]

***دولة بني عبّاد :**

كانت من أكثر الدول إكراما و إحسانا و أدبا. والذي أسسها هو القاضي إسماعيل ابن عباد. ومن أشهر ملوكها : المعتمد بن عباد الذي كان يشبه بهارون الرشيد. وكان من الشعراء الذين يشار إليهم بالبنان. وقد كان مجلسه يعج بالشعراء و أهل الأدب إلى حد لم يشهد له مثيل عند غيره من الملوك. وقد انتهى أمره على يد يوسف

---

[25] ينظر : إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف و المرابطين، بيروت : دار الثقافة، الطبعة الأولى، 1962 ، ص 15.

ابن تاشفين. ولقد دام ملك هذه الدولـــة التي كانت بإشبيلية وغرب الأندلس من سنة 414 هـــ إلى سنة 484 هـــ.[26]

*دولة بني جهور :

أول ملوك بني جهور هو أبو الحزم بن جهور بن محمد بن جهور الذي سبق ذكره، والذي عمل في أواخر الفتنة الكبرى على خلع آخر خلفاء بني أمية، هشام الثالـــث، واستولى على السلطة في قرطبة وما إليها، وذلك سنة 422 هـــ .

كان أبو الحزم حسن الأخلاق، يجري على سنن الأوائل، يعود المرضى ويشهـــد الجنائز، ويصلي التراويح. وكان لا يحتجب عن الناس. ولما توفي سنة 435 هـــ ولي بعده أمر الدولة ابنه أبو الوليد محمد بن جهـــور الذي كان مقتديا بأبيه . ثم ولى بعده ابنه عبد الملك الذي خالف أباه وجده في سيرتهما . وقـــد أدى ذلك إلى أن كرهـــه الناس. فخلعه ابن ذي النون بقرطبة وأخرجه منها سنة 461 هـــ. وقد دام ملك بني جهور من سنة 422 هـــ إلى سنة 461 هـــ.[27]

هذه هي أهم دول ملوك الطوائف التي أدرجها المتخصصون في التاريخ الأندلسي ضمن فئة العرب .

ثانيا : الـــبربـــر

يمثل هذه الفئة المغاربة أو البربر الذين حلّوا بالأندلـــس ، لاسيما الصنهاجـــيون الذين استقروا بها في أيام المنصور بن أبي عامر. و من أشهر دولهم :

*دولة بني زيري :

---

[26] ينظر : عبد العزيز عتيق : الأدب في الأندلس، بيروت : دار النهضة العربية للطباعة و النشر، الطبعة الثانية، 1976 ، ص 97.

[27] ينظر : عصام محمد شبارو : الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود ، بيروت : دار النهضة العربية ، د.ط،د.ت، ص 220-221.

أسس هذه الدولة هذيل بن عبد الملك في شنتمرية. ومن أوصافه أنه كان متعجرفا، ميالا إلى البذخ والترف . ولما هلك خلفه ابنه أبو مروان عبد الملك ، الذي طالت فترة حكمه . كان يدفع الجزية لألفونس بعد سقوط طليطلة. ولما مات حكم ابنه حسام الدولة يحيى الذي لم يحافظ على المملكة.وقد أدى ذلك إلى أن استولى المرابطون على شنتمرية سنة 497 هـ وخلعوا يحيى . ومن ملوكهم أيضا عبد الله بن رزين الأديب الشاعر. وقد قامت هذه الدولة من سنة 402 هـ إلى سنة 497 هـ.[28]

***دولة بني حمود :**

ينتهي نسبهم إلى علي بن حمود الحسني من عقب إدريس ملك فاس وبانيها . إن عليا هذا عبر مع البربر من المغرب إلى الأندلس لإقامة دولة علوية فيها، واستطاع أن يستولي على قرطبة سنة 407 هـ بعد سليمان المستعين ، ولقب "بالناصر"، ثم رجع الملك إلى الأمويين، ثم ما لبث أن رجع إلى الحموديين. وقد تداول عليه أحد عشر ملكا منهم، تنقلوا بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء . ثم انقرضت دولتهم بمقتل آخر ملوكها، وهو القاسم الواثق سنة 450 هـ.[29] وقد سبق بعض الحديث عن الحموديين أثناء عرض أخبار الفتنة الكبرى.

***دولة بني الأفطس :**

ينتهي نسب هؤلاء إلى بربر مكناسة، و حاضرتهم هي بطليوس. وهم من أشهر ملوك الطوائف. وقد كان لهم الأثر البيّن في النهوض بالأدب والثقافة وسائر العلوم، حيث برز منهم ابن الأفطس الملقب "بالمظفر"، صاحب التاريخ المسمى "المظفري" . وقد كان ابنه المتوكل في بطليوس كالمعتمد بن عباد في إشبيلية . وقد قُتل المتوكل على يد جيش يوسف بن تاشفين صاحب الدولة المرابطية. وفي رثائه ورثاء ملوك بني

---

[28] ينظر : إحسان عباس : م.س، ص 95.

[29] ينظر : عبد العزيز عتيق : م.س.، ص 95.

الأفطس، قال ابن عبدون رائيته المعدودة من نفائس القصائد الأندلسية. وقد عمرت هذه الدولة من سنة 413 هـ إلى سنة 487 هـ.[30]

***دولة بني ذي النون :**

رأس بني ذي النون هو إسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذي النون . أصله من قبائل هوارة . كان معقل رئاستهم في شنتمرية ، وطليطلة كانت تحت يد " يعيش بن محمد بن يعيش" . وقد حكم ولد إسماعيل الظافر ، واسمه يحيى الملقب "بالمأمون"، ثلاثة و ثلاثين عاما. وكان على نزاع حاد مع ابن هود صاحب سرقسطة، و ابن عباد ملك إشبيلية.وتحتم على المأمون أن يستعين بالإسبان، الذين كان من أشهرهم "فرناندو"، من أجل أن يدفعوا عنه شر بني هود، شريطة أن يدفع لهم الجزية ويقر لهم بالسيادة . وقد استولى المأمون على بلنسية وأخفق في أخذ قرطبة لأنّ ابن عبّاد كان له بالمرصاد.[31]

ثالثا : *الصقالبة*

حطت رحالهم بشرق الأندلس في المرية ومرسية وبلنسية ودانية وما يحاذيها من جزائر.

وهؤلاء الصقالبة هم في الأصل رقيق و عبيد من سبي الشعوب السلافية بيعوا إلى عرب الأندلس. وهذا هو أصل تسميتهم بالصقالبة. ثم أخذ هذا الاسم في التوسع من قبل الأندلسيين حيث أطلقوه فيما بعد على مواليهم الذين جلبوا من مختلف البلاد الأوربية، بما في ذلك مناطق الإسبان المسيحية. وقد جاءوا في بادئ الأمر أطفالا إلى قرطبة و استخدموا في أعمال القصر والحرس والجيش، إلى أن تدرجوا في المراتب حتى صار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة الأموية، كما نبغ منهم الشعراء والأدباء و غيرهم.

---

[30] ينظر : م.ن.، ص 96.

[31] ينظر : إحسان عباس : م.س .، ص 14.

ولما بدأت الخلافـــة الأموية في الضعف، شارك هؤلاء الصقالبة في المؤامرات التي قامت في قرطبة و سائر البلاد. وكان رأس حربتهم هو"خيران" العامري الذي ذكرته سابقا، وقد ساهم كثيرا في إنشاء الدولة العامرية الصقلبية، لأن أصحابها كانوا مماليك المنصور بن أبي عامر وأبنائه، بالإضافة إلى أنه ظهر كذلك من بينهم "مجاهد" العامري الذي استقل بدانية و الجزائر سنة 400هـــ، ومن بعده ابنه "إقبال"، إلى أن ضمها بنو هود إلى ملكهم. ثم سقطت هذه الدولة سنة 484 هـــ على أيدي المرابطين .[32]

هذا تعريف مختصـــر بملوك الطوائف الذين يرجعون، كما سلف إلى ثلاثة عناصر، العرب، والبربر، وموالي العامريين (الصقالبة). وقـــد دام أمر ملوك الطوائف زهاء قرن تقريبا عاشوا خلالـــه متفرقين متشتتين ، الكل يبحث عـــن موقع لا يصيبه فيه نصب ولا مخصمة. إن هذا التشتت و هذا التناطح من أجل البقاء، سهّل الأمر على العـــدو المتربص بهم، والمتحيّن للفرصة لكي ينقض عليهم انقضاض القطط على الـــجرذان.

و لم يشفع لأولئك الملوك استعانتهم بعدوهم الذي أخذ يستولي على مـــا كـــان تحت سيطرتهم. وأي بقاء يمكن أن يحصـــل لأقوام يعيشون شرذمـــات يطغى عليها التمزق والحقد والتربص ! لقد جد العدو الإسباني في القيام بحملة استردادية واسعة النطاق، خصصنا لها المبحث الثاني من هذا الفصل .

---

[32] ينظر : أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي و الأندلسي، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة و النشر د.ط.، د.ت.، ص 466-467

2- نشاط حركة "الاسترداد":

منذ العهد القديم، لم تكن ظاهرة كثرة الحكام والمسؤولين في الوطن الواحد محمودة العواقب،فكثيرا ما كان مآل أمر هذا الوطن إلى الخراب والزوال وفقدان السيادة.وهذه القضية واضحة وضوح المسلمات والبديهيات ، إذ لا يعقل أن يكون في الوطن الواحد عدة حكام دون أن يحدث بينهم تنازع و اضطراب. وإذا كان الأمر كذلك و هؤلاء الحكام من جنس واحد، فكيف تكون الحال إذا كانوا من أجناس مختلفة : من عرب، وبربر ، وموال ؟ إن الأمر لهو أدهى وأمرّ .

وفي التاريخ أمثلة كثيرة على تلك الظاهرة ، ولكن الإنسان لا يستفيد منها شيئا، إذ أن همّه الأكبر هو إشباع نزواته وتحقيق رغباته مهما كان الثمن.

إن قضية تعدد الحكام مشكلة عصيبة،وقد طرحت منذ الأزل في القضايا العقائدية. ولنقرأ قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) [33]، وقوله: (مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ.إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) [34].

قال القرطبي في تفسير الآيـــة الأولى : " أي لو كان في السماوات والأرضين آلهة غير الله معبودون لفسدنا...أي خربتا وهلك من فيهما بوقوع التنازع بالاختـــــلاف الواقع بين الشركاء "[35] .

وقال في تفسير الثانية : " والمعنى : لو كانت معه آلهة لانفرد كل إله بخلقه، ولعلا بعضهم على بعض ، أي و لغلب القوي الضعيف كالعادة بين الملوك، وكان الضعيف المغلوب لا يستحق الإلهية"[36] .

---

[33] الأنبياء : 22 .

[34] المؤمنون : 91.

[35] محمد بن أحمد القرطبي: جامع الأحكام، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، القاهرة : دار الشعب، الطبعة الثانية، 1372 هـ، 279/11

ويتبين من هاتين الآيتين أن وجود آلهة غير الله سبحانه وتعالى أو مشاركتها إياه من المستحيلات. والسبب أن وجود ذلك يوقع التنازع والاختلاف : فهذا يريد أن يترل مطرا، وذاك يريد إرسال ريح، وذلك يريد أن يبعث صاعقة، وغيره يريد شيئا آخر، و هذا ما يؤدي إلى اختلال في نظام الكون، و فساد في نسق الطبيعة. والآيتان تدلان على وجوب الوحدانية المطلقة لله تعالى . وقد ختمت الأولى بقوله تعالى : (فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)،وختمت الثانية بقوله: (سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ). وهذا التسبيح المشترك بينهما، دلالة التنزيه عن التعددية. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

إن هذه القضية العقائدية لهي دليل على أنه ما اجتمع حكام في وطن واحد إلا نشب بينهم التنافس والتنازع الذي يفضي إلى الخراب والدمار. والقرطبي، وهو أندلسي، جاء من بعد ملوك دول الطوائف، وعرف ما حدث بسبب ذلك الانقسام .

وقد استعمل في تفسيره للآية الثانية كلمات يكثر تداولها في حديث من يستعرض تاريخ حركة الاسترداد التي أنا بصدد الحديث عنها، هذه الكلمات هي : "القوي"، و"الضعيف"، و"الملوك" .

و لم تخرج حال ملوك الطوائف عما سبق تقريره . فلما كثر عددهم بعد سقوط الدولة الأموية، اشتد بينهم الصراع والتنافس، مما أدى بهم إلى الاستعانة بعدوهم. واستغل هذا الأخير الوضعية التي كانت سائدة بينهم، وبدأ حركته الاستردادية بدءا من الشمال، ثم زحف على هذه الدويلات التي كان يقودها ملوك ضعاف، لا يقوون على إيقاف ذلك الزحف .

وإذا كانت حركة الاسترداد (La reconquista) قد بدأت قبل القرن الخامس الهجري، فإنها كانت بين مد وجزر. أما في القرن الخامس فغدت واضحة لافتة للانتباه، حتى استشعر خطرها ذوو الوعي من أبناء الأندلس، وفي طليعتهم الأدباء

---

[36] م.ن.، 146/12.

الذين هبّوا لمناصرة وطنهم بأدبهم، فنبهوا إلى ذلك الخطر، وحثوا على التصدي له وسجلوا آثاره ،كما سنبين ذلك في الفصول اللاحقة. أما الآن فأحاول جلاء معالم هذه الحركة.

***سقوط مدينة بربشتر :**

أول ما أبدأ ببيانه هو ما عرف في المؤلفات الأندلسية"بحادثة بربشتر"(Barbastro). ولعل أول من وصف هذه الحادثة هو مؤرخ الأندلس "ابن حيان" الذي كان يعيش في قرطبة وقت وقوع هذه المحنة،فأورد أخبارها بإسهاب وتفصيل،وبعبارات مبكية . وقد نقل " ابن بسام" ذلك الوصف في " الذخيرة ". وسأحاول تلخيص ذلك فأقول :

إن مدينة بربشتر تقع بين مدينتي " لاردة" و"وشقة" في الشمال الشرقي"لسرقسطة" دخلها الإسلام لأول مرة في عهد "موسى بن نصير" أثناء الفتوحات الإسلامية بجزيرة الأندلس "، فرسخ فيها الإيمان، وتدورس بها القرآن ، إلى أن طرق الناعُي بها قرطبتنا فجأة، صدر شهر رمضان من العام، فصك الأسماع ، وأطار الأفئدة، وزلزل الأرض الأندلسية قاطبة، وصيّر للكل شغلا تسكع الناس في التحدث به والتسآل عنه والتصور لحلول مثله أياما لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوجل، والاغترار بالأمل، والاستنداد إلى أمراء الفرقة الهمل، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل، يصدونهم عن سواء السبيل، ويلبسون عليهم وضوح الدليل..."[37] .

أما حلول هذه المصيبة الفادحة على بربشتر فكان في سنة 456 هـ عندما نزل عليها جيش النورمانيين (أو الأردمانيين في الرواية العربية) المقدر عددهم بنحو عشرة آلاف مقاتل[38]، يقودهم الفارس "جيوم دي مونري"، حيث ضربوا حولها حصارا ، طمعا فيها، و رغبة منهم في قتال أهلها. وكان الأمير يوسف بن سليمان بن

---

[37] ابن بسام :م.س.، 180/1/3.

[38] ينظر : محمد عبد الله عنان : دوا الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة : مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، 1969، ص 274

هود لم يبادر بالذود عنها وفك الحصار المضروب عليها، بل تركها تصارع مصيرها. وقد أدرك فيما بعد عواقب ذلك الجبن الذي حل بنفسه.

كل هذا شجع العدو علـــى أن يقيم عليها منازلا لمدة أربعين يوما، و المسلمـــون صابرون داخل هذا الحصار الرهيب. ثم صار أهل بربشتر يتنازعون بينهم على ما يملأ بطونهم، فوصل خبرهم إلى العدو، فشدد الحصـــار عليهم، وازدادت رغبته في دخول مدينتهم. وقد استطاع بعد قتال عنيف أن يدخل المدينة الخارجية، في نحو خمسة آلاف دارع. ودارت الحرب رحاها بين الجبهتين، والمسلمون يستبسلون في قتالهم، ويدافعون عن أنفسهم بكل ما أوتوا من قوة ، حيث قتلوا من أهل الكفر نحو خمسمائة، وتحصنوا بمدينتهم الداخلية، حتى يوفروا لأنفسهم حصانة أكبر.

كان المسلمون أثناء ذلك الحصار المفزع يرتوون من عطشهم بالماء الذي كان ينبع من سرب داخلي تحت الأرض متصل بالنهر، فعلم العدو به، فألقى فيه صخرة عظيمة، أدت إلى انقطاع الماء عنهم. ولما يئسوا من الحياة، و بدأ الموت يلوح لهم في الأفق، أرادوا أن يتخلصوا من هذا المأزق، فبعثوا إلى الجند المحاصرين يطلبون منهم الأمان في أنفسهم و أولادهم على أن ينزلوا و يسلمـــوا أنفسهم ويخرجوا من المدينة التي تحصنوا فيها، فوافق العدو على ذلك.

والحقيقة أن العدو مهما كـــان يبقى عدوا لا يؤمن له جـــانب، ذلك أنه لما رأى الدائرة قد دارت على المسلمين، و لم يبق بصيص أمل في أن يبقوا أحياء، استغل فرصة ضعفهم، فأخذ في تقتيلهم و التنكيل بهم و سبي نسائهم دون رحمة ولا شفقة. و لم ينج منهم إلا قائدهم ابن الطويل وقاضيهم ابن عيسى، مع قلة من رجال المدينة.

وكان مما خلفته هذه الحرب الكريهة رائحتها، أشياء تنفطر لها القلوب، وتذهل لها العقول، وتبكي العين دما بدل الدمع .

ويمضي ابن حيـــان في وصفه لما خلف ذلك الاجتياح، فيذكر أن العدو المسيحي قد أصاب من الغنائم ما لا يقدر حصره ، حيث زعموا أن كبير الجند وقائدهم ، كان

في حصته من بين ما غنم نحو ألف وخمسمائة جارية أبكارا ، ومن الأمتعة من حلي وكسوة و غير ذلك خمسمائة حمل.[39]

وتذكر الرواية أيضا أن النورمان قتلوا وأسروا من أهل المدينة نحو أربعين ألفا أو خمسين. وفي رواية أخرى :مائة ألف. وقد لقي حتفه في تلك المجزرة جمع كثير من النساء المغلوبات على أمرهن، وذلك عندما هممن بشرب الماء من شدة العطش . أما اللواتي لم يخرجن من المدينة فقد بلغ ابن حيان أن المرأة منهن كانت تنادي من أعلى سور المدينة من يناولها شربة ماء من العدو، لها ولأولادها، فيأمرها المنادي – بخبث وطمع- بأن تلقي إليه ما يزين جيدها و معصمها من حلي ، أو كسوة أو مال، مقابل الحياة، وعند ذلك تدلي بدلوها لكي تحيي نفسها وأطفالها. ثم انتهى هذا الفعل إلى علم كبيرهم فأمرهم بأن يتخلوا عنه و يصبروا،فإن الظفر سوف يكون لصالحهم .

وقد هلك من المسلمين الذين طلبوا الأمان وخرجوا من قبوهم ما يربو على ستة آلاف، ولفظ أنفاسه خلق كثير من الشيوخ والأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة، أثناء الزحام المشؤوم. وكان الإحجام عنه سببا في موت نحو سبعمائة رجل بالقصبة من جراء العطش.[40]

ويواصل أبو مروان سرده لوقائع هذه الكارثة التي حلت ببربشتر ، فيذكر أنه لما خرج الباقون الذين كانوا داخل المدينة بعدما قتل الكثير من البربشتريين، وهلك بعضهم في الزحمة -كما أشرت سابقا – أخذهم الذهول و الدهشة لما رأوا، فنودي فيهم بأن يرجع كل واحد منهم إلى داره ووطنه بأهله وولده، فما كان منهم إلا أن يرجعوا وهم متزاحمون، فلما استقروا في دورهم مع أهلهم ، قام النصارى باقتسامهم بأمر من سلطانهم،حيث ملك كل واحد منهم الدار وما فيها من أهل وولد

---

[39] جاء في كتاب "دول الطوائف" لفظ "جمل" (بالجيم المعجمة) ، أما في "الذخيرة " فجاء لفظ "حمل" (بالحاء المهملة) و لعله الصواب.

[40] ينظر : محمد عبد الله عنان : م.س.، ص 276.

ومال . وليتهـــم وقفوا عند هذا الحد فقد عمد بعض أرباب هذه الدور إلـــى تسليط العذاب على من فيها . وربما بلغت روح المسلم تراقيها فتفارقه، وربما كتب لأحدهم البقاء، والسوط من ورائه يلسعه، وحريمه يهتك عرضها : "يغشون الثيب ويفتضون البكر ، وزوج تلك وأبو هذه موثق بقيد إساره، ناظر إلى سخنة عينه ، فعينه تدمـــع، ونفسه تقطع. ومن لم يرض ذلك منهم أن يفعله...أعطاهن خوَله وغلمانه يعبثون بهن عبثه، فبلغ الكفرة فيهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة"[41] . وزاد محمد عنـــان في كتابه : "و الحول و القوة لله العظيم"[42] .

ولما مضت ثلاثة أيام من استحكام الكفرة قبضتهـــم على هؤلاء الذين ذكرتهم ، عرجوا على الباقين من المسلمين الذين تحصنوا بذروة القصبة، وأحاطوا بهم، فتملكهم العطش مثل من سبقهم من إخوانهم، فنزلوا إليهم من ذروتهم بعد أن ناشدوهم الأمان. عندها تركوهم، و خرجوا إلى مدينة"منتشون"(Monzon) ، وهي حصن من حصون "لاردة" إلى الجنوب من مدينة بربشتر، أقرب مدن الإسلام إليهم، فلقيتهم سريـــة من خيل النصارى، لم تكن لهم يد في فتح المدينة فأصابوهم جميعهم إلا من قدّرتلهم النجاة، وهم قلة.

بعد ذلك أراد ملـــك الروم العودة إلى بلده فاصطحب معـــه من بنات المسلمين وجواريهم الأبكار الخود، ذوات الحسن الناضر، ومن الغلمان الأيفاع، ليهديهم إلـــى من هو أعلى منه مرتبة، تاركا وراءه حشـــدا من الجند مرابطا بالمدينة، قدر عددهـــم بألف وخمسمائة ركبانا، وألفين رجالا.

هذا مجمل ما روى ابن حيان من أخبار حادثة بربشتر الأليمة،وإني لا أرى أنه بقي من النذالة ورخص دم المسلم وعرضه أكثر مما وقع في هذه الحادثة. وإنما لتبقى نقطـــة

---

[41] ابن بسام : م.س.، 3/1/184-185.

[42] م.س.، ص 277.

سوداء في تاريخ المسلمين بهذا البلد. وقد كانت حادثة سقوط بربشتر إحدى الهزات العنيفة التي أصابت بلاد الأندلس أثناء الحركة الاستردادية المشؤومة.

*سقوط طليطلة :

توالى سقوط المدن الأندلسية في أيدي الفرنجة في نطاق تلك الحركة. ونحاول الآن أن نسلط الضوء على كارثة أخرى، وقعت في سنة 478 هـ، ألا وهي سقوط طليطلة أكبر مدن الأندلس وأعظمها حصانة.

وتقع مدينة طليطلة في مرتفع يصعب ارتقاؤه، لولا أن الضعف الذي كان يسري في سلطنة أميرها"يحي القادر بن ذي النون"عجل بسقوطها.ومملكة طليطلة تنبسط على رقعة شاسعة في قلب إسبانيا تقع على طول وادي "التاجو" ، ومن أهم مدنها"مدينة سالم" (Medine celi)، و"وادي الحجارة" (Guadalajara) ، و"مجريط"(Madrid)، و"قونكة" (Cuenca) ، و"أقليش" (Ucles) ، و"طلبيرة" (Talvera) وغيرها.وفي وسط هذه الرقعة الشاسعة تقع العاصمة طليطلة على ربوة مرتفعة . وقد اعتبر المسلمون هذه المنطقة ثغرا أدنى للدولة الإسلامية الأندلسية، وذلك لمتاخمة حدودها للحدود الإسبانية. لهذا كان سقوطها في يد الإسبان كارثة كبرى للإسلام في الأندلس. وقد أطلق الإسبان فيما بعد على هذه المنطقة الجديدة المحتلة اسم "قشتالة الجديدة" (Castilla la nueva) [43] .

ويعود السبب الرئيسي في سقوط هذه المدينة إلى ذلك الوضع وتلك الأحداث التي سبقت هذا السقوط ، حيث كان الوضع في تلك المنطقة مضطربا ، إذ أن التناحر والتناطح الذي ساد بين ملوك الطوائف أدى بهم إلى استعانة بعضهم بالنصارى المرابطين خاصة بالشمال، وذلك حتى يحافظوا على سلطانهم – كما بينت سابقا- وقد آل الأمر بهم إلى ضعف في شخصيتهم ، ثم إلى انقضاض العدو المسيحي عليهم

---

[43] ينظر : مختار العبادي : م.س.، ص 471.

والإطاحة بممالكهم الواحدة تلو الأخرى. وسأبين هنا ضربا من هذا الصنيع، الذي كان في نهايته سقوط مدينة طليطلة.

كان الذي يحكم طليطلة آنذاك هو يحى بن ذي النون الملقب بـ "القادر بالله"، هذا الحاكم كان له خصوم ألداء في الداخل والخارج. والسبب في ذلك أنه كان أميرا ضعيفا سيئ الخلاق. ولكي يحافظ على سلطانه من العدو الخارجي، استعان بملك قشتالة الذي كان في أعز انتصاراته وقوته، وهو"ألفونسو السادس"، الذي كان من أعظم ملوك النصارى. فكان هذا الملك يطالب "القادر بالله" بضرائب كبيرة مقابل حمايته حتى كادت خزائنه تفنى عن آخرها. والأدهى والأمر أنه طالبه بتسليم بعض حصونه القريبة من الحدود . وقد سلم القادر إليه فعلا حصون "سرية" و" قتورية" و" قنالش"[44].

أما على المستوى الداخلي، فقد قامت ثورة في طليطلة سنة 472 هـ، أضرم نارها أولئك الخصوم الناقمون على القادر، وقد حاولوا الاعتداء عليه ، ودبروا المكائد لإسقاطه، فاضطر إلى الفرار مع أهله إلى حصن من حصونه الشرقية، وهو حصن "وبذة" وذلك سنة 472 هـ. وهنا خشي أعيان المدينة من انهيار النظام و ذيوع الفوضى، فاتجهوا إلى أمير "بطليوس" "المتوكل بن الأفطس" واستدعوه لضبط أحوال المدينة، فاستجاب لهم، و غادر بطليوس متجها إلى طليطلة، حيث أقام فيها مدة قدرت بعشرة أشهر يقيم الأمر فيها.[45]

أما القادر بن ذي النون، فإنه لجأ أثناء ذلك إلى مدينة "قونكة" على وجه الخصوص . ومنها بدأ يكاتب ملك قشتالة ، ويذكره بالعلاقة الحميمية التي كانت بينه وبين جده المامون. وطلب القادر من ألفونسو السادس مساعدته للخروج من محنته،

---

[44] ينظر : محمد عبد الله عنان : م.س.، ص 108.

[45] ينظر: أسعد حومد : محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة الثانية، 1988، ص 112.

فاستجاب لطلبه، وهو يكِنّ له في نفسه شيئا. فسار معه إلى طليطلة ، في كوكبة من جنوده، فلما شعر المتوكل بقدوم ألفونسو إلى طليطلة اضطر إلى الفرار منها، بعد أن غنم منها ما غنم، من أثاث وأسلحة وكتب...وقد كان المتوكل صاحب علم ومعرفة، وعندها دخل القادر طليطلة، في حماية ألفونسو في جو مشحون بالاضطراب مع الأهل[46] .

والحقيقة أن كل هذه الاضطرابات والفتن الداخلية والخارجية كانت تنبئ بحصول الكارثة للمدينة، واستردادها من طرف النصارى، إذ أن القادر كان ملكا ضعيفا متخاذلا، لا يقوى على فعل شيء، يحركه ألفونسو بين أصابعه حسب هواه وكيفما شاء.

وفي هذه الأجواء كان أغلب ملوك الطوائف يدفعون الجزية لألفونسو طوعا وكرها، إلا ملك بطليوس"عمر المتوكل"، فقد كان شهما، مترفعا عن الدنايا ومحقرات الأمور. وتيقن ألفونسو من أن الجو قد هيئ له لأن يفتح المدينة، فأصبح يشن الغزوات والحملات عليها من حين إلى آخر، سواء لفائدته الخاصة، أو بحجة معاونة القادر ضد خصومه من الخارج. وقد أدى ذلك إلى تخريب الكثير من أراضيها، ومسح النضرة التي كانت تغشاها.

وقد بدأت هذه الحملات منذ سنة 474 هـ، واستمرت أربع سنوات كاملة، آلت خلالها سهول طليطلة إلى الخراب واليباب. كل هذا يحدث وملوك دول الطوائف بعيدون كل البعد عن الأحداث، بل إن أعظمهم و أقواهم آنذاك، وهو "المعتمد بن عباد"، تفاهم مع ألفونسو على تركه وشأنه في مشاريعه نحو طليطلة. كلهم كانوا كذلك إلا "المتوكل" ملك بطليوس، فقد سارع إلى محاربة هذا الوغد الإسباني،

---

[46] ينظر : م.ن.، ص 112.

وحاول الدفـــاع عن المدينة، ولكنه لم يستطع مغالبة قـــوى النصـــارى التي تفوقت عليـــه في العدد والعدة، فتولى متأسفا بعد أن خاض معارك دامية.[47]

وفي خريف سنة 477 هـ بدأ ألفونسو يقرب من المدينة بجموع من قواتـــه، ونزل بها إلى المدينة المسوّرة الواقعة في منحنى نهر "التاجه". بعـــد ذلك ضـــرب حـــول طليطلـــة حصارا لكي يضعف كل ما من شأنه أن يكون سببا في حياتـــها. و بدأت المحنة تشتد بها يوما بعد يوم، حتى اضطر القادة بالاتفاق مع القادر إلى أن يرسلـــوا إلى الملك النصراني مفاوضين للتحدث معـــه في أمر الصلح. فرفض مقابلتهم، بيـــــد أن وزيره " سسنندو " (ششنند) استقبلهم واستمع إليهم، وأكـــد لهم أن هذه المفاوضة لا طائل من ورائها، لأن الملك مصر على تنفيذ خطته، ولابد لهم من أن يسلمـــوا المدينة.[48]

وهكذا مضى على حصار المدينة تسعة أشهر ، وتحطمت كل محاولة للصلح مـــع ملك قشتالة. و لم تمض ثلاثة أيام على تلك المقابلـــة، حتى أضحت المدينة مفتوحـــة، وحلت بها النكبـــة التي أقضت مضجعـــها، وذلك سنة 478 هـــ، فدخل ألفونسو المدينة ظافرا، ونزل في الحال بقصرها المشهور، وعهد إلى "سسنندو" بحكم المدينـــة، وتابع استيلاءه على سائر أراضي مملكـــة طليطلة الباقية، شمال نهر "التاجه" من طلبيرة غربا حتى وادي الحجارة و شنتمرية شرقـــا. أما القادر ففر كعادته بأهله و أمواله مع أعيان المدينة قاصدا بلنسية.

وهكذا سقطت طليطلة، كبرى المدن الأندلسيـــة، ودخلت مرحلـــة جديدة من حياتها، حيث صارت إلى الديانة النصرانية، بعد أن حكمها الإسلام ثلاثمائة و سبعين عاما، وغدت تابعة لمملكة قشتالة، وأصبح قصرها منزلا للبلاط القشتالي بعد أن كان منزلا للولاة المسلمين.

---

[47] ينظر : محمد عبد الله عنان : م.س.، ص 111.

[48] ينظر : أسعد حومد : م.س.، ص 144.

*سقوط مدينة قلمرية :

قلمرية هي إحدى مدن مملكة بطليوس،وأعظم مدن البرتغال الشمالية. وكان "المنصور ابن أبي عامر" هو أول من فتحها.وذلك سنة 375 هـ. ثم بقيت ردحا من الزمن تحت حكم مولى من موالي ابن الأفطس يسمى "راندە".

ولما أراد أحد أباطرة النصارى توسيع مملكته و استرداد بعض ما أخذ منهم فتحا من قبل المسلمين، طمحت نفسه إلى قلمرية بإيعاز من مستشاره المستعرب "سسنندو"، وهو في الأصل ينحدر من أهالي هذه المنطقة، فعقد العزم على أن يستولي على هذه المدينة، فوضع خطته بإحكام ودقة. لكنه قبل أن يشد الرحال إليها، رأى أن يستمد العون والبركة من أحد القديسين،يدعى"ياقب"، فقصده إلى مزاره ، وقضى هناك ثلاثة أيام بين صلاة و دعاء و خشوع، وبعد ذلك كر إلى قلمرية بجيش عرمرم، وضرب حولها حصارا، وذلك سنة 456 هـ[49] .

استمر هذا الحصار زهاء ستة أشهر، و المحنة تحاصر أهل المدينة من كل جانب، إلى أن اضطر "رانده" إلى أن يتفاهم مع فرناندو سرا على أن يخرج من المدينة في مأمن مع أهله. ثم إن أهل المدينة علموا بفرار حاكمهم، فعرضوا على فرناندو تسليم أنفسهم دون إراقة دماء ولا نشوب حرب، فرفض عرضهم. و استمر الحصار حولها ما يقارب ستة أشهر و أهلها يدافعون عن أنفسهم. وأثناء ذلك بدأت قوات الجيش تنفد، وكاد الحصار أن يرفع، لولا أن رهبان دير "لورقان" القريب من المنطقة أمدوه بما اختزنوه عندهم في الجبال. وفي الأخير اقتحم النصارى قلمرية ، واعتبر جنودها الذين كانوا يدافعون عنها أسرى. وقد قدرت بعض الروايات عددهم مع من وقع في أيدي الأعداء من أهل المدينة،بحوالي خمسة آلاف. و سبي الكثير من النساء. ثم عين فرناندو مستشاره سسنندو حاكما عليها ومنحه لقب "الكونت" أو"الوزير". ثم عمل فرناندو

---

[49] ينظر : محمد عبد الله عنان : م.س.، ص 384.

على إخراج كل المسلمين الذين كانوا يسكنون الأراضي الواقعـــة بين نهري "دويره" و"منيو"، ضمانا لأمنه و استقراره.[50]

***سقوط مدينة بلنسية :**

أما مدينة بلنسية فحكايـــة استردادها من قبل النصارى طويلة ، ولكن سأوجزها فأقول :

كان يحكم هذه المدينة آنذاك أمير اسمه "القادر"، وكانت له أموال كثيرة.وكالعادة بدأت أطماع النصارى تتجه إلى المدينة لاستردادها،والذي كان يشغله ذلك الاسترداد هـــو القائد النصراني "رودريجو" الملقب "بالسيد" أو"الكمبيادور". فهدد السيد القادر بالاستيلاء على المدينة. فعاهده على أن يدفع له الجزيـــة التي بلغت مائـــة ألف دينار سنويا،[51]فقبل السيد ذلك. وراح يعيث في الأماكن المجاورة لها فسادا، حتى ذاع صيته، وصار يهابه ملوك الطوائف، بعد أن كان قائـــد جند لا يسمع له صوت . بعد ذلك رجع إلى بلنسية وضرب حولها حصارا لكي يأخذها كاملة . وأثناء ذلك كان يسود المدينة اضطراب داخلي بسبب الجزية التي فرضت عليها، و قـــد أرهقت أهلها، فقام قاضي المدينة ابن جحّاف، محاولا انتزاع السلطة من"القادر"،فتفاوض مع قائـــــــد المرابطين"ابن عائشة" الذي كـــان يقوم بالاستيلاء على المناطق التي استردها العدو، واتفق معه على تسليمه بلنسيـــة إن هو ساعده على محاربة القادر والسيد، فاستجاب له ابن عائشة وبعث لـــه سرية من الجند المرابطين، وتم له القبض على القادر، و حز رأسه و طاف به في المدينة، وذلك سنة 485 هـــ، واستولى على جميع ممتلكاته وتولى زمام الأمور في المدينة.[52]

---

[50] ينظر : م.ن، ص 86-87.

[51] ينظر : شكيب أرسلان : الحلل السندسية في الأخبار و الآثار الأندلسية، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة، د.ط، د.ت.، 83/3.

[52] ينظر : أسعد حومد : م.س.، ص 108.

فلما علم السيد بالأحداث، بعث إلى ابن جحاف يطلب منه إبعاد المرابطين، وأن يحتفظ هو بحكم بلنسية بعد ما عاث في جوانبـــها فسادا وخرابا. فأطاع ابن جحاف السيد، وانصرف المرابطون من المدينة ، إذ الظروف الداخلية بها غير مستقرة. والسيد هذا معروف بالخداع والمراوغة، فقد تمكن بدهائه من الإيقاع بابن جحاف وقتله شر قتلة. وهكذا أصبحت بلنسية مفتوحة في وجه السيد وذلك سنة 487 هـ.[53]

***سقوط مدينة وشقة :**

لقد سار "سانشو راميرز" في إحدى غزواته التي كان يخوضها ضـــد المسلمين إلى مدينة "وشقة"، المدينة الثانية في مملكة "سرقسطة" ، وتعد الجناح الدفاعي لها، ودرعها من الشمال، وبنى قربها حصنا ليسهل له الاستيلاء عليها . وبعد ذلك ضرب حولـــها حصارا، وعزم على ألا يبرح تلك المنطقة إلا والمدينة في يده . ولما كانت هذه المدينـــة من أمنع قلاع الثغر الأعلى ، تصدت للحصار بعزم وثبات كبيرين. ثم حـــــدث أن مات "سانشو راميرز" بغتـــة في سنة 487 هـــ ، فقـــام مكانه لمواصلة الحصار ولده "بيدرو الأول" . ومرت عدة أشهر ووشقة تعـــاني الحصـــار، وتدافع عن نفســـــها بصمود و استبسال.[54]

ثم اضطر أهل وشقة إلى أن يطلبـــوا النجدة من حاكم سرقسطة " أحمد بن هود المستعين"، وكان هذا الملك حليفا لملك قشتالة ألفونسو السادس الذي كان حاميا له مقابل دفع الجزية، فجهز المستعين جيشا جرارا أمد به حليفه القشتالي، حيث بعث له قوافل من الجند النصراني. وسار المستعين في قواته قاصدا المدينـــة. فلما اقترب منهـــا حسب أن العدو سيرفع الراية البيضاء مطالبا بالهدنة والانسحاب.لكن ذلك لم يحدث، إذ أن "بيدرو الأول" ازداد تعنتا، واستعد لمقابلة جيوش المستعين. فنشبت بين الجبهتين معركة دامية عنيفة، دارت رحاها في منطقة "الكرازة" الواقعـــة على مقربة من مدينة

---

[53] ينظر : محمد عبد الله عنان : م.س.، ص 234.

[54] ينظر : م.ن.، ص 288.

وشقة. وقد استمرت هذه المعركة من طلوع الشمس إلى غروبها، وكثر فيها القتل بين المسلمين وحلفائهم، وهزم المستعين هزيمة نكراء، حيث قدر بعض الروايات عدد القتلى في صفوف المستعين باثني عشر ألفا أونحوها .فلما انتهت المعركة، أحس أهل وشقة بانهزام المسلمين، فيئسوا من النصرة والنجدة. وبعد ثلاثة أيام حصلوا على الأمان، ودخل النصارى وشقة دون إراقة دماء في موكب مهيب، بعد حصار دام ثلاثين شهرا. وكان من بين ما قام به " بيدرو الأول " في هذه المدينة أن حول الجامع إلى كنيسة واتخذ منها عاصمة لمملكة " أراجون ".وكان سقوط مدينة "وشقة" في أيدي النصارى سنة 489 هـ.[55]

3-زوال السيادة الأندلسية و إلحاق الأندلس بالمغرب :

لم تكن لتلك الدويلات الطائفية، التي كانت في وضع لا تحسد عليه،قوة على الدفاع عن نفسها ومجابهة العدو الذي كان يُغِير عليها بين الفينة والأخرى. وقد كان نجمها يأفل يوما بعد يوم، وذلك لتفرق كلمة ملوكها، واستعانة بعضهم بالنصارى للحفاظ على مملكته، ومحاربة بعضهم بعضا، وانهماك عدد منهم في اللهو والملذات.

وقد كانت هذه الأجواء كلها ممهدة لأن يكشر العدو عن أنيابه و يغرزها في جسد أولئك الملوك الضعاف.

و لم يبق لملوك دول الطوائف من شأن حين أصبحوا لا يحركون ساكنا، في حين وقف العدو لهم بالمرصاد، يستخلص منهم الجزية لقاء الكف عن قتالهم، وراح يستولي على البلاد من أطرافها ممهدا للاكتساح الشامل.

ولقد زرع الإسبان –حقا- الرعب والوجل في نفوس المسلمين، بعد أن أصبح ألفونسو

---

[55] ينظر : م. ن.، ص 289.

السادس يتوغل في غاراتـــه حتى يبلغ جزيرة " طريف " ، وهي آخر منطقـــة من بلاد الأندلس، ثم يقول معتدّا بنفسه وهو يقحم فرسه في البحر:"هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته، وهنا يجب أن تنتهي جنودي".[56]

ولما بلغ الضعف بملوك الأندلس مداه ، من جـــرّاء تلك العمليات الاستردادية، التمسوا النصح عند كبيرهم ورأسهم المدبر " المعتمد بن عبّاد" ملك إشبيلية ، فأجمعوا رأيهم على استنفار القائم على دولـــة المرابطين بالمغرب "يوسف بن تاشفين"، فكتب إليه المعتمد بن عبّاد يبيّن إليه ما آلت إليه بلاد الأندلس من ضياع وتمزّق ، وطلب منه النجدة ومدّ يد العون، فحذّره بعضهم قائلـــين : "السيفان لا يجتمعان في غمد واحد"، فردّ عليهم بكلمته المشهورة :"رعي الجمال خير من رعي الخنازير"، فاقتنعوا برأيـــه ، بل إنّ أهـــل الأندلس راحوا يكتبون إلى يوسف بن تاشفين حتى يثيروا شفقتـــــه عليهم ، ويزيـــدوا مـــن عزيمتـــه وحماسه.[57] فاستجاب يوسف بن تاشفين ولـــبّى نداءهم، فجمع جيشا لا قِبل العدو بـــه، وجاز به إلى الجزيرة الخضراء سنة 479 هـ.

و لا داعي إلى شرح كيف كان حال ابن تاشفين مع أهل الأندلس وملوكها، وبخاصّة المعتمد بن عبّاد، ولا إلى بيان وطيس الموقعة التي جرت بين الجحفليين، وما هي الترتيبات التي أعدوها لها.

وقد عُرفت تلك الموقعة باسم "الزلّاقة". وكان النصر فيها حليفا لجند المسلمـــين، وتلقب يوسف بن تاشفين بعد ذلك "بأمير المسلمين". وكانت تلك المعركة الحاسمـــة ممهدة بشكل مباشر أو غير مباشر لضمّ الرقعة الأندلسية في فترة المرابطين إلى المغرب، كما أنها بعثت القوّة والثقة في نفوس الأندلسيين، وعملت على خلط أوراق النصارى، حيث أوقفتهم عند حدودهم، بل كانت السبب في إعادة حساباتهم و أخذهم الحيطة من مواجهة المسلمين.

---

[56] جودت الركابي : م.س.، ص 26

[57] ينظر : عبد العزيز عتيق : م.س.، ص 98-99.

والواقع أن الفضل كله يرجع إلى ابن تاشفين الذي حظي عند الجميع –سواء على المستوى الداخلي (في دولته)، أو على المستوى الخارجي (في الأندلس) بتقدير خاص، أعطى نفسا آخر لقوته. ثم رجع يوسف بعد انتهاء المعركة إلى عاصمته بالمغـــرب، تاركا وراءه ثلاثة آلاف من جنده تحت لواء المعتمد.

ويجب أن أشير هنا إلى نقطة أخرى جديرة بالذكر ، و هي أن المسلمين لم يستغلوا فرصة نصرهم على ألفونسو بمطاردتـــه والنيل منه، حتى يزول الخوف نهائيا من العدو النصراني، بل إنهم لم يحاولوا حتى استرداد تلك المدن التي أخذها منهم ، ولا حتى جمع الكلمة على رجل واحد يوحد صفوفهم.

إن انتصار المسلمين على أعدائهم وقف عند هذا الحد، وعادت الخيول والجيوش إلى رباطها . وسرعان ما ارتد أمراء الأندلس ، كل إلى بلاده، ورجعوا إلى سيرتهـــم الأولى بعدما عاودهم الحنين إلى الماضي.

كان ذلك أول مجيء لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس. أما ثاني مجيء له، فكان في سنة 481 هـــ . والسبب في ذلك هو أنه عقب معركـــة الزلاقة، كان المعتمد بن عباد، كبير ملوك الطوائف وأفضل عقلائهم والراعي الأول للأندلـــــس ، قـــد اضطر إلـــى أن يستدعي يوسف لكي يساعده على رد عاديـــة حامية "أليدو" النصرانية، أو حصن " لييط "، وهو حصن عمد ألفونسو إلى إنشائه بين " مرسيـــة " و"لورقة"، وشحنه بالسلاح، واتخذه قاعدة حربيـــة ينطلق منها للإغارة على أراضي " مرسية " و" المرية". فأصبح هذا الحصن مصدر إزعاج وقلق للمسلمين. وقـــد اشتكى أهل هذه المناطق إلى المعتمد بن عباد، فأرسل إلى يوسف حتى ينظر في هذه المشكلة. فاستجاب يوسف لندائه، وعبر البحر بنفسه، والتقى ابن عباد في " الجزيرة الخضراء "، نقطة العبور من المغرب إلى الأندلس وعكسه.بعد ذلك كاتب أمراء الطوائف يدعوهم إلى الجهاد، ويأمرهـــم بأن يعسكروا بقواتهم عنـــد حصن "لييط"، ثم اتجه يوسف مع المعتمد بقواتهما إلى شرقي الأندلس عن طريق "مالقة"، وقد انضوى تحت لوائهـــما

"تميم بن بلقين"، أمير مالقة، وأخوه " عبد الله" ، حامي غرناطة، و"المعتصم بن صمادح"، صاحب المرية. ولما كانوا على مشارف الحصن، دعم هذه القوة الضخمة "ابن رشيق" صاحب مرسية، بالإضافة إلى عدد من رؤساء الأندلس من " شقورة" و " بسطة " و "جيان" و غيرها.[58]

ولن أتحدث في هذا المقام عن كيفية مجابهة المسلمين للنصارى عند هذا الحصن، ولكني أقول : إنه لما وصل يوسف وأحلافه إلى الحصن قذفوه بكل ما أوتوا من قوة، فلم يفلحوا. ثم أقاموا حوله حصارا للتضييق على حاميته . وأثناء ذلك دب خلاف وجدال بين أمراء الطوائف لأمور كانت بينهم قبل مجيئهم. ومع ذلك اشتد الحصار على النصارى، وبدأت قواهم تخور، فأمرهم قائدهم ألفونسو بالانصراف والتخلي عن ذلك الحصن. وبعدها رجعت الأمور إلى نصابها، ورجع كل أمير إلى إمارته.ثم عبر ابن تاشفين البحر راجعا إلى المغرب، وقد تغيرت في نفسه صورة ملوك الطوائف، وبدأوا يسقطون في عينيه.[59]

ولم يمر عام على استرداد المسلمين لحصن لييط،حتى دب الحنين في نفس يوسف ابن تاشفين إلى شبه الجزيرة، فأعد العدة، وسوى كل الأمور التي يتطلبها ذلك الجواز. وكان هذا في سنة 483 هـ. ولم يكن عبوره هذه المرة للنجدة أو المعونة، كما حدث في الأوليين، ولكن مجيئه هذه المرة كان غرضه الاستيلاء على الأندلس وضمها إلى المغرب.[60]

---

[58] ينظر : عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير، العصر الإسلامي، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، بيروت : دار النهضة العربية، د.ط.، 1981، 2/730-731.

[59] ينظر : سعدون نصر الله : تاريخ العرب السياسي في الأندلس، بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1998، ص 257-258.

[60] ينظر : حسين مؤنس : تاريخ المغرب و حضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، بيروت : العصر الحديث للنشر و التوزيع، الطبعة الأولى، 1992، 2/33.

والواقع أن هذا القرار الذي اتخذه ابن تاشفين تجـــاه الأندلس كان من الخطـــورة بمكان،ولكن عند تحكيم العقل والمنطق نجد أنه كانت له الشرعية الكاملة في ذلك، بل إنه كان الواجب، بالنظر إلى تلك الحالة التي كان عليها أولئك الملوك.

ويحق لنا أن نتساءل: هل من المعقول أن يستطيع أمراء متناحرون بينهم، متناطحون على بعض الدويلات الصغرى، أن يدفعوا الأذى عن أنفسهم، ويردوا الهجـــمات التي كانت تتوالى عليهم من العدو المتربص بهم ؟ وهل لأمراء ضعاف الشخصيّات (ما عدا البعض، كابن عباد)، صاغرين أمام شعوبهم، قليلي التدين والأخلاق، همهم الدنـــيا والعيش المترف واللهو والانغماس في المجون ونسيان واجباتهم أو تناسيها – أن يكونوا قوة رادعة لمن يريدون فناءهم ؟

إن كل هذه الأوضاع المتردية التي كانت سائدة آنذاك، أقعدت ملوك الطوائـــف عن الجهاد و التصدي للقوى المناوئة، وأثارت رغبـــة قوية في نفـــس ابن تاشفين في خلعهم ، وضم الأندلس إلى المغرب.

ومن الدواعي، والأسباب أيضا،أن نفس ابن تاشفين قد خالجتها شهوة الفتح وحب التوسع. وكيف لا وقد أوتي مفاتيح ذلك : من قوة وسطوة تعدت دولته، وأذيـــعت أخبارها في بلاد الأندلس، وروع بها خصوم المنطقة، أثناء معركة الزلاقة خاصـــــة. يضاف إلى ذلك أن خصوبة البلاد وطيب هوائها، قد أثارا في نفس ابن تاشفين حب الامتلاك والاستيلاء.

ويضاف إلى هذا كله، أن أمير المسلمين لم يقدم على هذا العمل إلا بعد أن استشار أهل الرأي والفقهاء، فقد أفتاه فقهاء الأندلس والمغرب بوجوب خلع ملوك الطوائف، بل إنه تلقى تأييدا من أعلام فقهاء المشرق "كأبي حامد الغزالي" و"أبي بكر الطرطوشي" وغيرهما. وهذا يعني أن ابن تاشفين جـــعل من الدين ورأي أعـــلامه سندا لتحقـــيق مشروعه.[61]

---

[61] ينظر : محمد عبد الله عنان : م.س، ص 338

ولما تم ذلك عبر إلى شبه الجزيرة في سنة 483 هـ. وكانت أول منطقة أراد أن يستولي عليها هي طليطلة.فضرب حولها حصارا، لكنه لم يفلح في ذلك لحصانتها ومناعتها بأسوارها العالية، حيث كان بداخلها ألفونسو السادس وحليفه سانشو راميرز، فترك الحصار، وعرج بجيشه إلى غرناطة . وكان القائم عليها آنذاك هو عبد الله بن بلقين ، هذا الذي عاد إلى ربط علاقته بألفونسو لما شعر أن ابن تاشفين قد تغير مزاجه تجاهه، وعقد معه محالفة سرية لمقاومة المرابطين مقابل دفع الجزية له. فلما وصل ابن تاشفين إلى غرناطة علم أن ابن بلقين و ابن عباد قد عقدااتفاقية مع ألفونسو ودخلا تحت حمايته، فضرب شبه حصار على غرناطة ، وقام عسكره بحراسة حصونها الخارجية حتى لا يأتيها المدد والعون من النصارى، وطلب المؤن والإعانات، فجاءته من عند عبد الله بن بلقين(قام بذلك حتى يبدي انضمامه إلى يوسف،وهو يضمر في نفسه عكس ذلك). وكانت الأحوال قد ساءت في غرناطة، وشب الخلاف بين الطوائف. وأثناء ذلك نصحت أم عبد الله ابنها بأن ينقاد إلى أمير المسلمين، فلما ضيق ابن تاشفين الحصار على غرناطة رأى ابن بلقين أن لا مناص من تقديم نفسه إلى يوسف، فأصدر هذا الأخير إليه أمانا في نفسه وأهله، وأمر باعتقاله. وعلى إثر ذلك أقدم الفقهاء والأعيان على مبايعة الفاتح.

ودخل يوسف غرناطة ونزل بقصرها، وأذاع في الناس أنه سيقيم العدالة فيهم، ويحكم بشرع الله ويعمل على حمايتهم، و يرفع عنهم المغارم الجائرة. وكان خلع عبد الله بن بلقين بن باديس في 10 رجب من عام 483 هـ.[62]

أما "مالقة" فإنه بعث إليها جنده في الوقت نفسه، وقبض على صاحبها "تميم بن بلقين" شقيق عبد الله، وحمله مكبلا إلى " العدوة"، ثم أرسله إلى "السوس". ولما سقطت أول دولة من دول الطوائف في أيدي المرابطين، بدأت فرائص المعتمد بن عباد ترتعد، لأنه شعر بأن الخطر بدأ يزحف نحوه.

---

[62] ينظر : أسعد حومد : م.س ، ص99

ثم غادر ابن تاشفين غرناطة، وجاز إلى العدوة في رمضان من سنة 483، وفوض شؤون الأندلس إلى قائده الأكبر "سير بن أبي بكر اللمتوني ". ويذكر بعض الروايات أن ابن تاشفين أمر قائده بمحاصرة ابن عباد في إشبيلية، وبالزحف عند انتهائه من ذلك إلى بلاد " ابن الأفطس"، ثم جعل قائده " ابن الحاج" على رأس جيش آخر، أمره بمنازلة صاحب "قرطبة"، وأمر أيضا "أبا زكريا بن واسنو" بمحاصرة "المرية"، وعهد إلى "جرور الحبشي" بمنازلة صاحب "رندة"، وأقام هو بسبتة يجهز الجيوش والمدد،، و يترقب نتائج أعمال جيوشه في شبه الجزيرة.[63]

كان ابن تاشفين متحمسا للاستيلاء على إشبيلية، لأن هذه المملكة واسطة عقد الأندلس، فمتى استولى عليها، كان له ملك الأندلس كلها. ويكون بذلك قد قضى على عميد ملوك الطوائف، المعتمد بن عباد. ومما زاد في حماسه هذا أن وقع في يده بعض المراسلات السرية التي كان يوجهها ابن عباد إلى ألفونسو السادس، يناشده فيها بالغوث والنجدة وطلب المعونة. وبينما كان المعتمد يحصن مملكته، ويقيم القواعد الدفاعية حولها، كان سير بن أبي بكر قد بدأ في الاستيلاء على "طريف" أقصى الثغور الجنوبية لإشبيلية سنة 483 هـ، ثم اتجه نحو الشمال قاصدا إشبيلية، بينما كانت الجيوش المرابطية الفرعية قد زحفت وألقت حبالها على "رندة" و "جيان" و" قرطبة ". أما الأولى فلم يستطع القائد المرابطي " جرور " افتتاحها بعد أن ضرب حولها حصارا، وأما الثانية فقد اختلف في شأنها الرواة، فمنهم من يقول إن المرابطين استردوها، ومنهم من ينفي ذلك، وأما قرطبة فلم تصمد طويلا أمام " ابن الحاج " ، فقد اقتحمها المرابطون بعنف. وكان اقتحامهم إياها في 3 صفر 484.[64]

ولما انتهى المرابطون من الاستيلاء على مدينة "قرطبة" ولوا وجوههم شطر "أبدة"

---

[63] ينظر : المقري : م.س.، 370/4

[64] ينظر : محمد عبد الله عنان : م.س.، ص 344-345.

و"بياسة" و"شقورة" في شرقي قرطبة،واستولوا عليها أيضا. وكذا على حصني "البلاط" و"المدور" الواقعين في غربها. ثم انتقلوا إلى احتلال "قلعة رباح"، وهي قاصية أراضي المسلمين، بفضل القائد "بطي بن إسماعيل". وهكذا بسط المرابطون أيديهم على أغلب أراضي الوادي الكبير، وسائر قواعد مملكة "إشبيلية"، باستثناء "رندة" و "قرمونة". وفي سنة 484 هـ ، و بالضبط في أوائل شهر ربيع الأول ، دخل القائد المرابطي العام "سير بن أبي بكر" مدينة " قرمونة " عنوة، على الرغم من أنها كانت من أمنع الحصون الشرقية لمملكة إشبيلية.[65]

بعد ذلك توجه "سير بن أبي بكر" إلى إشبيلية. وعندما لاحت له مشارفها، ظن أن المعتمد سيقابله بكرم الضيافة كعادته، ولكنه تحصن بالمدينة و لم يهتم بالأمر، فكاتبه "ابن أبي بكر" طالبا منه تسليم المدينة، فرفض طلبه، فحاصر المرابطون المدينة بجيوش ضخمة. ثم استعد المعتمد لخوض المعركة الحاسمة واستغاث بحليفه النصراني ألفونسو السادس فاستجاب لدعوته،إذ بادر بإرسال قوة يقودها " ألبار هانيس"، أكبر قواده، لإنجاد حليفه. والأمر لا يحتاج إلى تعليل، لأن ملك قشتالة رأى أن اجتياح المرابطين لمملكة إشبيلية أضحى خطرا على شبه الجزيرة الأندلسية كلها، وبالتالي فإن المسألة لم تعد تخص ملوك الطوائف فقط ، و إنما تمس عرش النصارى أيضا. ولذلك أرسل ألفونسو السادس نحو عشرين ألف فارس، وأربعين ألف راجل. ثم التقى الجيشان على مقربة من حصن "المدور"، ونشبت بينهما معركة ضارية أبيد فيها الكثير من الجانبين . وعندما انجلى غبار المعركة،كان النصر قد عقد للمرابطين،وارتد بعد ذلك القشتاليون.[66]

وقد استمر الحصار الذي ضرب على إشبيلية من قبل المرابطين حوالي أربعة أشهر، وظل المعتمد وجنوده يدافعون عن حاضرتهم. وأثناء ذلك حاول جماعة من أهل المدينة

---

[65] ينظر : م.ن.، ص349.

[66] ينظر : ابن الأثير : م.س.، 10/189-190.

المناوئين لسياسة ابن عباد إثارة البلبلـــة ، وزرع الفتنة داخل المدينة لإحداث الخـــلل والاضطراب في صفوف المدافعين عن المدينة، ولتمهيـــد الطريق للمرابطين ليدخـــلوا المدينة. وقد وصل خبرهم إلى المعتمد بن عباد، فهمّ بإعدامهم لولا أن قادته نصـــحوه بالتراجع عن ذلك، فاكتفى بمراقبتهم ، وأخذ الحذر منهم. على أن المرابطين استطاعوا بفضل بعض من أولئك المناوئين الخونة أن يحدثوا فتحة في السور في يوم 5 رجب من نفس السنة، إلا أن المعتمد تفطن لذلك، فردهم على أدبارهم خارج المدينة. غير أنـــه حدث في اليوم نفسه أن تمكن المرابطون من إحراق أسطول إشبيلية، فعم الـــخـــوف والهلع في المدينة، وأدرك الإشبيليون أن خطط الدفاع بدأت تنهار، مما أدى ببعض منهم إلى الفرار عن طريق النهر، وسيطرت الفوضى و الجلبة على المدينة.[67]

وأثناء هذه الأحداث كان سير بن أبي بكر يمهد للضربة القاضية، فبدأ بتنظيم قواته بالمنطقة. وفي يوم الأحد 22 رجب 484 هـــ قـــام المرابطون بالهجوم على إشبيلية، واقتحموها من ناحية الوادي الكبير، وانقضوا عليها كما ينقض الهزبر الكـــاسر على فريسته، فعاثوا فيها فسادا، وسفكوا فيها دماء خضبت تربتها، كما قامـــوا بتخريب كل ما وجدوه أمامهم. وقد كان من طبع المرابطين الخشونة والاندفاع، واستعمـــال القوة .

ثم هجمت فرقة من المرابطين على القصر الملكي، حيث ظهر لهم المعتمد مع جماعة من فرسانه وهم يريدون الذود عن أنفسهم. وقد دافعوا عن ملكهم بشجاعـــــــة واستبسال، لكن لم يغن دفاعهم شيئا أمام قوم كل همهم هو الاستيلاء على المدينـــة بأكملها . وهو ما تحقق لهم، حـــيث استولوا على القصور الملكية ، وأسروا المعتمـــد

---

[67] ينظر : عبد الله عنان : م.س، ص 351.

وآله، وقتلوا ابنه "مالكا"، وتمكنوا مـــن سائر ذخائره وأمواله، وراحت الأيـــــادي المرابطية تعيث في المدينة فسادا وتخريبا ونـــهبا وسلبا.[68]

ذلك ما كان من أمر حاضرة إشبيلية، أما "رندة" فكان يحكمها آنذاك ابن المعتمد "يزيد الراضي". فلما قبض على أبيه، أعطاه القائد المرابطي الأمان في النفس والأهـــل والولد، وأجبره على أن يخاطب ابنه بتسليم المدينة ، وقد كانت "رندة" آنذاك مـــــا تـــزال صعبة المنال، لحصانتها الفائقة ، فأذعن الابن لأبيه، فقبل التسليم بعد أن أعطاه القـــائد المرابطي"جرور" الأمان. ولكن ما كادت أن تقع المدينة في أيديهم حتى نقض المرابطي عهده ، وقام بإعدام الراضي، ونهب أمواله . وكان ذلك في رمضان من سنة 484 هـــ . أما "ميرتله" (أو مارتلة) فهي مدينة كانت تقـــع في جنوب البرتغال . وكان حاكمها الابن الثاني للمعتمد، وهو " أبو بكر". وكان من حسن حظه أن أبقى المرابطون على حياته. إلا أن أمواله و ممتلكاته لم تسلم من نهبهم.[69]

ومن جهة أخرى خرج "يوسف بن داود بن عائشة" في سنة 485 هـــ ليستكمل فتح ساحل الشرق مما وراء "مرسية"، حيث مدينتا "دانية" و"شاطبة". أما الأولى فقد انتزعها ابن عائشة من المقتدر بن هود دون مقاومة، وأما الأخرى فدخلها المرابـــطون دون قتال أيضا في السنة نفسها بعد أن فر صاحبها، "ابن منقذ".[70]

تحدثت سابقا عن دخول "السيد" إلى "بلنسية" واستيلائه عليها بطريقة مؤســـــية. وقد روعت الأندلس لسقوطها، كما روعت عند سقوط طليطلة. وعند ذلك بـــــدأ أعيان المدينة وأكابرها يراسلون أمير المسلمين ابن تاشفين يطلبون منه النجدة، فاعتزم ابن تاشفين على غزو المدينة، وحشد معظم قواته التي كانت متجمعة في المدن المجاورة

---

[68] ينظر : عصام الدين عبد الرؤوف الفقي:دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس، القاهرة : دار الفكر العربي، د.ط، 1998، ص 258.

[69] ينظر : محمد عبد الله عنان : م.س.، ص 352.

[70] ينظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي؛ المرابطون، صنهاجة، الصحراءو الملثمون في المغرب والسودان والأندلس، الاسكندرية : منشأة المعارف، الطبعة الأولى1995، ص 354 .

لمملكة بلنسية "،كطرطوشة" و"لاردة" و"ألبونت"، وكتب إلى حاكم غرناطة المرابطي، وإلى أمراء شرقي الأندلس يدعوهم للاستعداد حتى يستردوا بلنسية من أيدي النصارى. وقد لقي المرابطون في بادئ الأمر مواجهة عنيفة من قبل الأعداء بالإضافة إلى حصانة المدينة، مما أجبرهم على أن يضربوا حولها حصارا، ولكن لم ينفع ذلك. وبالمقابل هاجم السيد القوات المرابطية ذات ليلة و نال منهاأشد النيل ثم رجع إلى حصنه. واستمر الحصار طويلا. ثم بعث السيد إلى حلفائه النصارى يترجاهم مساعدته، وكان له ذلك، فوقعت معركة بين السيد من جهة، والمسلمين من جهة أخرى كان النصر فيها حليف النصارى.[71]

وفي تلك الأثناء كان الزعيم المرابطي،"ابن عائشة"حاكم مرسية ، قد سار في جيش ضخم إلى أحواز " قونكة "، وهزم القشتاليين، ثم اخترق أراضى بلنسية، وهناك التقى فرقة من جنود السيد فأبادها إلا عدداً يسيرا ولى هاربا. وفي تلك الأثناء أيضا، كان جيش مرابطي قد سار من الجنوب نحو أراضي طليطلة ، وعاث فيها، كما تمكن من قتل ابن السيد " دون ديجو ".وقد أثرت هذه الأحداث على السيد وأضعفته، بالإضافة إلى أنه اشتد عليه المرض وأرهقه الإعياء،فتوفي غما وكمدا في سنة 1099م، فتولت مكانه زوجته "خمينا" للدفاع عن المدينة . وكانت القوات المرابطية قد اجتمعت قبل ذلك ببضعة أشهر، تحت إمارة قائدها الأمير " أبي محمد مزدلي " مستعدة للهجمة الأخيرة.

فلما قدم ألفونسو إلى المدينة بقواته بطلب من " خمينا " لإنجادها، روعه المرابطون بجندهم، و لم يشأ أن يغامر بجيشه. وأثناء ذلك خرجت "خمينا" ومعها أموال القادر والنصارى الذين كانوا في المدينة إلى خارجها. وفي اليوم الموالي دخل المرابطون بلنسية، وعاد الثغر العظيم إلى حظيرة الإسلام. وكان ذلك في شعبان من سنة 495 هـ.[72]

---

[71] ينظر : محمد عبد الله عنان : م.س.، ص 236-237.

[72] ينظر : سعدون نصر الله : م.س.، ص 288-289.

أما عن زوال دول ملوك الطوائف في غرب الأندلس،فأبدأ بذكر ما كان من أمـــر مملكة بطليوس، إذ أن صاحبها المتوكل بن الأفطس،أحس بأن شبكـــة المرابطين سوف تلقى عليه عندما علم بأن إشبيلية وقعت في أيديهم. وكان المتوكل قد أرسل قبل ذلك إلى يوسف بن تاشفين رسالة،يدعوه فيهـــا إلى نصرة الأندلس من مخالب النصـــارى، وجمع كلمة ملوك الطوائف لتوحيد المنطقـــة. وأرى أن المتوكـــل استخدم ذكـــاءه حيال الأحداث التي تجري، فهو أراد بذلك أن يبقي على مملكته، ويكسب وُدّ عاهل المغرب وكبير جنده "ابن أبي بكر". أما الأول فقد استقبله بجفاء عندما حضر مع ابن عبـــاد لتهنئته عقب استيلائه على غرناطة، وأما الثاني فقد استطاع ابن الأفطس أن يوثق من علائق صداقته معه، إذ استمرت هذه الآصرة قرابة ثلاثة أعوام.[73]

وعندما بدأ المرابطون يشنون ضرباتهم على مملكة بطليوس، شعر المتـــوكـــــل أن العلاقة التي كانت تربطه بالمرابطين قد انحلّت عراها، ولم يكن له سوى أن يلتفت إلى مـــلك قشتالة مثلما فعل المعتمد بن عباد، يرجو مد يد العون له، و يطلب منـــه أن يحميه. وقد أغراه بهديـــة لا تقدر بثمـــن، تمثلت في ثلاث مدن هامة، تابعة لمملكته، وهي "أشبونة" و"شنترة" و"شنترين" التي سلمت إلى ملك قشتالة على طبق من ذهب. وأدى هذا العمل المشين إلى أن خرج أهل بطليوس عن طاعته و انحرفوا عنه، حيـــث كاتب أعيـــانهم المرابطين يدعونهم لاستلام المنطقة، وإلى وضع حد لتصرفـــــات ابن الأفطس. و في أوائل سنة 488 هـــ بعث أمير إشبيلية و فاتحها "سير بن أبي بكر" قوة ضخمة إلى بطليوس لاستعادتها. وقد تم له ذلك، إذ سرعان ما اخترقت جيوشـــــــه الضخمة أراضي بطليوس، مما اضطر حليف المتوكل،ألفونســـو السادس،إلى أن يخذله، حيث امتنع عن تقـــديم المساعدة له. ولم يجد ابن الأفطس منجاة من ورطته ســـوى أن يلتـــجئ إلى قصـــبة بطليوس المنيعة الضخمة محتميا بها، لكـــن المرابطين كانـــت قوتهم تفوق حصانتها، حيث دخلوها عنفا واندفاعا، وقبضوا على المتوكـــل وابنيـــه

---

[73] ينظر :م.س.، ص 282.

"الفضل" و" العباس"، ثم أعدموهم في طريقهم إلى إشبيلية، بعد أن استولوا على أمواله جميعها. وهكذا زالت مـــملكـــة بطليوس، وغربت شمس بني الأفطس عنها،وصارت تلك المنطقة إلى سلطة المرابطين.[74]

ثم إن فتح مملكة بطليوس و الاستيلاء عليها ، شجع المرابطين إلى زحفهم على ثغر "أشبونة " الذي كان تحت حامية قشتالية يقودها الكونت " ريمون البرجوني"، صـــهر ألفونسو السادس، حيث هاجم الجنود المرابطون المنطقة بقوة، وقتلوا منها ما قتلـــوا، وأسروا ما أسروا، وضموا الثغر بعد ذلك إلى المملكة الإسلامية المرابطية.[75]

إن الذي يمكن أن أقوله في هذا المقام ، وذلك استنتاجا من قراءتي المتأنية لتـــاريخ هذه المملكة، وبالضبط ما يتعلق بصاحبها، هو أن المتوكل كان بحق رجلا شهـــــما في بداية الحركة الاسترادادية التي قادها زعيم النصارى ألفونسو السادس، وقد ظـــــل يلـــبي طلب الإغاثة الذي كان يرد عليه من قادة الممالك الإسلامية ، وقد كان سباقا إلـــى الإعانة، يمد يده على قدر ما يستطيع، ولكنه لما استفحلت فتوحات المرابطـــين في الأراضي الأندلسية، وخُلع كثير من ملوك الطوائف، شعر أن الخطـــر يهدده، فأدار وجهه إلى الذي كان عدوه بالأمس، وطلب منه المساعدة، بل إنه سلم إليه بعض مـــا كان يدافع عنه بالأمس، جبنا وطمعا، فكانت النتيجة أن خذله.

وأرى في هذه القضية أنه ما كان للمتوكل أن يلجأ إلى من كان عدوه بالأمـــس مستعينا به، مسلما إليه بعض المدن التي كانت تابعة لمملكته. فهل نسي المتوكـــل أم تناسى – وهو الذي كان على قدر غير قليل من العلم- قوله تعالى : (وَ لَنْ تَرضَـــى عَنكَ اليَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتىَّ تَتبَّعَ مِلَّتَهُمْ) ؟ أم أن شهوة البقاء و شراسة المرابطـــين ومكر النصارى أعمته عن التفكير في العواقب ؟

إن مثل هذه التصرفات التي قام بها ملوك دول الطوائف لتعد نقاطا ســـوداء فـــي

---

[74] ينظر : محمد عبد الله عنان، م.س.، ص 368-369.

[75] ينظر : م.ن.، ص 271.

التاريخ الأندلسي، وهي تحسب على أولئك الملوك، وقد قلت سابقا إن الملك الضعيف ليس له بقاء مع العدو القوي. وأنا أرى أن ما قام به المرابطون قد شرف –في وقت معين– التاريخ الإسلامي، لأنه وجب آنذاك أن تكون للأندلس قيادة موحدة، حتى لا يسهل على العدو الاستيلاء عليها. ولذلك قام المرابطون بخلع جميع ملوك الطوائف. ولم تأت سنة 490 هـ حتى كانت ممالك الطوائف قد سقطت في أيدي المرابطين، ما عدا سرقسطة، التي سأتحدث عن سقوطها فيما يأتي، وغدت إسبانيا المسلمة ولاية مغربية يحكمها ويشرف عليها حاكم واحد هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وأعود إلى الحديث عن الفتوحات المرابطية لأراضي ملوك الطوائف وخلعهم،فأذكر أنه لما تم إسقاط كل ممالك الطوائف في عهد ابن تاشفين، كانت هناك مملكة لم تقع بعد في أيدي المرابطين إلا بعد وفاة ابن تاشفين، وهي مملكة سرقسطة التي كان يحكمها " المستعين بن هود ". فلما قتل هذا الأخير خلفه ابنه " عبد الملك " الملقب " بعماد الدولة ". وكانت هذه المملكة في عهد أبيه محالفة للنصارى. فلما أراد أهل سرقسطة أن يبايعوا الابن اشترطوا عليه أن يترك محالفة النصارى وأن يخرجهم من الجيش ، فتعهد لهم أول الأمر بذلك، ولكنه عندما أخذ مقاليد الحكم تراجع عن عهده لهم ولم ينفذ وعده.[76]

وفي هذه الأوقات كانت الدولة المرابطية في عز انتصاراتها.وقد خشي أهل سرقسطة أن يقع الزحف على مملكتهم، بالإضافة إلى عصيان ملكهم لهم. لهذه الأسباب بعث السرقسطيون إلى أمير المسلمين في المغرب آنذاك، وهو "علي بن يوسف بن تاشفين"، يناشدونه خلع "بني هود"، وتسلم سرقسطة. فلم يتأخر علي بن يوسف عن الاستجابة لهذا الطلب الذي يعد مكسبا جديدا لتوسيع رقعة الدولة المرابطية في الأندلس. فاستفتى فقهاءه فأفتوه بوجوب ذلك. فأرسل إلى والي بلنسية المحاذية لسرقسطة، وهو

---

[76] ينظر : محمد عبد الله عنان : م.س.، ص 292.

القـــائد " محمد بن الحاج "، يأمره بأن يسير إلى سرقسطة. ولما علم " عماد الدولة " بذلك، بعث إلى "علي بن يوسف" يستعطفه، ويترجاه أن لا يقدم على هذا الفعـــل، وكتـــب إليه رسالة مؤثرة يذكره فيها بتلك العلاقة الأخوية التي كانت تربـــــط أبويهما،ويذكر له أنه لم يصدر منه ما يسيء إليه،فرق علي لخطابـــه،وكتب إلى ابن الحاج يأمره بتركه.[77]

ولكن الأمر كان قد قضي عندئذ، حيث غادر " عماد الدولة " سرقسطة مع أهله وأمواله متجها إلى حصن "روطة" المنيع واستقر به. وفي رواية أخرى، أنه لما شـــعر بزحف ابن الحاج نحوه قام بمقاومته واستعان بألفونسو ملك " أراجون "، فوقـــع بين الفريقـــين قتال عنيف، قتل فيه ابن الحاج وانهزم جيشه، إلا أن عداء أهـــل سرقسطة لأمـــيرهم جعلهم يخرجون ويستدعون عامل أمير المسلمين ليستولي على سرقسطـــة. وكـــان ذلك في أواخر سنة 503 هـــ.[78]

وبهذا انتهى حكم بني هود في سرقسطة التي كانت آخر ما استولى عليه المرابطون. وقد تم لهم بذلك فتح شرقي الأندلس كله و كذا الثغر الأعلى من الرقعة الأندلسية.

---

[77] ينظر : م.ن.، ص 292

[78] ينظر : سعدون نصر الله: م.س.، ص 303.

4-ابتعاد بعض الأدباء عن أوطانهم :

إن الإنسان لشديد التعلق بالبيئة التي ولد فيها وتربى في أحضانها، حتى إنها لتغدو جزءا لا يتجزأ من حياته وشخصيته، وإن ذاكرة هذا الإنسان لتختزن كثيرا من ذكريات أيام صباه وتحتفظ بأخبار لهوه ولعبه ، واستعادة تلك الذكريات لتوقظ النفس وتحركها أبدا.

ويزداد ذلك التعلق بالوطن حين يغادره صاحبه ويهجره لسبب أو لآخر، فيشتد تلهفه ويتعاظم تشوقه، فيغدو متذكرا لأرضه وسمائه وبشره وحيوانه ... وإذا كان هذا الإنسان أديبا، تحرك وجدانه، وفاض خاطره واتقدت عواطفه ومشاعره، فلا يجد مترجما لذلك سوى نظمه لأصدق الشعر، أو تحريره لجيد النثر....وإذا كان هذا المكان هو الأندلس، تلك التي فضلها بعض الشعراء على جنة الخلد، كان الأمر أجلّ .

وإن ما أحاوله في هذا الحديث ، هو التعريف ببعض الأدباء الذين غادروا أوطانهم الأصلية إلى أماكن أخرى،إما في الرقعة الجغرافية نفسها، أي الأندلس، أو إلى خارجها، فولد لهم هذا الانتقال حنينا إلى أهلهم وشوقا إلى أوطانهم. وقد صبوا ما أحسوا به من مشاعر الاغتراب في أدبهم. وأهم أولئك الأدباء : ابن زيدون، والمعتمد بن عباد، وابن حمديس، وابن خفاجة. وقد رتبتهم بحسب تواريخ ميلادهم.

- *ابن زيدون* :

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي. وهو وزير كاتب شاعر من أهل قرطبة. انقطع إلى ابن جهور، فكان السفير بينه وبين ملوك الطوائف بالأندلس. وقد ولد في سنة 394 هـ.[79]

لقد ذكرت سابقا أن الفتنة التي شبت في الأندلس، مست أجمل مدنها، وعاثت فيها فسادا. ومن بين هذه المدن "قرطبة" التي كانت آنذاك مركزا للحضارة والعلم.

---

[79] ينظر : الزركلي: الأعلام، الطبعة الثالثة، د.ت.، 151/1.

وقد ذهب ذلك الاضطراب بملك الأمويين، فقامت في قرطبة دولة بني جهور. وكان لابن زيدون حضور في تلك الأحداث. ذكر " الفتح بن خاقان " في كتابه " قلائد العقيان " أن ابن زيدون كان "زعيم الفتنة القرطبية، ونشأة الدولة الجهورية".[80]

وأضيف إلى ذلك ما كان بين ابن زيدون والوزير "ابن عبدوس" من تنافس في حب الأميرة الأديبة " ولادة بن المستكفي". وقد كانت هذه الأمور مجتمعة من بين الأسباب التي أدت إلى سجن ابن زيدون . ومن هذا السجن كان ابن زيدون يشكو حاله ويستعطف أبا الحزم ويتوسل إليه ولكن ذلك لم ينفعه في شيء،فظل في سجنه ، وفيه أيضا تأجج في قلبه حب ولادة، و اضطرم حنينه إليها.

إنّ عدم اكتراث أبي الحزم بتوسلات ابن زيدون له، جعله يفكر في منجاة، فتمكن من الفرار من السجن،بتآمر أوغيره –ففي ذلك اختلاف- متجها لأول مرة إلى إشبيلية، حيث "المعتمد بن عباد". فاستقبلته إشبيلية بصدر رحب، كيف لا وقد بلغ شعره الآفاق،وعرفه الداني والقناصي، فضلا عن أنه كان صاحب مترلة في رحاب قرطبة. وقد كان بلاط المعتمد مقصدا لكل أديب،وكان ابن زيدون حامل لواء الأدب على عهده.[81]

إلا أنّ هذا المقام الطيب بين يدي المعتمد لم ينسه بلده قرطبة، إذ لم يفتأ يحن إليها ويذكرها في أشعاره، حتى خالط ذكرها حنينه إلى حبيبته ولادة. وأوضح مثال على ذلك قصيدتاه " أضحى التنائي" و" إني ذكرتك بالزهراء"، حيث نظم القصيدة الثانية عندما عاد إلى قرطبة التي لم يطق فراقها متخفيا بضاحيتها "الزهراء". وأثناء ذلك مدح الشاعر أبا الحزم واستعطفه،إلى أن حظي بعفوه،بمساعدة ابنه أبي الوليد،فتوثقت الصلة بينهما مرة أخرى.[82]

---

[80] ينظر : ابن زيدون : ديوان ابن زيدون، شرح و تحقيق " كرم البستاني، بيروت: دار صادر ، د.ط.، 1975، مقدمة المحقق، ص 5 .

[81] ينظر: جودت الركابي : م.س.، ص 178.

[82] ينظر: م.ن.، ص 179-180.

وكان ابن زيدون قد أقام أيضا "بطرطوشة" أثناء وجوده بأقصى شرقي الأندلس، وهي مدينة من أعمال بلنسية، و فيها شده الحنين إلى وطنه قرطبة، وقال في ذلك بيتين أولهما: "غريب بأقصى الشرق" . ثم قصد بطليوس في الغرب سنة 441 هـ ، فتذكر بها معاهد في قرطبة، وراح يعددها معهدا معهدا . وأخذته الحسرة على أيامه التي خلت، فنظم قصيدته الجميلة: " خليلي لا فطر يسر ولا أضحى" وإن كان قد لاقى من " المظفر" صاحب "بطليوس" كل معاني الترحاب والكرم.[83]

فهذه المدن التي حظي فيها بالإكرام والتقدير لم تنسه وطنه الأصلي، وظل دائم الشوق إليه، كثير الذكر له في أدبه.

ولما عاد ابن زيدون مرة أخرى إلى بلاط المعتمد بن عباد لقي من الترحاب ما فاق كل ظنه، حيث شرح له المعتمد صدره، وأذهب عنه غمه، ورفع له ذكره. وقد كانت حياة ابن زيدون في عهد المعتمد مترعة بالهناء والسعادة. ولكن هذه الخطوة التي تمتع بها لم تكن لتنسيه كذلك قرطبة، بل ظل طيفها ملازما له، وحبها ساريا في دمه.

- المعتمد بن عباد :

هو "المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله ... قاضي إشبيلية بن أبي الوليد إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف... كان المعتمد المذكور صاحب قرطبة وإشبيلية وما والاهما من جزيرة الأندلس ... أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثمادا، وأرفعهم عمادا... وكانت ولادته في شهر ربيع الأول سنة إحدى و ثلاثين وأربعمائة بمدينة باجة من بلاد الأندلس".[84]

---

[83] ينظر: م.ن.، ص 184.

[84] ابن خلكان : وفيات الأعيان: تحقيق إحسان عباس ، بيروت : دار صادر، د.ط، د.ت، 5/21-24.

إن حيـــاة المعتمد بن عباد تستوقفني فيها محطتان أساسيتان هما : انتقال المعتمـــد من مدينة إشبيلية، ونفي المعتمد من إشبيلية إلى " أغمات" بالمغرب من قبل المرابطين.

في بادئ الأمر عندما كان المعتضد ملكا على إشبيلية، ولى ابنه المعتمد مدينة"شلب" عقب استيلاء بني عباد عليها في سنة 455 هـــ، وقد استوزر المعتمد أثناء ذلـــك صديقه الشاعر المقتدر " أبا بكر بن عمار ". ولما توفي المعتضد أخذ المعتمد مكـــانه، فجلس على عرش إشبيلية وعمره ثلاثون سنة. وكان من أفضل ملوك الطـــوائـــف وأقواهم وأشجعهم، بل وأكرمهم وأسخاهم، فهو الذي كانت تضرب إليه آبـــــاط الإبل، إذ صار بلاطه مرتعا للشعراء وغيرهم من الأدباء، يأتونه من كل فج عميـــق ليشهدوا منافع لهم، وقد كان المعتمد ملكا وشاعرا في الوقت نفسه.

ومدينة "شلب"، التي ذكرتها، توجد في المنطقة البرتغاليـــة، تلك المنطقـــة النائيـــة الغنية بطبيعتها، والآخذة بسحرها. وقد تمتع صاحبنا برياضها وجنانها وهوائها وهو في عنفوان شبابه ، فتركت تلك المدينة وما عاش فيها من أيام في نفسه ذكريات ظـــلت تتجدد كل لحظة في ذاكرته. وقد صورها فيما بعد في بعض قصائده، كالقصيدة التي خاطب بها وزيره وصديقه ابن عمار حين وجهه إلى "شلب " لتفقد أعمالها، ومطلعها : *" ألا حيّ أوطاني بشِلْب أبا بكر"*.

تلك هي المحطة الأولى. أما الثانية فهي " أغمات". لقد تحدثت من قبل عن دخول المرابطين مملكة إشبيلية ، حيث إنهم اصطدموا بمواجهة عنيفة، قاتل فيها الإشـــبيليون بشجاعة واستبسال. لكن ذلك لم يغنهم شيئا، مما اضطر الملك المعتمد بن عباد إلى أن يتحصن في قصره حتى لا يمسه المرابطون بأذى. وحاربهم ، هو كذلك، بقوة وشرف. لكن المرابطين دخلوا الحصـــن وألقوا القبض على المعتمد وآله. عند ذلك قرر أمـــير المسلمين ابن تاشفين نزع المعتمد وآله من قصر إشبيلية. وأعدت لهم سفن خاصة بهم، سيرت عبر نهر الوادي الكبير ثم البحر إلى المغرب. وأثناء ذلك كانت جموع غفيرة من

سكان المنطقة قد احتشدت لتودع ملكها بالبكاء والنواح واللطم وشق الجيوب،حينما رأته مع أهله، وأنفه راغم بعد شموخه.[85]

سيق المعتمد وأهله في بادئ الأمر إلى طنجة، وسجنوا فيها أياما، ثم نقلوا بعد ذلك إلى مدينة "مكناسة" ولبثوا هنالك أشهرا معدودات ، ثم صدر قرار بتحـــويلهم إلى " أغمات" في أواخر سنة 484 هـــ أو أوائل سنة 485 هـــ. وتلك هي المحطـــــة الثانية. وأغمات مدينة صغيرة تقع على مقربة من عاصمة المرابطين " مراكش " ، وقد كانت معقلا للأمراء الأندلسيين، حيث جيء إليها قبل المعتمد "بعبد الله بن بلقـــين" أمير غرناطة مع أهله. وقد زج بالمعتمد وأسرته في قلعة منيعة، حيث قضى في سجنـــه ما تبقى من عمره، مصفدا بأغلال الأسر، وضربت عليه الذلة والمسكنة، وباء بغضب من ابن تاشفين. ولم يكن هذا المعتقل عاديا يليق بأمثال هؤلاء الملوك ، بل كان سجنا لا يمكن أن يوصف إلا بأشنع الصفات. وقد ضيق فيه على المعتمد ومن معه ، فأثـــر ذلك على زوجه. فذهب بهاؤها، وانزوى نورها. وقد كانت " اعتماد الرميكية " من قبل شمس نساء الأندلس ، فآل أمرها إلى المرض ثم الموت . وقد حزن المعتمد وأولاده لذلك حزنا شديدا. ودفنت على مقربة من المعتقل بأغمات.[86]

وقد أيقظت محنة المعتمد شاعريته، فكان قرض الشعر عزاءه الوحيد، وأنيسه الذي يجالسه في سجنه وغربته ، فصدرت له طائفة من القصائد تعد من عيون الشعر العربي في الأندلس، وكانت في معظمها تحسرا على ماضيه ، وبكاء على مجده الذي أفل .

وقد أذكت هذه المحنة أيضا جذوة الشعر في الأندلس ، فنظم فحول الشعـــراء الأندلسيين مراثي خالدة في دولة بني عباد. وكان سابق حلبتهم هو "أبا بكـــــر بن اللبانة" الذي سنلقاه في الفصل الموالي.

---

[85] ينظر : محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية و أندلسية، القاهرة : مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، 1970، ص 218.

[86] ينظر : م.ن.، ص 219-220.

ولقد دام سجن المعتمد بأغمات قرابة أربعة أعوام، بلغ التضييق عليه فيـــها ذروته، إلى أن وافته المنية سنة 488 هـــ وهو ابن سبع و خمسين سنة. ودفن بالمدينة ذاتـــها قرب زوجته المذكورة.[87]

-ابن حمديس :

هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر محمد بن حمديس الأزدي الصقلي . شـــاعر مبدع، ولد بسرقوسة سنة 447 هـــ وتوفي بجزيرة ميورقة سنة 527 هـــ.[88]

وإذا نحن عشنا مع ابن حمديس الصقلي، وجدنا أنه كانت بين جنبيه نفس أبيـــة، لا ترضى بالذل والمهانة. فلما بلغ أشده واستوى ، كان النورمان قد بدأوا في فتـــح جزيرة صقلية، وعلى إثر هذا الفعل العدواني بدأ الصقليون يهاجرون من بلدهـــم إلى مصر والقيروان والأندلس.

وكان ابن حمديس من بين الذين تركوا وطنهم وهاجروا إلى أوطان أخـــرى ، إذ انتقل إلى الأندلس ثم المغرب، وإن كان بعض الأدباء الصقليين لم يهاجروا من بلادهم عند دخول النورمان ، وظلوا فيها يمدحون حكامها ويتقربون منهم. ونحن لا ننكر أن النورمان قد طبقوا مبدأ التسامح مع أهل صقلية، وكـــان من الممكن أن يبقـــى ابن حمديس في وطنه يحظى بالمكانة الرفيعة التي تليق بمقامه إلا أنه آثر الخروج والهجـــرة على البقاء.[89]

لكن الذي يجب أن اذكره كذلك هـــو أنه على الرغم من التســـامح الديني الذي عامل به النورمان أهل صقلية ، فإنهم كانوا يشيعون فيهم الدين المسيحي ويحرضونهم عـــلى ترك دينهم، وهو ما كرهه ابن حمديس وأبغضه. وكيف لا وقد ترعرع في

---

[87] ينظر : م.ن.، ص 221.

[88] الزركلي :م.س.، 47/4.

[89] ينظر : سعد إسماعيل شبلي: ابن حمديس الصقلي : حياته من شعره، القاهرة : دار غريب للطباعة، د.ط.، د.ت.، ص 179 .

أسرة عريقة ينتهي نسبها إلى أصل عربي، وتشبع في بداية حياته بالروح الدينية، تشبعا كان له –من بعد- أثر في شعره، إذ اصطبغ بعض قصائده بهذه الروح .

كانت هذه الأسباب هي التي دعت ابن حمديس إلى هجرة وطنه. و تذكر بعض الكتب أن هناك سببا آخر لتلك الهجرة، وهو سبب عاطفي ، فقد وقع شاعرنا في حب فتاة من بيت عريق النسب، فاضطر إلى أن يفر بجلده من صقلية عندما علم أهل الفتاة، وقاموا بمضايقته، إذ لم ير حلا سوى الهجرة و الفرار.[90]

وقد ظل وطنه مرتسما في ذاكرته ، وصار شديد الحنين إليه. وله في ذلك قصائد كثيرة ، منها تلك التي مطلعها : "فارقتكم وفراقكم صعب".[91] و هناك كثير من الأبيات في الديوان تؤكد هذا الرأي، حيث كان في الغالب يصدر بها قصائده.

إن ابن حمديس منذ أن خرج من مدينة سرقوسة،ظل طيفها يصاحبه في كل مكان يقصده، وقد اختزنت ذاكرته صورة الأيام فيها، حيث مال إلى اللهو والمرح والتمتع بملذات الحياة، وظل الحنين يشده إلى وطنه الجميل، تلك البقعة الخلابة ذات الطبيعة الساحرة.

وقد قصد ابن حمديس بلاط المعتمد بن عباد بالأندلس ، ومدحه مدحا أعجب به ابن عباد، فصار يجود عليه بالمال الوفير. و لم يعد ابن حمديس إلى صقلية التي فارقها في ريعان شبابه، وقد خلف فيها معظم أسرته فظل متعلقا بها، وفاحت قصائده بحنينه إليها.

ولما بدأ المرابطون حملتهم في خلع ملوك الطوائف، ونفوا المعتمد إلى " أغمات"، انتقل ابن حمديس من الأندلس إلى بلاد المغرب، وتوجه إلى أغمات لزيارة صديقه

---

[90] ينظر : م.ن.، ص 181.

[91] ابن حمديس :ديوان ابن حمديس، صححه و قدم له: إحسان عباس، بيروت: دار صادر و دار بيروت، د.ط،1960 ، مقدمة المحقق، ص 8.

الذي عاش في نعمائه زمنا. وقد بقي هناك مدة لا يعلم مداها.[92]

ولقد أقام ابن حمديس في إفريقية بعد أن غادر الأندلس ما يزيد على نصف عمره، وظل متنقلا بين " أغمات" و"سلا" و"المهدية" و"بجاية" و"بونة" و"قابس" و"سفاقس" و"ميورقة" و"سبتة".[93]

لقد كان ابن حمديس أكثر الأدباء تنقلا وابتعادا عـــن بلاده في هذه الفترة (القرن الخامس الهجري) . وقد ملأ ديوانه بقصائد تدل على مدى تعلقه بوطنه وحنينـــه إلى أهله.

- ابن خفاجة :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري الأندلسي، من الكتاب البلغاء، غلب على شعره وصف الرياض ومناظر الطبيعة. وهو من أهل جزيرة "شقر" (Jucar) . ولد سنة 450هـــ، و توفي سنة 533 هـــ.[94] وشقر: جزيرة في شرقي الأندلس. وهي أنزه بلاد الله و أكثرها شجرا وماء.[95]

وقد كان ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس بلا منازع. ويعد ضمن الشعراء الأوائل في الأندلـــس.

ومن عوامل نبوغه أنه نشأ في تلك الجزيرة الغنية بطبيعتها، فصقلت تلك الطبـــيعة الخلابة ملكته الشعرية.

وقد كان أبرع الشعراء في وصف الأنهار والأشجار، والرياض والحياض، والرياحين والبساتين،حتى لقبه أهل الأندلس "بالجنان". وقد حملت تلك الطبيعة الســـاحرة،التي كانت جزيرة "شقر" تمتاز بها،ابن خفاجة على أن يلازمها معظـــم أوقاتـــه، وأن لا

---

[92] ينظر : رابح بونار : المغرب العربي : تاريخه و ثقافته، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، د.ط.، ، 1968 ص 346.

[93] ينظر : ابن حمديس : م.س.، ص 12.

[94] الزركلي : م.س.، 51/1.

[95] ياقوت الحموي : معجم البلدان، بيروت : دار صادر، د.ط.، د.ت.، 354/3.

يبرحها. وكان ابن خفاجة متعلقا ببلدته تعلق المحب بحبيبته. ولعله لذلك لم يكن كثير الترحال، فلم يسافر إلّا قليلا ، وكان إذا سافر لم يتجاوز حدود شرقي الأندلس، كأن يترل إلى بلنسية أو مرسية، أو شاطبة، حيث يمكث أياما معدودات ثم يولي راجعا إلى شقر. يضاف إلى ذلك أنه كان نحيلا لا يقوى على الترحال، إذ كان يسبب لـــــه النصب والإرهاق.[96]

على أن ابن خفاجة رحل في إحدى المرات إلى خارج الأندلس، وبالضبط إلى عدوة المغرب، حيث أقام مدة. وكان أثناء ذلك كثير الحنين إلى بلده. وقد قـــال أشعـــارا مملوءة بالتشوق والحنين إلى الأندلس عامة وإلى جزيرته ومحل إقامته خاصة.[97]

ويجد المتصفح لديوان ابن خفاجة عدّة مقطوعات شعريّة، يذكر فيها جزيرة شقر، أو يذكر الأندلس كلها، وهي مفعمة بالشوق والتحنان. وهذا دليل قاطع على أن الشاعر ابتعد عن وطنه.

تلك جولة عبر الأحداث التاريخية بالأندلس، حططت خلالها في محطات رأيت أنها كانت الأسباب الباعثة إلى الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي. وقد بدأت بذكر الفتنة البربرية، ووصف ما ترتب عليها من وضع متردّ، وفوضى عارمة، انتهت بميـــــلاد دويلات الطوائف، ثم عرجت على حركة الاسترداد، واصفا ما نجم عنها من سقوط كثير من المدن التي كانت في حظيرة الإسلام، ثم تحدثت عن تدخل المرابطين في الرقعة الأندلسية، منجدين أولا، وملحقين الأندلس بالمغرب بعد ذلك، خالعين من كانوا على رأسها، وذلك لما ضعفوا عن مقاومة العدو، ثم انتهيت إلى ذكر تحول بعض الأدباء عن أوطانهم لأسباب مختلفة.

---

[96] ينظر: حمدان حجاجي: حياة و آثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الطبعة الثانية، 1982، ص. 56 .

[97] ينظر: فؤاد أفرام البستاني : ابن خفاجة : منتخبات شعرية، بيروت : دار المشرق، الطبعة الرابعة ، 1983، ص 271

إن الأحداث التي وصفتهـــا كانت أسبابا مباشرة في بروز الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي خلال هذا القرن : فالفتنة البربرية كانت سببا في تجزؤ البلاد وتفرق الكلمة، فقام الأدباء بالدعوة إلى جمع شتات الدويلات و لمّ شمل الأندلس؛ وحركة الاسترداد كانت حافزا للأدب لإيقاظ الهمم، حتى يدافع المخلصون عن وطنهم الذي أخـــذ من لدن أعدائهم؛ وزوال أولئك الملوك وسقوط دولهم وإلحاق بلادهم بالمغرب أيقـــــظ الشعور الوطني لدى أدباء الأندلس، فأخذوا في رثاء دولهم، ثم في انتقاد المرابطين ، أما تنقل الأدباء وابتعادهم عن أوطانهم، فإنه أذكى حنينهم و شوقهم إليها.

الفصل الثاني

الاتجاه الوطني في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري

افتتحوها جعل منها"موسى بن نصير" مكان إقامة له،و دعا فيها "للوليد بن عبد الملك" الخليفة بدمشق. و لما استولى عليها الأمير الأموي "عبد الرحمن الداخل" جعلها عاصمة ملكه. و ظلت منذ زمن "عبد الرحمن الناصر" مقر الخلافة العربية بإسبانيا.

وقد حاول الأمراء و الخلفاء الأمويون أن يجعلوا من قرطبة مدينة تشبه مدينة دمشق عاصمة أجدادهم، فراحوا يستقدمون أرباب العلم والأدب من بغداد والحجاز، "كأبي علي القالي " صاحب كتاب " الأمالي "، و" صاعد اللغوي "، و" أبي محمد العذري " الحجازي و غيرهم.[1]

وهناك أماكن ومعالم كثيرة في قرطبة تعد شهادة بينة ودليلا واضحا على بلوغ الحضارة العربية أوجها في الأندلس. ولا أدل على ذلك من " الرصافة " التي بقي اسمها خالدا إلى يومنا هذا.

وكان عبد الرحمن الداخل " هو الذي أعد هذا المنتزه في شمالي غربي قرطبة لراحته الشخصية، وسماه كذلك تيمنا بالرصافة السورية. ويضاف إليها "العقيق" و "العقاب" و"قصر الفارسي" و"مجلس ناصح"، أو"قنطرة ناصح"، و"عين الشهد" و"مسناة مالك"، و "وادي ينطة"، و "البطحاء"، و "الجعفرية" و "الجسر"، و"الجوسق النصري"، و"الوعساء" ، و"مصنعة الدولاب " [2]. إلى غير ذلك من المتنزهات والأماكن التي كانت تسر الناظرين. بل إن بعضها كان ملتقى للعشاق. "كابن زيدون " و"ولادة بنت المستكفي".

ومما خلفته الحضارة الإسلامية في قرطبة،"المسجد الجامع" الذي يعد مَعْلما تاريخيا يظهر مدى ما وصل إليه العمران الرائع والزخرفة العجيبة، حيث أبدعت فيه اليد البشرية أسمى إبداع، وحق للأندلسيين أن يفاخروا به مساجد المشارقة. وكان الذي

---

[1] ينظر : حنا الفاخوري : الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب القديم، بيروت : دار الجيل، الطبعة الثانية، 1995، ص 895.

[2] ينظر : هنري بيرس : م.س.، ص 120.

بناه هو " عبد الرحمن الداخل". وزاد فيه " الحكم الربضي"، لكن الزيادة الكبرى فيه قام بها " المنصور بن أبي عامر"، وقد بلغت ثلثي المسجد الأصلي. وقد بني هذا المسجد على نظام المسجد النبوي الذي بناه الوليد بن عبد الملك بالمدينة المنورة.[3]

وقد بنى الخلفاء الأمويون قصور الزهراء خارج المدينة. وقد وصلت فخامة الملك وأبهة الخلافة العربية في الأندلس إلى ما لم يصل إليه غيرها، وبلغت ما لم تبلغه قصور الخلافة المشرقية في دمشق وبغداد.

إضافة إلى هذا ، أقام عبد الرحمن الناصر "منية الناعورة" بجوار الوادي الكبير. وسُميّت كذلك لأنها كانت فيها ناعورة.لكن قوات "واضح الصقلبي " دمرتها أثناء الفتنة سنة 401 هـ في الوقت الذي أتت فيه على الرصافة. و لم يبق شيء من "الزاهرة " و" العامرية ". وقد بكاهما "ابن شهيد" في مرثية التي سنذكرها لاحقا. أما "المنية المصحفية" فبناها الحاجب "جعفر المصحفي" في القرن العاشر الميلادي، فنسبت إليه. ثم انتزعها منه "المنصور بن أبي عامر". وقد بكاها، هي أيضا، حفيد جعفر المصحفي ، "أبو بكر بن أحمد"[4]، في أبيات سنذكرها ، كذلك، فيما سيأتي.

لقد أطلت في هذه المقدمة حتى يعرف القارئ مقدار الخسارة التي منيت بها قرطبة، ذلك أنّ هذه المتنزّهات والأماكن الجميلة التي أبدعت فيها يد البشر، وهذه المساجد النادرة، وذاك البنيان الشاهق، وتلك القصور بعمرانها الزاهي الراقي، قد عبثت بها شراسة الفتنة البربرية من جهة، وأبادتها حدة التعصب الديني – الذي بدا في إصرار الإسبان على محو كل أثر إسلامي، وذلك بعد استيلائهم على هذه المدينة – من جهة أخرى. وقد كان لهذه الأفعال الشنيعة التي اقترفت أثناء تلك الفتنة الأثر البالغ في نفوس بعض الشعراء الأندلسيين، فرثوا هذه المدينة العريقة، وتحسروا لما حل بها.

---

[3] ينظر : محمد لبيب البتنوني : رحلة الأندلس، د.ط.، د.ت.، ص 47-48.

[4] ينظر : هنري بيريس : م.س.، ص 120-121.

وأول ما أبدأ به، بيتان من الشعر للأمير " أبي الحزم بن جهور " قالهما عندما وقف على قصور الأمويين في قرطبة وقد تقوضت وهما [5]:

قُلْتُ يَوْمًا لِدَارِ قَوْمٍ تَفَانَوْا : أَينَ سُكَّـانُكِ الكِرَامُ عَلَينَا ؟

فَأَجَابَتْ : هُنَا أَقَامُوا قَلِيلاً ثُمَّ سَارُوا، وَ لَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَا.

لم يكن الشعر حكرا على فئة من المجتمع دون غيرها، بل كان هناك أمـــــراء، وملوك، وأصحاب وجاهة، وأفراد من الحاشية يقرضون الشعر على اختـــــلاف أصنافهم . فهـــذا الأمير أبو الحزم بن جهور يقف على أطلال ديار خلت من أهلها ، فيسألها متحســـرا حزينا عن أولئك الأهل. وهي طريقة ليست جديدة ، بل هي تقليد معروف للشعراء المشارقة، وبخاصة الجاهليين.

إن ابن جهور يخاطب ديار قرطبة،ويسألها عن السكان الذين كان قلبه يعزهم،فترد عليه بأنهم قد أقاموا فيها قليلا،ثم رحلوا عنها،دون أن تعلم الاتجاه الذي ساروا فيه.

إن هذا الحوار الذي تم بين الشاعر و الديار ليصور جيدا خواء قصور بني أمية من أهلها بعد أن كانت عامرة بهم. وأغلب ظني أن أبا الحزم قال هذه الأبيات أثناء الفتنة البربرية التي شوهت هذه العاصمة الأندلسية.

وأنتقل بعد هذا إلى فقيه،هو أحد أعلام الدين الإسلامي في الأندلس. إنه الإمام " ابن حزم الظاهري " الذي اكتوى بنار الفتنة البربرية و سجل في أدبه مشاهد مـــن آثارها. فبعد أن قوضت قوى البربر بلدة الزهراء سنـــة 401 هـــ واقتحمـــتهـــا واستحلت حرماتها، هبّت زاحفة على قرطبة كالأخطبوط، وتمكنت من محاصـــرتها كقطع الليل المظلم. فلما حل ما حل بقرطبة، و انتاب أهلها الرعب والهلع، فر بعضهم منها للنجاة بنفسه [6]. وكان من بينهم شاعرنا هذا، حيث ولى وجهه شطر " المرية ".

---

[5] أحمد بن يحيى الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، بحريط:مطبع روخس، د.ط.،1881، ص 244.

[6] كان من بين الفارين منها : العالم المحدث الفاضل أبو يوسف عمر بن عبد البر الذي تركها قاصدا إلى المرية وشاطبة و دانية؛و عبد الرحمن بن محمد الأزدي المصري ، الذي كان قد قدم إلى قرطبة و سكن بها ، فلما

وقد قال راثيا مدينته قرطبة[7] .

سَلاَمٌ عَلَى دَارٍ رَحَلْنَا وَ غُودِرَتْ ... خَلاَءً مِنَ الْأَهْلِينَ مُوحِشَةً قَفْرَا

تَرَاهَا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ،بَلْقَعَا ... وَلَا عَمَرَتْ مِنْ أَهْلِهَا قَبْلَنَا دَهْرَا

فَيَا دَارُ لَمْ يُقْفِرْكِ مِنَّا اخْتِيَارُنَا ... وَلَوْ أَنَّنَا نَسْطِيعُ كُنْتِ لَنَا قَبْرَا

وَلَكِنَّ أَقْدَاراً مِنَ اللهِ أُنفِذَتْ ... تُدَمِّرُنَا طَوْعاً، لِمَا حَلَّ، أَوْ قَهْرَا

فَيَا خَيْرَ دَارٍ قَدْ تُرِكْتِ حَمِيدَةً ... سَقَتْكِ الْغَوَادِي.مَا أَجَلَّ وَمَا أَسْرَىٰ

لم تخل هذه الأبيات من المعاني التي ساقها غيره من الشعراء،الذين رثوا المدن التي دمرت،إلا أن اللافت للانتباه فيها، هو الاستسلام لقضاء الله وقدره. فبعد أن صورحال تلك الدار التي رحل منها أهلها وتركوها بلقعا كأن لم تغن بالأمس، يقول: إن هذا الخلاء وذلك الجلاء لم يكونا من اختيار أهلها، بل كانا قدرا محتوما عليهم. ويلاحظ أن في الأبيات إشارة إلى أنهم لو استطاعوا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى لا يخرجهم العدو من ديارهم، وإن ضطرهم ذلك إلى أن يقبروا فيها، لفعلوا. ولكن، حسب قول ابن حزم، جرى قدر الله ونفذ على عكس إرادتهم .

وأشير في هذا المقام إلى أن أبا الحزم المذكور، لما رأى أن قرطبة صارت مسرحا للفوضى، ومحط أنظار المتعطشين للسلطة و محترفي الشغب، قام باتخاذ قرار شجاع وجريء، ألغى من خلاله الخلافة، فكان ذلك مؤشرا رئيسيا لغياب الحكم المركزي ولاختفاء الدور السياسي المميز لقرطبة، ثم تحولت بعد ذلك إلى إحدى الدويلات التي سادت في الأندلس في إطار نظام الطوائف.[8]

كانت الفتنة رجع إلى مصر؛إلى غيرها. ينظر : الصمدي خالد : مجالس الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد خاص بالملتقى الدولي حول المراكز الثقافية في المغرب الإسلامي، وهران : المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، العدد الأول، 1993، ص 135.

[7] عمر الدقاق : م.س.، ص 275.

[8] ينظر : إبراهيم بيضون : الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة ، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة و النشر، الطبعة الثانية، 1980، ص 379-380

أما خير ما نستدل به على الشعر الذي وصف تلك المأساة، فهو قصيدة طويلة لشاعر قدّر له أن يعيش ويشهد ما حل بقرطبة وهو في قلبها، و لم يخرج منها كما خرج صديقه ابن حزم،وهو الشاعر السائر ذكره، "أبو عامر أحمد بن شهيد "، ذاك الذي رثى مدينته الجميلة ، بحزن بالغ، حيث قال [9] :

مَا فِي الطُّلُولِ مِنَ الْأَحِبَّةِ مُخْبِرُ ... فَمَنِ الَّذِي عَنْ حَالِهَا نَسْتَخْبِرُ؟

لَا تَسْأَلَنَّ سِوَى الْفِرَاقِ فَإِنَّهُ ... يُنْبِيكَ عَنْهُمْ : أَنْجَدُوا أَمْ أَغْوَرُوا

جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمُ فَتَفَرَّقُوا ... فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَ بَادَ الْأَكْثَرُ

جَرَتِ الْخُطُوبُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... وَعَلَيْهِمُ فَتَغَيَّرَتْ وَتَغَيَّرُوا

فَدَعِ الزَّمَانَ يَصُوغُ فِي عَرَصَاتِهِمْ ... نَوْراً تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تَنَوَّرُ

لا يختلف الرثاء الأندلسي عن شقيقه الذي كان في المشرق، سواء على مستوى نظام القصيدة، أو حتى في طريقة التناول، فالشاعر هنا سار على نهج الجاهليين، حيث استهل قصيدته بمقدمة طللية يقول فيها : إن هذه الأطلال التي بقيت لن تستطيع أن تخبر عن حال الأحبة بعد فراقهم. وسبب ذلك أن الزمان جار عليهم ففرقهم في كل ناحية، ثم باد أكثرهم.

وفي البيت الأخير من هذه المقطوعة لطيفة أدبية ، مفادها أن الشاعر يريد من الزمان أن ينبت في عرصاتهم نورا، وهو ورد أبيض، هذا النور، يجعل القلوب ،كلما نظرت إليه،في بهجة وغبطة وسرور.

ثم يواصل ابن شهيد ذلك الرثاء فيقول :

فَلِمِثْلِ قُرْطُبَةٍ يَقِلُّ بُكَاءُ مَنْ ... يَبْكِي بِعَيْنٍ دَمْعُهَا مُتَفَجِّرُ

دَارٌ، أَقَالَ اللهُ عَثْرَةَ أَهْلِهَا ... فَتَبَرْبَرُوا وَ تَغَرَّبُوا وَ تَمَصَّرُوا

فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ فَرِيقٌ مِنْهُمُ ... مُتَفَطِّرٌ لِفِرَاقِهَا مُتَحَيِّرُ

---

[9] ديوان ابن شهيد الأندلسي و رسائله، جمع و شرح : محيى الدين ديب، بيروت : المكتبة العربية ، الطبعة الأولى، 1997، ص 76.

عَهْدِي بِهَا وَ الشَّمْلُ فِيهَا جَامِعٌ ... مِنْ أَهْلِهَا وَ الْعَيْشُ فِيهَا أَخْضَرُ

وَ رِيَاحُ زَهْرَتِهَا تَلُوحُ عَلَيْهِمُ ... بِرَوَائِحٍ يَفْتَرُّ مِنْهَا الْعَنْبَرُ

يزيد ابن شهيد في هذه الأبيات من تصوير تفرق أهل قرطبة بعدما كان شملهم مجموعا على حياة رغيدة خضراء، إلى أن عاثت الفتنة في بلدهم،و فرقتهم أيدي سبإ، فتبربر بعضهم، وتغرّب آخرون، و لم يجد الباقون إلا أن يتمصروا. وهي إشارة واضحة، كما قلت،إلى تشتتهم في البلدان، وتبعثرهم في كامل الأرجاء. إن الذي يرى ما آلت إليه هذه المدينة لن يفي بكاؤه بحقها شيئا.

ثم يقول مستعيدا صورة هذه المدينة قبل تلك الفتنة المبيرة:

يَا طِيبَهُمْ بِقُصُورِهَا وَ خُدُورِهَا، ... وَ بُدُورُهَا بِقُصُورِهَا تَتَخَدَّرُ

وَالْقَصْرُ قَصْرُ بَنِي أُمَيَّةَ وَافِرٌ ... مِنْ كُلِّ أَمْرٍ وَ الْخِلَافَةُ أَوفَرُ

وَالزَّاهِرِيَّةُ بِالْمَرَاكِبِ تَزْهَرُ ... وَالْعَامِرِيَّةُ بِالْكَوَاكِبِ تَعْمُرُ

وَالْجَامِعُ الأَعْلَى يغصُّ بِكُلِّ مَنْ ... يَتْلُو وَ يَسْمَعُ مَا يَشَاءُ وَ يَنْظُرُ

وَمَسَالِكُ الأَسْوَاقِ تَشْهَدُ أَنَّهَا ... لاَ يَسْتَقِلُّ بِسَالِكِيهَا المحشَرُ

يَا جَنَّةً عَصَفَتْ بِهَا وَ بِأَهْلِهَا ... رِيحُ النَّوَى فَتَدَمَّرَتْ وَ تَدَمَّرُوا

آسى عَلَيْكِ مِنَ الممَاتِ وَحُقَّ لِي ... إِذْ لَمْ نَزَلْ بِكِ فِي حَيَاتِكِ، نَفْخَرُ

إن الحديث عن قرطبة يحتم الحديث عما خلفه أمراء بني أمية فيها، وإن أعظم ما خلفه أولئك : تلك القصور التي حوتها قرطبة التي حيرت الألباب بصنعها. وقد كانت خدورا للحسناوات الأندلسيات. ومن بين تلك القصور التي حوتها قرطبة والتي يذكرها ابن شهيد في هذه القصيدة منوها بها، متحسرا عليها : قصر "الزاهرية"، وهو موجود "بالزهراء"، وكذا قصر "العامرية". وفي القصيدة أيضا ذكر للمسجد الجامع الذي فاق الجوامع – في عصره- في كل شيء ، في كبره وسعته ورونقه وجماله. وإن الزائر لهذا المسجد في عصرنا ليلحظ هذا جليا، حيث يرى المشبكات وهي ألواح من الرخام المفرغ ، تتشكل الزخرفة فيها من الأشرطة المشبكة. وقد كان

منبر جامع قرطبة نموذجا يحتذى به في صنع المنابر في المغرب على عهد المرابطين والموحدين.وتشغل الزخرفة النباتية المكان الأوسع في ذلك الجامع، ولقد تنوعت بصورة مدهشة أسلوبا وصيغا، كما أن الأصول التي استوحت منها متنوعة أيضا.[10]

ويذكر ابن شهيد الأسواق التي كانت مرتادا للقرطبيين، والتي كانت تشهد حركة دائبة ليس لها مستقر، وذلك قبل أن تعصف رياح الفتنة بقرطبة وتفرق سكانها وتفني كثيرا من أهلها. و لم يستطع الشاعر فعل شيء، سوى الحزن عليها والتأسف عليهم ثم يقول :

كَانَتْ عِرَاصُكِ لِلْمُيَمِّمِ مَكَّةً ... يَأْوِي إِلَيْهَا الْخَائِفُونَ فَيُنْصَرُوا

يَا مَتْزِلاً نَزَلَتْ بِهِ وَ بِأَهْلِهِ ... طَيُّ النَّوَى فَتَغَيَّرُوا وَتَنَكَّرُوا

جَادَ الفُرَاتُ بِسَاحَتَيْكِ وَ دِجْلَةٌ ... وَالنِّيلُ جَادَ بِهَا وَ جَادَ الكَوْثَرُ

وَ سُقِيتِ مِنْ مَاءِ الْحَيَاةِ غَمَامَةً ... تَحْيَا بِهَا مِنْكِ الرِّيَاضُ وَ تُزْهِرُ

في هذه الأبيات يوظف ابن شهيد ، على عادة كثير من الشعراء، أسماء بعض الأماكن المقدسة ، فيذكر مكة المكرمة التي كان الخائفون في القديم يلوذون بها ، ويطلبون الأمان فيها لوجود حرم الله بها، يذكرها مشبها بها قرطبة لما كان قاصدها يجده فيها من أمن وأمان. ثم يستسقي لها الأنهار المشهورة كدجلة والفرات والنيل ، بل إنه ليستسقي لها الكوثر ذلك النهر الذي في الجنة، والذي إذا شرب منه أحد شربة واحدة لن يظمأ بعدها أبدا، ثم يستسقي لها أخيرا ماء الحياة، ذلك الماء الذي كما تزعم الأسطورة –يعطي من شربه حياة أبدية، حيث يرجع الشيخ شابا، واليابس أخضر- وذلك ليحيي الرياض والبساتين والجنان، ويجعلها خضراء فيحاء مزهرة.

وبعد كل ذلك الوصف، ينتهي ابن شهيد إلى إبداء أسفه على ماضيها فيقول :

---

[10] ينظر : عمر رضا كحالة : الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، دمشق : المطبعة التعاونية ، د.ط.، 1972، ص 143؛ عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي، بيروت : دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، د.ط.، 1971، 319/1.

أَسَفِي عَلَى دَارٍ عَهِدتُ رُبُوعَهَا ... وَ ظِبَاؤُهَا بِفِنَائِهَا تَتَبَخْتَرُ

أَيَّامَ كَانَتْ عَيْنُ كُلِّ كَرَامَةٍ ... مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ إِلَيْهَا تَنْظُرُ

أَيَّامَ كَانَ الْأَمْرُ فِيهَا وَاحِداً ... لِأَمِيرِهَا وَ أَمِيرِ مَنْ يَتَأَمَّرُ

أَيَّامَ كَانَتْ كَفُّ كُلِّ سَلَامَةٍ ... تَسْمُو إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ وَ تَبْدُرُ

فهو يرجع خطوات إلى الوراء ليعدد الأيام الذهبية التي كانت قرطبة تعيشها، ويتأسف عليها أسفا شديدا. فيذكر، من جملة ما يذكر، تبختر حسناواتها بل ظبائها في أفنية ديارها، أيام كان الهناء يسودها، كما يذكر وحدة البلاد واجتماع شملها حيث كان الأمر كله يرجع إلى الخليفة الأموي، إذ كانت قرطبة عاصمة الأندلس كلها، ومنها تدار كل المناطق والمدن الأندلسية الأخرى.

ثم يختم ابن شهيد هذه القصيدة بأبيات حمّلها كل ما كان يكابد من حزن وحسرة، يقول فيها :

حُزْنِي عَلَى سَرَوَاتِهَا وَ رُوَاتِهَا ... وَثَقَاتِهَا وَحُمَاتِهَا ، يَتَكَرَّرُ

نَفْسِي عَلَى آلَائِهَا وَ صَفَائِهَا ... وَبَهَائِهَا وَسَنَائِهَا، تَتَحَسَّرُ

كَبِدِي عَلَى عُلَمَائِهَا، حُلَمَائِهَا ... أَدَبَائِهَا، ظُرَفَائِهَا، تَتَفَطَّرُ.

فهو يعدد كل من كان فيها، وكل ما كان فيها : فحزنه يتكرر فيها على الأشراف والرواة والثقاة والحماة ، ونفسه تتحسر على نعم قرطبة وصفائها وبهائها وسنائها ، وكبده تتقطع ألما على علمائها وحلمائها وأدبائها وظرفائها.

إن هذه القصيدة من أفضل ما قيل في تلك النكبة التي أصابت قرطبة.وتكمن قيمتها في صدق قائلها وجمال لغتها. وهي من حيث الجودة والصدق شبيهة بالرائية التي قالها شاعر مجهول في رثاء طليطلة،والتي سأذكرها لاحقا. لقد قدم إلينا الشاعر حقا صورة حية لما عاشه من أحداث دمرت مدينته الجميلة وأزالت حسنها، وتركت في نفسه حزنا عميقا وأسفا كبيرا.

وأعرج على شاعر آخر عرف بالهجاء أكثر من غيره، وهو أبو القاسم خلف بن

فرج السميسر الإلبيري، المتوفى سنة 480هـ، فقد وقف ذات مرة بقصر الزهـراء فقال : [11]

وَقَفْـتُ بِالزَّهْـرَاءِ مُسْتَعْـبِرًا ... مُـعْتَبِرًا أَنْـدُبُ أَشْتَاتَـا

فَقُلْتُ : يَـا زَهْرَا أَلاَ فَارْجِعِي ... قَالَتْ : وَ هَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَـا !

فَلَمْ أَزَلْ أَبْكِي وَ أَبْكِي بِـهَا ... هَيْهَاتَ يُغْنِي الدَّمْعُ هَيْهَاتَـا

كَأَنَّـمَا آثَارُ مَنْ قَـدْ مَضَى ... نَوَادِبُ يَنْدُبْـنَ أَمْوَاتَـا

وهي مقطوعة أقرب إلى النثر منها إلى الشعر.وفيها يذكر أنه وقف بقصر"الزهراء" مستثيرا دموعه لبكاء من كانوا بها، معتبرا بما أصابهم من نوائب الدهر، ثم طلب منها أن تعود كما كانت زاهرة، عامرة بأهلها، فردت عليه بأن الذي مات لن يرجع أبدا . فلم يملك سوى البكاء عليها طويلا حتى أبكى من حوله، وهو يدري يقينا أن الدمع لا يحيي ميتا. ثم يختم نصه مشبها تلك الأطلال الدارسة والآثار الباقية بنوادب ينحـن ويلطمن خدودهن بكاء على أحبة لـهن رحلوا من هذه الدنيا وصـاروا في عـداد الأموات.

لقد أصاب الزهراء خراب وتدمير من آثار القوات البربرية التي هجمت عليـها، وقتلت معظم الجند الذين كانوا فيها، واحتلتها سنة 401 هـ ، ثم زحفت علـى مناطق أخرى من قرطبة تعيث فيها فسادا وخرابا وتقتيلا، وتنشر الرعب والدمار [12] .

ومن الأشعار التي قيلت في رثاء قرطبة ما جاءعلىلسان " أبي بكر محمد بن أحمد " حفيد الحاجب " جعفر المصحفي " . وفيها يبكي "المنية المصحفية" التي بناها جده. يقول فيها [13] :

---

[11] المقري : م.س.، 527/1.

[12] ينظر : عبد المجيد نعنعي : تاريخ الدولة الأموية في الأندلس ، التاريخ السياسي ، بيروت : دار النهضة العربية ، دط، 1986 ، ص 512 ؛ محمد عبد الله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ، القاهرة : مكتبة الخانجي ،الطبعة الثالثة ، 1970، ص154 .

[13] المقري : م.س.471/1.

قِفْ قَلِيلاً بِالمصحفيَّةِ وانْـدُبْ مُقْلَةً أَصْبَحَتْ بِلَا إنسَـــانِ
وَاسْأَلَنْهَا عَـــنْ جَعْفَرٍ وسطَــاه وَنَدَاهُ مِنْ سَابِقِ الْأَزْمَــانِ
جَعْفَرٌ مِثْلُ جَعْفَرٍ حَكَمَ الدَّهـــ ـــرُ عَلَيْهِ بِعُسْرَةٍ وَهَـــوَانِ
وَلَكَـــمْ حَذَّرَ الرَّدَى فَصَمِمْنَا لَا أَمَانَ لِصَاحِبِ السُّلْطَــانِ
بَيْنَمَا يَعْتَلِي غَدَاً خَافِضاً مِنــ ـــه اكتِسَابٌ كَكَفَّةِ المِيــزَانِ

يستوقف أبو بكر محمد بن أحمد نفسه (على أسلوب التجريد أو غيره) بأطـلال منية المصحفية داعيا إياه إلى البكاء . وهو ينحو في ذلك منحى الشعراء الجاهليين والذين جاءوا بعدهم، والذين قلدوا في ذلك "امرأ القيس" وغيره.

ويشبه الشاعر تلك المنية التي هلك صاحبها بمقلة أصبحت دون إنسان ، ثم يدعو إلى السؤال عن جده جعفر المصحفي الذي بنى تلك المنية ، منوّها بنداه، مشبها إيـاه في نكبته "بجعفر المتوكل" الخليفة العباسي.

ويجنح الشاعر في نهاية الأبيات إلى الحكمة،فيذكر صممنا عن تحذير الموت الـذي نبهنا إلى تقلب الأيام بأصحاب السلطان.

وممن رثى قرطبة، أيضا، شاعر آخر لم تذكر اسمه الكتب الأندلسية، حيث قال [14]:

اِبْكِ عَلَـــى قُرْطُبَـــةِ الزَّيْـــنِ فَقَدْ دَهَتْهَـــا نَظْرَةُ العَـــيْنِ
أَنْظَرَهَـــا الدَّهْـــرُ بِأَسْلَافِـــهِ ثُمَّ تَقَاضَى جُمْلَـــةَ الدَّيْـــنِ
كَانَتْ عَلَى الْغَايَةِ مِنْ حُسْنِهَـــا وَعَيْشِهَـــا الْمُسْتَعْذَبِ اللَّيِّنِ
فَانعَكَـــسَ الأَمْـــرُ فَمَا إن تَرَى بِـــــهَا سُرُورًا بَيْنَ اثْنَـــيْنِ
فَاغْدُ وَدِّعْهَا،وَسِرْ سَالِماً إِنْ كُنْتَ أَزْمَعْتَ عَلَى البَيْنِ

فهذا الشاعر كذلك يدعونا إلى البكاء على قرطبة التي كانت جميلة، ويتمنى كل إنسان أن يقيم فيها، فأصابتها العين، فأصبح ما كانت حافلة به أثرا بين عين.

على أن الشاعر في هذه الأبيات لم يرجع سبب نكبة المدينة إلى قضاء الله وقدره،

---

[14] ابن عذاري المراكشي : م.س.، 110/3 .

أو إلى ذنوب الناس وعصيانهم ربهم وعدم طاعتهم إياه، كما فعل غيره ، وإنما رأى أن السبب في تغيير حسن قرطبة هو العين. والشاعر متأثر بما قال النبي – صلى الله عليه وسلم-؛ فقد قال : "العين حق". وله حديث آخر معناه : أنه لو كان هناك شيء يسبق القدر لكانت العين.

وفي هذه الأبيات يقارن الشاعر بين ما كانت عليه تلك المدينة، وما صارت إليه ، فهو يصف كيف كانت على غاية من الحسن والبهاء ، وكيف كان العيش فيها عذبا لينا، ثم يذكر كيف انقلبت على عقبيها كأن لم تغن بالأمس. ثم يدعونا، بعد ذلك إلى أن نودعها.

هذا بعض ما جاء في رثاء العاصمة الأندلسية قرطبة، هذه المدينة التي لم تكن كسائر المدن الأندلسية الأخرى، و لم تكن محنتها أيضا كسائر المحن. بل إن القرطبيين الإسبان ليعتزون اليوم بتاريخ مدينتهم العربي وحضارتها القديمة ، حيث نصبوا التماثيل في شوارعها مخلدين بذلك لعدد من العظماء العرب والمسلمين، كالفقيه الظاهري، " ابن حزم"، والفيلسوف العبقري"، ابن رشد"،والفيلسوف اليهودي، العربي اللغة ، "ابن ميمون"، والعاشقين العلمين، "ابن زيدون" وولادة"[15].

وحيثما التفت المرء في قرطبة يجد الآثار العربية أمامه ، تشير إلى المدينة التي كانت يوما عاصمة الخلافة الأندلسية، وعاصمة العلم و الحضارة، إلى أن قضت الفتنة على الخلافة فيها ودمرت قصورها وأشاعت فيها الخراب.

واعتقد أن الأندلسيين ارتكبوا خطأ فادحا لا يغتفر لهم أبدا، وهو أنهم تركوا شوكة الفتنة تقوى، وتركوا عودها يشتد. كان عليهم لما قامت تلك الفتنة،أن يجمعوا كلمتهم، وأن يتحدوا وراء رجل واحد، ليقضوا على تلك الفتنة، وتبقى قرطبة المركز الوحيد للقرارات السياسية، لأن العاصمة إن سقطت سقط الحكم كله، وانهارت الدولة كلها.

---

[15] ينظر : عيسى الناعوري : في ربوع الأندلس، د.ط.، د.ت.، ص 64 .

وهذا ما حدث بعد سقوط قرطبة حيث أن سقوطها آذن بقرب تقلص المدن والممالك العربية في الأندلس واحدة تلو الأخرى.

قال أحد الباحثين منوها بهذه المدينة ومشيدا بأهميتها التاريخية والسياسية :" ظلت قرطبة على الدوام مهوى أفئدة جميع أولئك الذين نهدوا إلى الزعامة و أهطعوا للانتـــزاء على إرث الخلافة، فقد كان شبح أمجادها قائما ماثلا في أرجائها، ورسوم خلافتـــها اللألاءة منطبعة في سويداء أهلها؛ وهي، بكل حساب وفي كل حسبان، المعبر الطبيعي لمن يحاول الوصول إلى ساحة الرياسة وسلم الصعود إلى قمة الزعامة" [16].

2- رثاء المدن التي سقطت في أيدي النصارى:

إذا كان هذا الضرب من الرثاء جديدا في الأندلس فإنه قديم في الشعر العربي، إذ نظمت في هذا اللون من الرثاء عدة قصائد في المشرق والمغرب . وأذكر على سبـــيل المثال ما قاله بعض الشعراء العباسيين. من ذلك ما قاله بعضهم لما قام قائد المأمـــــون "طاهر بن الحسين" بمحاصرة مدينة "بغداد" في حرب الأمين ، و رماهـــا بالمنجنيق ، حيث كثر فيها الإحراق والهدم . و مما قيل في هذا اللون ما نظمه بعض الشعراء حين هاجم الزنج مدينة " البصرة " سنة 257 هـــ، وهموا بإحراق مسجدها الجامع الذي كان معلما من معالم الحضـــــارة الإسلامية، وحولوا المنازل إلى أطلال دارسة. فقد رثاها شعراء كثيرون في مقدمتـــهم "ابن الرومي" الرثّاء المعروف الذي بكاها بكاء تتقطع له الأفئدة، وتفجع عليها، وترجى الخليفة لإنجادها. فلبى "الموفق" تلـــــــك الاستغاثة، وقضى على الزنج في سنـــــة 270هـــ.

وفي بقعة غير بعيدة عن الأندلس نجد أن أعراب "بني هلال" و"بني سليم" قد داهموا

---

[16] ينظر : عبد الرحمن الفاسي : البطشة الكبرى من أبي القاسم القاضي إلى أبي القاسم المعتمد، و بين ابن زيدون و ابن عمار، بغداد : مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد الثاني و الثلاثون، 1981، ص 405.

مدينة القيروان في سنة 449 هـ، فنازلهم صاحبها "المعز بن باديس" الصنهاجي الذي ألحقوا به هزيمة نكراء، فاضطر إلى ترك المدينة، وفر إلى "المهدية" تاركا وراءه الغزاة يعيثون في الأرض فسادا. وقد أحالوا القيروان أنقاضا وقضوا على جمال حضارتها، وفر منها كثير من العلماء والأدباء[17] ، كان منهم العالم المشهور ابن رشيق القيرواني الذي وصف تلك النكبة في قصيدة طويلة يقول في بعضها [18]:

وَالمسْلِمُونَ مُقَسَّمُونَ تَنَالُهُمْ ... أَيْدِي الْعُصَاةِ بِذِلَّةٍ وَهَوَانِ

يَسْتَصْرِخُونَ فَلَا يُغَاثُ صَرِيخُهُمْ ... حَتَّى إِذَا سَئِمُوا مِنَ الإِرْنَانِ

خَرَجُوا حُفَاةً عَائِذِينَ بِرَبِّهِمْ ... مِنْ خَوْفِهِمْ وَمَصَائِبِ الْمُلَوَانِ

هَرَبُوا بِكُلِّ وَلِيدَةٍ وَفَطِيمَةٍ ... وَبِكُلِّ أَرْمَلَةٍ وَ بِكُلِّ حَصَانِ

فَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَا وَتَشَتَّتُوا ... بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْأَوْطَانِ

فقد ذكر ابن رشيق حالة أهل القيروان وهم متفرقون، و أعداؤهم يذيقونهم الذل والهوان، وقد استنجدوا فلم يلب نداءهم أحد، فاضطروا إلى التشتت في أرجاء البلاد.

وممن عاصر "ابن رشيق" القيرواني، ابن شرف الذي رثى كذلك القيروان، واصفا ما آلت إليه. من ذلك الرثاء قوله [19]:

...أَطْفَالُهَا مَا سَمِعَتْ بِالْفَلَا ... قَطُّ فعَادَتِ الفَلَا دَارَهَا

وَلَا رَأَتْ أَبْصَارُهَا شَاطِئاً ... ثُمَّ جَلَتْ بِاللُّجِّ أَبْصَارَهَا

وَكَانَتِ الْأَسْتَارُ آفَاقَهَا ... فَعَادَتِ الآفَاقُ أَسْتَارَهَا

---

[17] ينظر : شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي:عصر الدول و الإمارات:ليبيا ،تونس، صقلية، دار المعارف بمصر ، د.ط.، د.ت.، ص 280؛ ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، تحقيق و مراجعة : ج.س كولان و إ.ليفي بروفنسال، بيروت : دار الثقافة ، د.ط، د.ت، 288/1.

[18] ابن رشيق القيرواني : ديوان ابن رشيق القيرواني، جمعه و رتبه عبد الرحمن ياغي ، بيروت : دار الثقافة، د.ط.، د.ت.، ص 208.

[19] نقلا عن : عبد الله شريط : تاريخ الثقافة و الأدب في المشرق و المغرب، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثالثة، 1983، ص 322.

وَلَمْ تَكُـنْ تَلْحَظُهَـا مُقْلَـةٌ لَوْ كَحَّلَتْ بِالشَّمْسِ أَشْفَارَهَا
فَـأَصْبَحَتْ لاَ تَتَّقِي لَحْظَـةً إِلَّا بِأَنْ تَجْمَعَ أَطْمَارَهَـا

على أن من المصائب الكبرى التي أصيب بها المسلمون عبر تاريخهـم، تلك الـتي حلت بديارهم الأندلسية، فقد أصابها خطب جلل، فبعد أن فتحوا تلك الديار وأقاموا صرح حضارتها بتشييد عمرانها، وإعلاء بنائها ، وتفجير ينابيعها، وبعد أن نشروا فيها العلوم والمعارف وأنشأوا فيها المكتبات العامرة، وبنوا فيها المساجد التي فاق بعضـها مساجد المشرق، بدأ كل أمير يقيم لنفسه مملكة، ويكيد لغيره كيدا، فهبت بينهم ريح الخلاف، فكان ذلك تمهيدا لتآمر القوى النصرانية عليهم، وبداية لتدمير ما أقاموه من آثار ومعالم، فسقطت حصونهم واحدا واحدا .فلم يجدوا غير الدموع يذرفونها عليها، فرثاها شعراؤهم مدينة مدينة، وبكوها دولة دولة. وفيما يلي عرض لأهم ما قيـل في هذا الغرض في القرن الخامس.

-رثاء بربشتر :

سبق أن تحدثت عن أول نكبة شنيعة أصابت مدائن الأندلس،وهي سقوط بربشتر. وقد بينت أن بربشتر كانت ، قبل أن يدخلها النصـارى، حصنا منيعا من حصـون الأندلس، ثم وقعت الحادثة الأليمة، فاقتحم النصارى هذا الحصن، وعبثوا به من كـل جانب. ومن أبشع ما قاموا به تلك المعاملة السيئة والدنيئة التي أصابت نسـاء ذلـك الحصن.

على أن المصادر والمراجع التي تطرقت لأخبار هذه الفاجعة، لم تورد نصوصـا شعرية تخصها، خلا ما جاء على لسان الفقيه الزاهد ابن العسال، الذي نظم قصيدة في رثاء بربشتر عند سقوطها بيد الإسبان سنة 456 هـ، يقول منها [20] :

وَلَقَدْ رَمَانَا المُشْرِكُونَ بِأَسْهُمٍ لَمْ تُخْطِ لَكِـنْ شَأْنُهَا الإِصْمَـاءُ
هَتَكُوا بِخَيْلِهِمْ قُصُورَ حَرِيمِهَـا لَمْ يَبْـقَ لاَ جَبَلٌ وَلاَ بَطْحَـاءُ

---

[20] شكيب أرسلان : م.س.، ص 541

جَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا ... فِي كُـلِّ يَوْمٍ غَـارَةٌ شَعْـوَاءُ
بَاتَتْ قُلوبُ المُسْلِمِينَ بِرُعْبِهِم ... فَحُمَـاتُنا في حرْبِـهِمْ جُبَنَـاءُ

فقد حاول ابن العسال وصف فظاعة المنظر وقساوة الحادث، فذكر أن الغـــزاة اقتحموا بربشتر وهتكوا القصور التي كانت تقي حريم المسلمين، وأمطروا السكـــان بوابل مـــن السهام التي لم تخطئ أحدا، وذلك لكثرتها، إذ أصابت كل من وجـــهت إليه. وقـــد عاشوا فسادا، وجاسوا خلال الديار مغيرين عليها، فملئت قلوب المسلمين رعـــبا و هلعا، لأن أولي الأمر منهم والقائمين عليهم، وحماة ذمارهم، لم يستطيعوا الذود عنهم، لأنهم جبناء.

ويواصل ابن العسال قصيدته بوصف ما اقترفه الغزاة من جرائم فيقول :

كَمْ مَوْضِعٍ غَنِمُوهُ لَمْ يُرْحَمْ بِـهِ ... طِفْلٌ وَ لَا شَيْـخٌ وَلَا عَـــذْرَاءُ
وَ لَكَـمْ رَضِيعٍ فرقُوا مِنْ أُمِّـهِ ... فَلَـهُ إِليهَـا ضَجَّـةٌ وَ بغَـاءُ
وَ لَرُبَّ مَولُـودٍ أَبُـوهُ مجـدَّلٌ ... فَـوْقَ التُّرَابِ وَفرشُــهُ البَيْدَاءُ
وَمَصُونَـةٍ فِي خِدْرِهَا مَحْجُوبَـةٍ ... قَـدْ أَبْرَزُوهَا مَـا لَهَا اسْتِخْفَـاءُ
وَ عَزِيزِ قَوْمٍ صَـارَ فِي أَيْدِيهِـمْ ... فَعَلَيْـهِ بَعْـدَ العِـزَّةِ اسْتِخْـذَاءُ

وفي هذه الأبيات يعدد ابن العسال الجرائم التي ارتكبها الإسبان في حق المسلمين. وقد افتتح بيتين منها بحرف "كم " الخبرية، وذلك للدلالة على كثرة الجرائم المرتكبة. فهو يقول : لقد استولى المشركون على أماكن عديدة اقتحموها عنوة وغنموها، وهم أثناء ذلك لم يكتفوا بتدنيس المكان، وإنما تعدوا إلى اضطهاد المستضعفين من الرجـــال والنساء والولدان، فمن الرجال الشيوخ الذين لا يقوون علـــى فعل شيء ، وكـــذا الأطفال الذين لم يبلغوا أشدهم، أما العذارى فهن في أصلهـــن ضعيفات. وقد بلغ من أفعال الغزاة أن فرقوا بين الرضيع وأمه، وتركوه يصيح ولا مجيب.

ثم يعرض الشاعر ذلك المشهد المحزن، مشهد مولود يولد، وأبوه مصروع مرمـــي فوق الباب، وقد صارت البيداء له فراشا. ثم ينتقل إلى مشهد آخر تعرضت لوصفه في

حديثي عن فاجعة بربشتر، وهو مشهد العذراء المصونة المحافظة على شرفها، المحجوبة عن الأنظار، وهي خارجة مرغمة للبحث عن شربة ماء تطفئ بها حر ظمئها ، وذلك بسبب الحصار الذي ضربه العدو على المكان، ثم هي تتنازل له عن بعض حليها ثمنا لتلك الشربة.

ثم يصور ابن العسال السيد العزيز في قومه وقد صار ذليلا لا يقوى على فعل شيء بعد أن غدا في أيدي الأعداء وأحكموا عليه قبضتهم.

ويختتم ابن العسال قصيدته بأبيات مبينا سبب ما آل إليه أمر المسلمين فيقول :

لَوْلَا ذُنُوبُ الْمُسْلِمِينَ وَ أَنَّهُمْ ... رَكِبُوا الْكَبَائِرَ مَا لَهُنَّ خَفَاءُ

مَا كَانَ يُنصَرُ لِلنَّصَارَى فَارِسٌ ... أَبَداً عَلَيْهِمْ ، فَالذُّنُوبُ الدَّاءُ

فَشِرَارُهُمْ لَا يَخْتَفُونَ بِشَرِّهِمْ ... وَصَلَاحُ مُنْتَحِلِي الصَّلَاحِ رِيَاءُ.

إنّ ابن العسال فقيه زاهد قبل أن يكون شاعرا.وتبدو نزعته الدينية من هذه الأبيات الثلاثة،فهو يتعرض من خلالها لقضية حساسة، حين يبين سبب ظفر الأعداء بالمسلمين،وتغلبهم عليهم. وهو في الوقت نفسه يعطي الحل الأنجع لهذه القضية فيقول: لولا اقتراف المسلمين الذنوب و الآثام و تماديهم فيها، و ركوبهم الكبائر علانية و في وضح النهار، ما كان النصر حليف النصارى أبدا، لأن الذنوب هي أصل كل داء.

و هذا المعنى في أصله مقتبس من ديننا الحنيف، وهو دلالة على ثقافة ابن العسال الدينية. يقول الله عز و جل [21]: (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُم وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ).

ونصر الله يكون بالامتثال لأوامره و اجتناب نواهيه، و الوقوف عند حدوده.

فكيف يتحقق ذلك للمسلمين وهم يجاهرون بشرهم، وبعضهم ينتحل الصلاح رياء.

وإذا كان ابن العسال قد سجل ذلك الحادث في شعره، واصفا ما وقع، ملتمسا تبريرا لذلك، فإن الدكتور " عمر الدقاق " ينتقد القصيدة، فنيا، فيرى أنها

---

[21] سورة محمد ، الآية 7.

"تعاني من وطأة النظم الذي تميز به شعر الفقهاء وعلماء الدين، و هي تعتمد على السرد ومحاولة رسم المأساة بألفاظ مكرورة، دون أن يكون ذلك مرتكزا إلى تصوير حي وأسى عميق". على أنه يكبر مبادرة صاحبها فيقول : " ومع ذلك فإن هذه اللفتة مدعاة إلى الإكبار، لأنها ضجة مبكرة أمام الخطر الداهم برغم أنها كانت كسواها صيحة في واد "[22].

وأختلف مع الدكتور الدقاق، فأرى أن ابن العسال إنما كان مراده عرض وقائع هذه الفاجعة، و نقل أحداثها نقلا مباشرا، و بالتالي تكون الأداة المناسبة هي السرد. ثم إن تكرار الألفاظ في القصيدة دلالة على تأثر الشاعر العميق بالفاجعة، وذلك إن سلمنا بوجود التكرار.

إن ابن العسال الذي يبدو تأثره بهذه الفاجعة واضحا،قد عبر بروح مشبعة بالوطنية. وقد رثى هذا الجزء من وطنه، وتجلى ذلك عندما راح يبحث عن الأسباب الحقيقية لما حل بذلك الجزء، ولولا وطنيته لاكتفى بسرده للوقائع.

ولقد كان الدكتور " إحسان عباس" مصيبا حين قال : " وربما كان من الكثير أن نتطلب من ابن العسال إظهار تفاعله مع الحادثة وتعدي المجال الخارجي في تصويرها، فقصيدته تدل على تنبهه النفسي لمعنى تلك النكبة،وهو يعرف موطن الداء حين يقول: " فحامتنا في حربهم جبناء" [23]

- رثاء طليطلة :

عندما سقطت" بربشتر" في أيدي "النورمان"، لم يتعظ المسلمون بهذه الكارثة، وإنما تمادوا في تشتتهم وفرقتهم. وبعد تلك الحادثة باثنين وعشرين عاما، تصاب الأندلس في

---

[22] ينظر : عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي، حلب : منشورات جامعة حلب ، الطبعة الثالثة، 1987، ص 292.

[23] ينظر : إحسان عباس : م.س.، ص 179.

إحدى أكبر حواضرها، طليطلة، تلك المدينة التي كانت قبل الفتح الإسلامي عاصمة لمملكة القوط.

ولقد كان لسقوط طليطلة سنة 478 هـ الأثر العظيم في نفوس المسلمين آنذاك. وكانت هذه الحادثة من حيث نتائجها أعظم خطرا وأبلغ من سقوط "بربشتر". فقد أدرك " المعتمد بن عباد" خطورة الوضع، وأن الأمر يحتاج إلى جدية، فسارع إلى الاستنجاد بالمرابطين، فهرع يوسف بن تاشفين لنجدة المعتمد. ثم كان ما كان من أمر "الزلاقة" المظفرة. كل ذلك أدى إلى تحول كبير في مصير بلاد الأندلس.

ولما سقطت طليطلة عاد ابن العسال الزاهد مرة أخرى، ولكن بنغمة أكثر تفاعلا من الأولى ، إذ أن سقوط هذه الحاضرة يعنيه بشكل مباشر ، لأنها موطنه ومسقط رأسه. وقد أُخرج منها عندما استولى عليها الروم.

قال ابن العسال عند سقوط طليطلة [24] :

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ حُثُّوا مَطِيَّكُمُ ... فَمَا الْمُقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ

الثَّوْبُ يُنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَ أَرَى ... ثَوْبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الْوَسَطِ

وَ نَحْنُ بَيْنَ عَدُوٍّ لَا يُفَارِقُنَا ... كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَّاتِ فِي سَفَطِ؟!

وفي رواية أخرى [25] :

اَلسِّلْكُ يُنْثَرُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَ أَرَى ... سِلْكَ الْجَزِيرَةِ مَنْثُوراً مِنَ الْوَسَطِ.

مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لَمْ يَأْمَنْ عَوَاقِبَهُ ... ...

وهي نغمة انهزامية نستغربها من فقيه زاهد ينتظر منه أن يدعو إلى الجهاد ويحمس على القتال إن لم يرفع اللواء و يتقدم الصفوف على نحو ما فعل كثير من فقهاء الأندلس "كأبي الربيع الكلاعي" وغيره. ولذلك يقول الدكتور " إحسان عباس" معلقا على هذه النغمة وملتمسا لها تسويغا : " ...ولكن صوته في هذه المرة

---

[24] المقري : م.س.، 352/4

[25] أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة، 1996، 173/3.

غريب أجش في الأسماع، لأنه بدلا من أن يبكي على ما حل ببلده، يحذر الأندلسيين من الإقامة في بلدهم، ويدق لهم ناقوس الخطر...

ولو كنا نحاسب ابن العسال حسب ظاهر كلامه لقلنا : إنه قد آثر موقفا انهزاميا، ودعا فيه قومه إلى الجلاء عن أوطانهم. لأن طليطلة سقطت وهي في وسط البلاد... ولكن هذا اللون السلبي من التعبير عن الحقيقة كان يومئذ مبالغة في التنبيه والتذكير" [26].

ويبدو لي أن ابن العسال – وهو فقيه- اعتمد قاعدة أصولية، وهي أن المسلمين إذا أحسوا بالخطر يداهمهم من كل جانب، وجب عليهم حفظ دمائهم ،بأن يتراجعوا ليجمعوا شتاتهم و يوحدوا صفوفهم ، ويضبطوا خطة قتالهم، فراح يناشد أولي الألباب ويستفيقهم من غفوتهم وغفلتهم. وقد يؤكد ما ذهبت إليه تعليق الدكتور قيصر مصطفى على هذه الأبيات حيث يقول [27]: " وهذه صرخة الملكوم حقا، الثائر حقا، الحاقد على المتقاعسين، المحذر لأهله في آن واحد.... وهي وإن كانت حزينة، إلا أنها في وقعها على النفس كالسياط الذي يلهب الجسد ويدمي القلب".

ومن أجود ما قيل في رثاء طليطلة، قصيدة حفظها التاريخ و نسي اسم صاحبها. وهذه القصيدة تعد من عيون الشعر العربي وغرره، و يبلغ عدد أبياتها اثنين وسبعين بيتا، أوردها المؤرخ الكبير " أبو العباس المقري التلمساني " في كتابه " نفح الطيب".

و سأحاول اقتطاف أبيات منها موضحا محتواها، لتكون دليلا آخر على بروز الاتجاه الوطني في ذلك العصر، و على الإحساس الحاد الذي كان الشاعر الأندلسي يحمله لوطنه.

---

[26] إحسان عباس : م.س.، ص 183.

[27] مصطفى قيصر : حول الأدب الأندلسي، بيروت: مؤسسة الأشرف، د.ط.، د.ت.، ص 86.

لقد صب الشاعر في قصيدته كل أحاسيسه، وحملها كل مشاعره، فجاءت طافحة بعواطف كثيرة منها الحسرة، والحزن، والسخط. يقول في مطلعها [28]:

لِتُكْلِكِ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُورُ سُرُوراً بَعْدَمَا سُبِيَتْ ثُغُورُ.

لقد ضمن الشاعر هذا الاستهلال البارع محسنا بديعيا لطيفا ، هو الجناس التام. ولكن ذلك التصنع لم يحل دون التعبير عن حزنه :فهو يستبعد أن تبتسم الشفاه سرورا بعد ما فقدت تلك القلعة الحصينة من قلاع الإسلام بالأندلس .

ثم يقول :

أَمَا وَ أَبِي مُصَابٌ هُدَّ مِنْهُ ثَبِيرُ الدِّينِ فَاتَّصَلَ الثُّبُورُ

لَقَدْ قُصِمَتْ ظُهُورٌ حِينَ قَالُوا: أَمِيرُ الْكَافِرِينَ لَهُ ظُهُورُ

يُرَى فِي الدَّهْرِ مَسْرُورا بَعَيْشٍ مَضَى عَنَّا لِطِيَّتِهِ السُّرُورُ

أَلَيْسَ بِهَا أَبِيُّ النَّفْسِ شَهْمٌ يُدِيرُ عَلَى الدَّوَائِرِ إِذْ تَدُورُ؟

لَقَدْ خَضَعَتْ رِقَابٌ كُنَّ غُلْباً وَزَالَ عُتُوُّهَا وَمَضَى النُّفُورُ

وَهَانَ عَلَى عَزِيزِ الْقَوْمِ ذُلٌّ وَسَامَحَ فِي الْحَرِيمِ فَتًى غَيُورُ

وفي ذلك يصف ما حل بأهل هذه المدينة بعد سقوطها، فلقد علا الكفر الإيمان، وأصبح عزيز القوم ذليلا، ولم يعد فيها من كان يدافع عن شرفه ويحمي حرماته، فهو ديوث مقهور، والذين كان النصر حليفهم قد صار عليهم، إذ خضعت رقابهم لأعدائهم، لأن الدائرة دارت عليهم. كل هذا وليس في المسلمين شهم شجاع يجمع الصفوف، ويتقدم ليرد عنهم السوء، ويخلص شرف الإسلام من براثن الكفر.

ثم يذكر الشاعر بعد ذلك ما حل بطليطلة، مقارنا بين ما كانت عليه وما صارت إليه فيقول :

طُلَيْطِلَةٌ أَبَاحَ الْكُفْرُ مِنْهَا حِمَاهَا ، إِنَّ ذَا نَبَأٌ كَبِيرُ

فَلَيْسَ مِثَالَهَا إِيوَانُ كِسْرَى وَلَا مِنْهَا الْخَوَرْنَقُ وَ السَّدِيرُ [29]

---

[28] القصيدة كاملة في "نفح الطيب"، 483/4 و ما بعدها.

[29] الخورنق والسدير: من القصور العربية المشهورة.

مُحَصَّنَـةٌ مُحَسَّنَـةٌ بَعِيـدٌ تَناوُلُها وَ مَطْلَبُهَـا عَسِـيرُ
أَلَمْ تَكُ مَعْقِـلاً للدِّينِ صَعْباً فَذَلَّلَهُ ، كَمَا شَاءَ القَدِيـرُ
وَ أَخْرَجَ أَهْلَهَا مِنْهَا جَمِيعـاً فَصَارُوا حَيْثُ شَاءَ بِهِمْ مَصِيرُ
وَ كَانَتْ دَارَ إِيمَانٍ وَ عِلْـمٍ مَعَالِمُهَا التي طَمِسَـتْ تُنِيرُ
فَعَادَتْ دَارَ كُفْرٍ مُصْطَفَـاة قَدِ اضْطَرَبَتْ بِأَهْلِيهَـا الأُمُورُ
مَسَاجِدُها كَنَائِسُ،أَيُّ قَلْبٍ عَلَـى هَذَا يَقِرُّ وَلاَ يَطِـيرُ؟

فقد شرع يتحدث عما أصاب المدينة، و بيّن كيف كانت وكيف أصبحت. وقد استعمل الشاعر في البيت الأول من هذه المقطوعة لفظ "نبأ" بدلا من كلمة "خـبر"، لأن " النبأ " أجلّ في المعنى من " الخبر"، و ذلك لأنه لما أحل الكفر حمى طليـطلة وأباحها، كان هذا الفعل الشنيع نبأ كبيرا قرع نفس الشاعر والأندلسيين قرعا شديدا.

فبعد أن كانت هذه المدينة دار إيمان وعلم يحج إليها الناس من كل فج عميق، طمست تلك الأنوار، وامّحت تلك المعالم و غدت دار كفر، فحولت المساجد إلى كنائـس، وحلت ضجات النواقيس محل تلك الأصوات الربانية التي كان مسكها يعبق من الآذان خمس مرات في اليوم. إنها لمأساة اجتماعية و إنسانية و عقائدية أيضا، وإن قلبا فيـه إيمان ليذوب كمدا وحسرة على هذه المدينة !.

وتبدو في النص ثقافة الشاعر التاريخية، فهو يذكر "إيوان كسرى" وبعض قصـور العرب " كالخورنق" و" السدير" ، مفضلا طليطلة عليها.

ثم يقول الشاعر متحسّراً ملتمسا تبريرا لما حل بهذه المدينة :

فيَـا أسَفَاهُ يَا أسَفَـاهُ حُـزْناً يُكَرَّرُ مَا تَكَرَّرتِ الدُّهُـورُ
...فإنْ قُلْنَا : العُقُوبَةُ أدْرَكَتْهُـمْ وَجَاءَهُمْ مِنَ اللهِ النَّكِـيرُ
فإنَّا مِثْلُهُمْ وَأَشَـدّ مِنْهُـمْ نَجُورُ، وَكَيْفَ يَسْلَمُ مَنْ يَجُورُ؟
أَنَأْمَنُ أَنْ يَحِلَّ بِنَا انْتِقَـامٌ وَفِينَا الفِسْقُ أَجْمَعُ وَ الفُجُـورُ

وَأَكْـــلٌ لِلحَرَامِ وَ لا اضْطِــرَارُ ... إِليْهِ فَيَسْهُــلُ الأَمْــرُ العَسِيرُ
وَلَكِـــنْ جُــرْأَةٌ فِي عُقْــرِ دَارٍ ... كَذَلِكَ يَفْعَلُ الكَلْــبُ العَقُورُ
يَزُولُ السِّــتْــرُ عَنْ قَوْمٍ إِذَا مَـــا ... عَلَى العِصْيَانِ أُرْخِيَتِ السُّتُــورُ

وحين لم يملك الشاعر أن يفعل شيئا إزاء هذه النكبة الكبرى سوى الركون إلى الأسف، راح يشخص الداء، ويبين الدواء. فهو يرى أن الكارثة التي حلت بالمسلمين مردها إلى ابتعادهم عن شرع الله وعصيانهم إياه، حيث ارتكبوا الفسوق والفجـور، وأكلـــوا الحرام . والنتيجة الحتمية هي أن الناس عندما أرخوا ستورهـــم عـــلى العصيان، هُتكـت عليهم الستور. ولعلّه بهذا كان يقدم منهجا وقائيا لغيرهم مـــن سكان المدن الأندلسية الأخرى.

وبعد ذلك يتذكر الشاعر الأيام السعيدة التي مرت بالمدينة فيقول :

.... وَظِلٌّ وَارِفٌ وَ خَرِيرُ مَــاءٍ ... فَلاَ قُــرٌّ هُنَاكَ وَلَا حَــــرُورُ
وَيُؤْكَلُ مِــنْ فَوَاكِهِهَـــا طَــرِيٌّ ... وَيُشْرَبُ مِــنْ جَدَاوِلِهَـــا نَمِيرُ
يُؤَدَّى مَغْــــرَمٌ فِي كُــلِّ شَهْــرٍ ... وَيُؤْخَذُ كُلَّ صَائِفَــةٍ عُشُــورُ

هكذا كانت المدينة قبل النكبة : ظلّ ممدود،وماء مكسوب، وفاكهة كــثيرة،لا مقطوعة ولا ممنوعة، وهواء منعش،حيث لا برد تصطك منه الأسنان، ولا حر يذيب الأبدان...

ثم يقول مصورا ما آل إليه أمر الإسلام في هذه المدينة :

.... لَقَدْ ذَهَبَ اليَقِينُ فَلاَ يَقِينٌ ... وَغَرَّ القَـــوْمَ باللهِ الغَرُورُ
فَلاَ دِينٌ وَلَا دُنْيَا وَلَكِـــــنْ ... غُرُورٌ بِالمعِيشَــــةِ مَا غُرُورُ
رَضُـــوا بِالـــرِّقِّ يَا لِلهِ مَـــاذَا ... رَآهُ وَمَـــا أَشَارَ بِـــهِ مُشِيرُ
مَضَى الإِسْلَامُ فَابْكِ دَمْعا عَلَيْهِ ... فَمَا يَنْفِي الجَوَى الدَّمْعُ الغَزِيرُ
وَنُـــحْ وَانْدُبْ رِفَاقـــًا فِي فَلَاةٍ ... حَيَـــارَى لَا تَحُطُّ وَلَا تَسِـــيرُ

فقد ذهب اليقين، وهو كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الإيمـــان كله"، فلا دين يقام صرحه، ولا دنيا منعمة، ثم هناك استرقاق للأحرار أصبحوا بـه راضـين. و لم يجد الشاعر من وسيلة للتخفيف من حدة الحزن، سوى الدعوة إلى البكاء بدموع من دم على إسلام ولى وأدبر. وللأسف " كان كمن ينفخ في قربة مثقوبة "[30].

على أن الشاعر لم ييأس و لم يثبط ما وقع من عزيمته، فهو يقول :

ولاَ تَجْنَحْ إِلَى سِلْمٍ وَ حَـارِبْ ... عَسَى أَنْ يُجْبَرَ الْعَظْـمُ الكَسِيرْ
أَنَعْمَى من مراشِدِنَـا جَمِيعـاً ... وَمَـا إِنْ مِنْهُـمُ إِلاَّ بَصِـيرْ
وَنَلْقَى وَاحِداً وَ يَفِرُّ جَـمْعٌ ... كَمَا عَنْ قَانِصٍ فَرَّتْ حَمِـيرْ
وَلَـوْ أَنَّا ثَبَتْنَا كَـانَ خَيراً ... وَلَكِنْ مَالَنَا كَـرَمٌ وَخِـيرْ

فهو يحث المسلمين الأندلسيين على محاربة أعدائهم، وينصحهم بعـدم الاستسلام والخنوع، ويلوم على ما وقع من تخاذل وانهزام.

ثم يقول مطالبا بالصبر و الثبات، و يرجو أن يتاح لهم رجل ذو رأي وشجاعة، يخلصهم مما حل بهم :

إِذَا لَمْ يَكُنْ صَبْرٌ جَمِيـلٌ ... فَلَيْسَ بِنَافِـعٍ عَدَدٌ كَثِـيرْ
أَلاَ رَجُلٌ لَهُ رَأْيٌ أَصِيـلٌ ... بِـهِ مِـمَّا نُحَاذِرُ نَسْتَـجِيرْ
يَكرُّ إِذَا السُّيُوفُ تَنَاوَلَتْـهُ ... وَأَيْنَ بِنَا إِذَا وَلَّتْ كُـرُورْ؟
وَطَـعْنٌ بِالْقَنَـا الخَطَّـارِ حَتَّى ... يَقُولَ الرُّمْحُ:مَا هَـذَا الخَطِيرْ؟
عَظِيمٌ أَنْ يَكُونَ النَّـاسُ طُرّاً ... بِأَنْدَلُسٍ قَتِـيلٌ أَوْ أَسِـيرْ
أُذَكِّرُ بالقِرَاعِ اللَّيْثَ حِرْصـاً ... عَلَى أَنْ يقرع البِيضَ الذّكورْ
يُبَادِرُ خَـرْقَها قَبْلَ اتِّسَـاعٍ ... لِخَطْبٍ منهُ تَنْخَسِفُ البُـدُورْ

ثم يكمل الشاعر الصورة بوصف ما آلت إليه حياتهم، فقد انقلبت تلك الحـياة من

---

[30] مصطفى قيصر : م.س.، ص 86 .

نعيم إلى بؤس وشقاء، ومن سعة إلى ضيق وحرج.يقول :

يُوَسِّعُ لِلَّذِي يَلْقَاهُ صَدْراً ... فَقَدْ ضَاقَتْ بِمَا تَلْقَى صُدُورُ

تَنَغَّصتِ الْحَيَاةُ فَلَا حَيَاةٌ ... وَوَدَّعَ جِيرةٌ إِذْ لَا مُجِيرُ

فَلَيْلٌ فِيهِ هَمٌّ مُسْتَكِنٌّ ... وَيَوْمٌ فِيهِ شَرٌّ مُسْتَطِيرُ

وَنَرْجُو أَنْ يُتِيحَ اللهُ نَصْرًا ... عَلَيْهِم،إِنَّهُ نِعْمَ النَّصِيرُ

فقد صار الليل الذي يُخلَد فيه إلى الراحة و الطمأنينة همّا و حزنا، وغدا النهار، الذي ينشط فيه الناس،فرحين بما حقّقوا ، شرّاً مستطيرا. و لم يملك الشاعر سوى أن يختتم هذه القصيدة العظيمة برجاء من الله تعالى،أن ينصرهم على قوى الكفر.

ومن خلال استعراضنا لهذه المرثية ، نجد أنها حافلة بالروح الوطنية ، تلك الروح التي جعلت الشاعر يبكي ما آلت إليه مدينة طليطلة.إن هذه المرثية نابعة من أعماق قلبه، ولعل من أسباب تأثيرها في النفوس ما طبعها من عفوية وما امتازت به من تنوع في الأسلوب.قال الدكتور إحسان عباس واصفا تلك السمات : " في جملتها سهلة سائغة بارئة من التكلف و الاقتعال، وتعتمد البساطة و المراوحة بين الإثارة والتفجع والسرد القصصي ...."[31]

- *رثاء بلنسية :*

قبل الحديث عن رثاء بلنسية، أذكر أن هذه المدينة العملاقة والجميلة في الوقت نفسه، تعرضت لهزتين عنيفتين، أولاها عندما سقطت في أيدي النصارى سنة 488 هـ، وظلت محتلة حتى سنة 495 هـ، حين حررتها جيوش أمير المسلمين "يوسف بن تاشفين"، والأخرى كانت في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، وبالضبط سنة 636 هـ.

لقد رثى الشعراء الأندلسيون بلنسية مرتين كما لو أنها كانت إنسانا شهما مات مرتين. وقد أكثر الشعراء من رثاء هذه المدينة في نكبتها الثانية. لذلك يقول الحميري:

---

[31] إحسان عباس : م.س.، ص 186.

" وقد أكثر أدباؤها بكاءها والتأسف عليها نظما ونثرا" [32]. ويرجع السبب في ذلك إلى وجود عدد كبير من الشعراء والكتاب المعاصرين لمحنة بلنسية، سواء أكانوا من المدينة ذاتها أم من أبناء شرق الأندلس، كابن الأبّار، وأبي المطرف بن عميرة، وأبي عبد الله بن الجنان وغيرهم، فقد أجادوا في رثاء المدينة، وأحدث سقوطها أثرا عميقا في نفوسهم.

لكن الذي يهمنا من هذا الرثاء هو ما كان في النكبة الأولى. قال الدكتور "فوزي سعد" : " نلاحظ أن هذه الظاهرة —وهي الإكثار من رثاء بلنسية- لم تبرز في هذا العصر فحسب، وإنما برزت قبل ذلك أيضا"[33].وهي إشارة إلى المحنة الأولى حين سقطت بلنسية في يد السيد القنبيطور.على أنني لم أجد في المصادر الأندلسية ما يؤكد كلام الدكتور "فوزي سعد"، إذ لم أعثر إلا على أربعة أبيات قالها ابن خفاجة عند سقوط المدينة، نُقلتها عدة كتب،"كالذخيرة"، و" نفح الطيب"، و" ديوان ابن خفاجة"،وغيرها من المصادر الأندلسية. ولعل هذه الأبيات كانت ضمن قصيدة ضاعت ولم يبق منها سوى هذه الأبيات الأربعة.

كذلك فإن أغلب ما كُتب في محنة بلنسية الأولى قد ضاع واندثر . وحتى المناطق والمدن المحيطة ببلنسية، لم أعثر على مراثي قيلت في سقوطها. وإذن فكثرة رثاء بلنسية إنما كانت في المحنة الثانية ، وقد قيل فيها قصائد من غرر الرثاء العربي .

وأعود إلى نص "ابن خفاجة" فأقول: إن هذا الشاعر عانى وطأة الأحداث التي اجتاحت بلنسية، وحز في نفسه ما أصابها من بطش الإسبان بقيادة الملعون " السيد القنبيطور" الذي رويت عنه الأساطير، وخلد له مناصروه أخبار بطولات شبيهة ببطولات "عنترة بن شداد " في الجاهلية، فرثى ابن خفاجة المدينة حيث قال[34] :

---

[32] نقلا عن فوزي سعد : في الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، د.ط.، 1999، ص 38.

[33] م.ن.

[34] ابن بسام : م.س.، 100/1/3.

عَاثَتْ بِسَاحَتِكِ العِدَا يَـــا دَارُ   وَمَحَا مَحَاسِنَكِ الْبِـلَى وَالنَّـــارُ
فَإِذَا تَرَدَّدَ فِي جَنَابِـكِ نَاظِـــرٌ   طَالَ اعْتِبَارٌ فِـيكِ وَاسْتِعْبَــارُ
أَرْضٌ تَقَاذَفَتِ الخُطُوبُ بِأَهْلِـهَا   وَتَمَخَّضَتْ بِخَـرَابِهَا الْأَقْــدَارُ
كَتَبَتْ يَدُ الحَدَثَانِ فِي عَرَصَاتِهَـا :   لَا أَنْتِ أَنْتِ،وَ لَا الدِّيَارُ دِيَـــارُ

استهل ابن خفاجة أبياته بكلمة "عاث". و هي في معظم استخداماتها تدل علـى الفساد والخراب[35]. وهو،في هذه الأبيات،يرثي المدينة بعد أن عاث فيها النصارى فسادا، محا محاسنها وطمس معالمها ومآثرها، وهو يخبرنا أيضا،أنَّ الناظر إلى ما آلت إليه،ليقف إزاء ذلك معتبرا مستخلصا الدروس من حالتها التي لا تُحسَد عليها، بل إن الناظر إليها لتجري عبراته من هول ما يرى.

ومن اللافت للانتباه أن ابن خفاجة في هذه الأبيات لم يرجع سبب هذه المصيـبة، كسابقيه من الشعراء، إلى ذنوب الناس وارتكابهم المعاصي ومخالفتهم شرع الله،و إنما اكتفى بذكر أن المشكلة لا تعدو أن تكون قدرا من أقدار الله سُلط على المديـــنة. ويختتم ابن خفاجة المقطوعة بقوله " لا أنت أنت ولا الديار ديار". وأعتقد أن هــذا الشطر من قصيدة أخرى لغيره ، ومعناه أن المدينة قد محيت عــن آخــرها وتغـيرت بكاملها، حتى صارت ديارها ليست هي ديارها الأصلية.

إنها أبيات مبكية محزنة، وإن ابن خفاجة الرقيق الإحساس،المرهف الشعور،الوصاف لجمال الطبيعة الأندلسية، لم يطق أن يرى جنته بلنسية يصيبها الخراب، وينالها الدمار، وتنقلب منازلها إلى أطلال، فكانت هذه النفثة الحارة التي تعطي عبرة وتسيل عبرة.

---

[35] كما في قوله تعالى : (وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (هود : 85) .يقول الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره :" فإن قيل : العثو : الفساد التام، فقوله (و لا تعثوا في الأرض مفسدين) جار مجرى أن يقال : و لا تفسدوا في الأرض، مفسدين... معناه و لا تسعوا في إفساد مصالح الغير.."(التفسير الكبير، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، د.ت.، 42/18.)

ولعل السبب الحقيقي الذي أدى إلى سقوط هذه المدينة والذي لم يشر إليه ابن خفاجة[36] في ظاهر أبياته السالفة، هو أن بلنسية منطقة هيأت لأهلها حياة الدعة والرفاهية، بفضل ما كانت تتميز به، فانعكس على أهلها لينا وترفا وانغماسا في اللهو والملذات، فأصبحوا في غفلتهم يعمهون، جاهلين بشؤون الحرب، مقبلين على الأكل والشرب، وحالهم كما قال الشاعر :

إِنَّمَا الدُّنْيَا طَعَامْ وَشَرَابٌ وَمَنَامْ

ومن المؤسف أنهم لم يأخذوا العبرة مما وقع لجيرانهم أهل مدينة " بطرنة"، وهي غير بعيدة عن بلنسية، تلك المدينة التي سقطت في أيدي النصارى قبل سقوط بلنسية بنحو ثلاثين سنة. فلو أنهم كانوا عقلاء،و أخذوا العبرة ممن حولهم،لعاشوا حياة الاستعداد والأهبة، ولأعدوا لأعدائهم القوة و رباط الخيل حتى يرهبوهم. ولكنهم لم يبرحوا حياة الزينة، إذ كانوا يقيمون الاحتفالات مجتمعين خارج مدينتهم في ثياب من سندس واستبرق، ومعهم أميرهم "عبد العزيز بن أبي عامر"، حتى استدرجهم الإسبان وأعملوا فيهم من القتل والأسر ما يندى له الجبين[37].

وقد صور هذه الحادثة المؤسفة أحد الشعراء مشيرا إلى احتلال "بطرنة" وسقوطها، قائلا[38]:

لَبِسُوا الْحَدِيدَ إِلَى الْوَغَى وَ لَبِسْتُمُ حُلَلَ الْحَرِيرِ عَلَيْكُمُ أَلْوَانَا
مَا كَانَ أَقْبَحَهُمْ وَأَحْسَنَكُمْ بِهَا لَوْ لَمْ يَكُنْ بِبطرْنَةٍ مَا كَانَا

والأبيات واضحة الدلالة، وبينة الإشارة إلى ما كان عليه أهل بلنسية،من عدم أخذ الحيطة من أعدائهم.

---

[36] يحتمل أن يكون في البقية التي ضاعت من القصيدة .

[37] ينظر : مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي، موضوعاته و فنونه، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة، 1997، ص 521.

[38] المقري : م.س.، 448/4.

وفي الأخير أذكر أن هذا الشعر الذي قيل في رثاء المدن الأندلسية، قيل متابعا للأحداث ملاحقا للمصائب، مرافقا للكوارث؛ ومن ثم تعد نصوص هذا الشعر الحزين وثائق تاريخية، إذ كان يسجل كل حادثة في زمانها، ويبكي كل كارثة في وقتها، فقد بكى "ابن العسال" بربشتر لما سقطت، ثم رثى طليطلة عندما فقدت. وهكذا توالى السقوط وتوالت النصوص الشعرية الباكية، وذلك إلى أن سقطت الأندلس كلها. قال الدكتور شوقي ضيف [39]: " ولعل قطرا إسلاميا لم تبك بلدانه ومدنه كما بكيت مدن الأندلس وبلدانها، فقد أخذ الإسبان الشماليون يستخلصونها لأنفسهم، وأخذت تتساقط منذ عصر الطوائف في حجورهم، كما تتساقط أوراق الخريف. وكانت كل مدينة تسقط لا تعود أبدا، والمسلمون يرون ذلك رأي العين، يرون ما يهدد ديارهم من غزو ودمار، وكلمتهم متفرقة و أهواؤهم غير مجتمعة، ينابذ الأخ أخاه، وتنابذ المدينة أختها، والعدو على الأبواب يتربص بهم الدوائر" .

3- رثاء دول الطوائف :

كان لكل دولة شعراء يساعدون في بناء صرحها والذود عن حوضها، حتى إذا ما هوى سقفها، قام شعراؤها يبكون مجدها الآثل، ويندبون أيامها التي ولت. ولنا عدة أمثلة من شعر المشرق ، منها ما قاله الشعراء في رثاء الدولة الأموية و الدولة الفاطمية.

أما في بلاد الأندلس، فكاد الشعر أن يكون نسخة طبق الأصل من شعر المشرق، فقد ظل الشعراء الأندلسيون أوفياء لإخوانهم المشارقة، يقتفون آثارهم وينسجون على منوالهم، بل إن الأندلسيين أطلقوا على نوابغ شعرائهم ألقاب شعراء المشرق، فكان "ابن غالب الأندلسي" يكنى بأبي تمام، و"ابن زيدون" بالبحتري ،و"ابن هانئ" بالمتنبي [40] ...

---

[39] الرثاء : سلسلة "فنون الأدب العربي"، القاهرة: دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية، 1955، ص 49.

[40] ينظر : ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده،تحقيق محمد قرقزان. بيروت : دار المعرفة، الطبعة الأولى، 1988، 508/2.

غير أن الشعراء الأندلسيين، وإن قلدوا المشارقة ، قد فاقوهم في بعض أغـــراض الشعر. ومن تلك الأغراض الرثاء. فقد تميزوا في أحد أنواعه، و هو رثاء الممـــالك الزائلة، وذلك نتيجة للوضع الذي كان الأندلسيون يعيشونه ، حيث كانت ديـارهم وبلدانهم تسقط الواحدة تلو الأخرى في أيدي الغزاة المكتسحين.

والمدن التي بكاها الشعراء الأندلسيون، وهي تتهاوى في ربوع البلاد، كانت تنتمي إلى ممالك معينة، غير أن أكثر هذه الممالك لم تغزها الجيوش المسيحية، وإنما كـــان سقوطها تحت وطأة الجيوش المرابطية التي جاءت من المغرب، يقودها يوسـف بـن تاشفين.

وقد كان رثاء دول ملوك الطوائف من أبرز الألوان التي عـرفها شعـر الرثـاء فـي الأندلس. وهو يعكس ما انطبعت عليه نفوسهم من محبة خاصة لأوطانهم ;

وإذا كان كثير من الشعراء قد قالوا في هذا النوع، فإن أشهر ما قيل فيه مرثيتان تعتبران من فرائد عصرهما؛ أولاهما دالية "ابن اللبانة في رثاء دولة "بني عباد" ملـوك إشبيلية،والأخرى رائية "ابن عبدون" التي رثى فيها دولة " بني الأفطس"، ملـوك بطليوس.

أ- *رثاء دولة بني عبّاد* :

كانت دولة بني عباد -كما أسلفنا — من أقوى دول الطوائف، وقد اشتد عـودها في عهد "عباد بن محمد بن عباد" المعروف بالمعتضد، الذي كان سياسيا محنكا ، وعلى دراية كافية بشأن تسيير الدولة، كما كان محاربا مقتدرا. ثم أكمل المسيرة بعده ابنـه الملك " محمد" ، المكني "بأبي القاسم" و الملقب" بالمعتمد على الله". وقد برع المعتمد في قول الشعر و سبكه، وكان هو أيضا مثل أبيه في الحنكة والفروسية، فامتد ملكـه وسلطانه من إشبيلية إلـى ربوع قرطبة، وانبسط على جزء كبير من الأندلس.

وقد أبلى هذا البطل المغوار البلاء الحسن في موقعه "الزلاقة" المشهورة. وكان حامل

لواء النصر فيها، وقد اجتمع على بساطه مجموعة من الشعراء يعدون من أعـــــلام الأندلسيين في قول الشعر منهم : ابن زيدون، وابن حمديس، وابن عبد الصمد، وابن اللبانة، وابن عمار.

لكن لما آل أمر الأندلس إلى دول وإمارات متفرقة، لا تستطيع دفع الخطـــر عـــن نفسها، قرر يوسف بن تاشفين الاستحواذ على بلاد الأندلس، فعزل ملوكها واحـــدا واحدا، مما أدى إلى زوال السيادة الأندلسية. ولكن من بين النكبات التي هـــــزت الأندلس هزا عنيفا، ما أصاب المملـــكة العبادية، ولحق ملكها المعتمد من نفـــــي وسجن وإذلال.

وإذا كان الدكتور " إحسان عباس " يعتبر النكبة التي حلت بالمعتمد نكـــبة فردية [41] فإن الدكتور " محمود حسن أبو ناجي " يفهم من كلامه أن هذه الكـــارثة كانت عامة[42].

وأعتقد أن الرأي الثاني أقرب إلى الصواب، لأن الملك في أية مملكة يمثل عمودها الفقري، وشريانها الذي لا سبيل للحياة إلا به، فهو الذي يدبر شؤون المملكة، وهـــو الآمر الناهي، بل إنه يمثل ركنا ركينا فيها. ولا يمكن أن نتصور مملكة بدون ملـــك. لذلك نجد، في الحروب، أن بعض الجيش مكلف بحماية قائده، فإذا حدث أن أصيب القائد أو قتل، وجب تعيين خلف له.

وإذا كانت الأندلس قد أصيبت بنكبات أخرى كان لها أثرها في الأدب الأندلسي، فإن نكبة المعتمد قد أفاضت وحدها الكثير من الأشعار المليئة بالأسى والحســـــرة والحزن، وفاء من الشعراء لملكهم. " وربّما نجد في الشعر الأندلسي عاطفة أعمق غورا و أشد لهبا عاطفيا من تلك القصائد التي قالها ابن اللبانة و ابن حمديس وابن عـــــبد

---

[41] ينظر : إحسان عباس : م.س.، ص 188.

[42] ينظر : محمود حسن أبو ناجي : الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب، بيروت: منشورات مكتبة الحياة، الطبعة الثانية، 1402 هـــ، ص 277.

الصمد في نكبة المعتمد"[43]، لأن المعتمد كان يمثل آنذاك رمز السيادة الوطنية في الأندلس، ولذلك استحق كل هذا الرثاء. وكانت وفاته بالنسبة إلى الأندلسيين الضربة القاضية لهم.

ثم إن الأحداث التي سبقت وفاة المعتمد،تعد في حد ذاتها مأساة حقيقية. وكان الملك أثناءها قد نسج لونا آخر من الرثاء خص به نفسه، ووصف فيه المأساة التي تعرض لها بأغمات. يقول في ذلك واصفا أثر مصيبته في الناس.[44]

أَنْبَاءُ أَسْرِكَ قَدْ أَطْبَقْنَ آفَاقَا بَلْ قَدْ عَمَمْنَ جِهَاتِ الْأَرْضِ إِقْلَاقَا
سَمَرَتْ مِنَ الْغَرْبِ لَا تُطْوَى لَهَا قَدَمٌ حَتَّى أَتَتْ شَرْقَهَا تَنْعَاكَ إِشْرَاقَا
فَأَحْرَقَ الْفَجْعُ أَكْبَاداً وَ أَفْئِدَةً وَأَغْرَقَ الدَّمْعُ آمَاقاً وَ أَحْدَاقَا
قَدْ ضَاقَ صَدْرُ الْمَعَالِي إِذْ نُعِيتَ لَهَا وَقِيلَ إِنَّ عَلَيْكَ الْقَيْدَ قَدْ ضَاقَا

وإذا أزلنا ما كان يجنح إليه من المبالغة، بحكم ما كان يشعر به من مفارقة بين ماضيه وحاضره، فإن المقطوعة تدل على حجم المأساة التي كان يعيشها ، وتشير إلى نوع المعاملة التي عامله بها ابن تاشفين.

ولقد أذكت تلك المحنة شاعريته و أوقدتها. وكان نظم الشعر في سجنه أنيسه وغذاءه الروحي، فصدرت عنه في معتقله غرر من المؤسيات، كلها تصب في قالب التلهف على مجده الآثل، والبكاء على ماضيه الآفل، ووصف المحنة التي عصفت به.

ومن ذلك الشعر قوله عندما رأى سربا من القطا يمر بالقرب من سجنه[45] :

بَكَيْتُ إِلَى سِرْبِ الْقَطَا إِذْ مَرَرْنَ بِي سَوَارِحَ لَا سِجْنٌ يَعُوقُ وَ لَا كَبْلُ
وَ لَمْ يَكُ – وَ اللهِ المعِيذ- حَسَادَةً وَلَكِنْ حَنِيناً، إِنَّ شَكْلِي لَهَا شَكْلُ
فَأَسْرَحَ لَا شَمْلِي صَرِيعٌ وَ لَا الْحَشَا وَجِيعٌ وَلَا عَيْنَايَ يُبْكِيهِمَا ثُكْلُ

---

[43] إحسان عباس : م.س.، ص 188.

[44] المقري : م.س.، 219/4.

[45] غرسية غومس: الشعر الأندلسي ، بحث في تطوره و خصائصه، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية،د.ط.، د.ت.، ص 108.

فلقد كان المعتمد يحس إحساسا كبيرا بما صار إليه،وأصبح كل شيء طليق - كسرب القطا الذي يذكره- يثير فيه الحزن، ويذكره بماضيه حين كان حرا طليقا.

ولما أحس المعتمد باقتراب أجله في الأسر، رثى نفسه. و هو لم يصنع هذا الرثاء مثل أولئك الذين يئسوا من حياتهم لمرض عضال أو أمل ضائع، مثلما فعل " ابن شهيد" وغيره، أو لفقر مدقع أو غير ذلك، و إنما كان يرثي ملكه و يبكي دولته. وقد أمر أن يكتب ذلك الشعر الحزين على قبره. قال في ذلك الرثاء[46].

قَبْرَ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الغَادِي ... حَقّاً ظَفِرْتَ بِأَشْلَاءِ ابْنِ عَبَّادِ
بِالحِلْمِ وَ الْعِلْمِ وَالنُّعْمَى إِذَا اتَّصَلَتْ ... بِالخِصْبِ إِنْ أَجْدَبُوا بِالرِّيِّ لِلصَّادِي
بِالدَّهْرِ فِي نِقَمٍ،بِالبَحْرِ فِي نِعَمٍ، ... بِالبَدْرِ فِي ظُلَمٍ، بِالصَّدْرِ فِي النَّادِي
نَعَمْ، هُوَ الْحَقُّ وَافَانِي بِهِ قَدَرٌ ... مِنَ السَّمَاءِ فَوَافَانِي لِمِيعَادِي
وَ لَمْ أَكُنْ قَبْلَ ذَاكَ النَّعْشِ أَعْلَمُهُ ... انَّ الْجِبَالَ تَهَادَى فَوْقَ أَعْوَادِ
كَفَاكَ فَارْفِقْ بِمَا اسْتُودِعْتَ مِنْ كَرَمٍ ... رَوَاكَ كُلُّ قَطُوبِ الْبَرْقِ رَعَّادِ
وَلَا تَزَلْ صَلَوَاتُ اللهِ قَائِمَةٌ ... عَلَى دَفِينِكَ لَا تُحْصَى بِتَعْدَادِ

وفي هذا الرثاء تأبين لنفسه، واستسقاء لقبره وترحم على صاحبه.

لقد أشرت سابقا إلى ثلاثة شعراء كانوا في طليعة الذين رثوا المعتمد بن عباد ودولته، وهم ابن عبد الصمد، وابن حمديس، وابن اللبانة.

أما الأول، فقد زار قبر المعتمد في أول يوم عيد مر على وفاته، حيث كان هناك جمع من الناس قدموا لزيارة ذلك القبر، فوقف ابن عبد الصمد على القبر و أنشد قصيدته الدالية المشهورة. وهي قصيدة حزينة يزيد عدد أبياتها على المائة،يقول في أولها[47] :

مَلِكَ الْمُلُوكِ أَسَامِعٌ فَأُنَادِي ... أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوَادِ

---

46 ابن بسام : م.س.، 57/1/2.

47 المقري : م.س.، 224/4.

لَمَا خَلتْ منكَ القصُور فلمْ تَكُنْ	فيهَا كَمَا قدْ كُنتَ في الأعْيَـــادِ
أقبلْتُ في هذا الثّرى لكَ خاضِعاً	وَ تَخِذْتُ قبرَكَ موضِعَ الإنشَـــادِ

يفتتح الشاعر مرثيته هذه بنداء ملكه المعتمد، ويسأله إن كان يسمعه، أم أن عوادي الدهر قد حالت دون ذلك، ثم يذكر أنه كان من قبل، في مثل هذه المناسبة، يجتمع معه في قصوره، فلما خلت منه تلك القصور أقبل إلى قبره.

ومن المقاطع الجميلة في هذه القصيدة، قول ابن عبد الصمد مستعيدا الأيام الزاهرة التي عاشها ابن عباد :

عَهدِي بِمُلكِكَ و هْوَ طلْق ضَاحِكٌ	مُتهلّلُ الصَّفحَاتِ للقُصَّـــاد
أيَّام تخفقُ حولكَ الرّاياتُ فَـــوْ	قَ كتائِب الرُؤساءِ والأجْنَــاد
والأمرُ أمرُكَ و الزّمانُ مبشّــــر	بممالِكٍ قدْ أذعَنَـــتْ وبِلاَدِ
والخيْلُ تمرَحُ والفوَارِسُ تنحَــنِي	بينَ الصّوارِمِ و القَنا الميَّـــاد

إنّه يستعيد تلك الأيام التي خلت، فيذكر يوم أن كان ملك المعتمد في سعة، يزهو ضاحك القسمات، و يوم كان المعتمد يقود السرايا للجهاد في سبيل الله،والــرايات ترفرف عالية فوق كتائبه، ويوم أن كان هو الآمر الناهي، وسواه من الملوك يذعنون له، ويوم أن دان له معظم البلاد بالطاعة، فكان الحامي الراعي.

ومن تلك المقاطع قوله متفجعا على المعتمد معددا كثيرا من مآثره :

مَنْ يفتَح الأمْصَارَ بعد محمَّــــد؟	مَنْ يعقد الرّاياتِ للقُــوَّاد؟
مَنْ يطعَن النّجلاءَ في المــرّاق أو	مَنْ يضرب الأُخدُود في المُــرّاد؟
مَنْ يترُكِ الأسْطَار في الأورَاقِ مثـ	ـلَ الحلْي في اللبَّات و الأجْيَاد؟
مَنْ يَفهم المعْنَىَ الخفيّ ومَنْ لــه	صدْقُ الحدِيث وصِحّة الإيـرَاد؟
مَنْ يبذُل الآلاف للــزّوّارِ والمـ	ـمدّاح و القُصّــاد والــرّوّاد؟

بعد أن وقف الشاعر لحظات يسترجع فيها الذكريات، عاد إلى الحاضر فراح يسأل

عمن يحمل تلك الخلال الكريمة التي كانت في ملكه والتي ذهبت معه. وقد عدد من خلال تساؤلاته كثيرا من تلك الخصال،نافيا بذلك الأسلوب وجود من يتصف بها بعد المعتمد. ومن جملة ماعدد من الشمائل : الشجاعة،و النبوغ الأدبي، وصدق الحديث، والجود والكرم، وغيرها.ثم يقول :

أَبكى العُلاَ و المجْدَ فَقْدُكُمَا الذِي لبِسَتْ لهُ الدّنيا ثيابَ حِـداد

لَهفي عَلَى تلكَ السَّجَـايَا إنَّهَا زَهْرُ الرُّبَى مَوْشِيَّة الأبْـراد

وفيه يخاطب الشاعر المعتمد وزوجه "اعتماد الرميكية" التي دفنت بقربه، واصفا أثر فقدهما، فقد أبكيا العلا والمجد، وأحزنا الدنيا . ويختتم بإبداء حسرته على تلك الخصال الحميدة، والسجايا الجميلة.

إن قصيدة ابن عبد الصمد، وإن كانت في رثاء المعتمد، لتبدو منها نزعة الشاعر الوطنية، ويتجلى منها ما مثله خلعه وسقوط دولته من زوال للسيادة الأندلسية. ولقد نوه بقيمتها الفنية الدكتور " مصطفى الشكعة " فقال[48]: " والحق أن القصيدة ... خليقة بالقراءة والاستقراء. ولعلها من القصائد التي لم يؤثر طولها في قيمتها الفنية ولم يتعرض الشاعر فيها لعثرات القول التي تعرض لها، في أحيان كثيرة أصحاب المطولات من القصائد".

إن المتتبع لفن الرثاء، ليجد أن من بين أنواعه " التأبين". وهذا النوع هو في حقيقته مدح للشخص بعد وفاته، وذكر لشمائله وما كان يتصف به في الحياة الدنيا. ويكون في الغالب للأمراء و العظماء و الوجهاء أو أقربائهم. وقد وضح ذلك ابن رشيق فقال[49] : " وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت".

هذا التأبين قد يغلب عليه النفاق وعدم الصدق، كما في المدح تماما، إلا أننا عندما

---

[48] مصطفى الشكعة : م.س.، ص 540.

[49] ابن رشيق القيرواني : م.س.، 805/2.

نتعامل مع تأبينية ابن عبد الصمد نجد خلاف ذلك، لأن الشاعر كان وفيا للمعتمد. وهذا ما جعله ينتقل من الأندلس إلى المغرب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المؤبن غالبا ما يرغب في وجاهة أو عطف أو وصل من قبل أهل الميّت. إلا أن المعتمد لما توفي تفرق كل أولاده في أنحاء الأرض؛ فقد رأى الناس أبناء الملك العظيم، وقد تحولوا إلى حرفيين،يكتسبون قوت يومهم بعرق جبينهم.[50] كل هذا يجعلنا نقول بأن الشاعر قال القصيدة بنفس خالية من النفاق، بل بعاطفة صادقة يغلب عليها الوفاء و التقدير لصديقه المعتمد بن عباد.

وأما الشاعر الثاني، أي ابن حمديس، فقد عاش مدة بين ربوع الأندلس، فلما خلع المعتمد بن عباد من ملكه وسيق إلى أغمات، كتب إليه ابن حمديس قصيدة بكاه فيها ورثاه ، وهو لا يزال حيا. يقول منها [51]:

أَبادَ حياتِي الموْتُ إن كنْت سَالِيَا ... وأنتَ مُقِيمٌ فِي قيودِكَ عَانِيَا

وإن لم أبَارِ المزْنَ قَطْراً بأدْمُعٍ ... عليْكَ فلا سقيتُ منهَا الغَوَادِيَا

تَعَرَّيْتُ من قلبِي الذِي كانَ ضَاحِكا ... فمَا أَلبَسُ الأجفَانَ إلا بَوَاكِيَا

...وَهلْ أنَا إلاّ سَائِلٌ عنكَ سَامِع ... أحَاديثَ تُبْكِي بالنَّجِيع المَعَالِيَا

قُيودُكَ صِيغتْ مِن حدِيد و لمْ تَكُنْ ... لأهْلِ الخَطَايا مِنكَ إلاّ أيَادِيَا

إلى أن يقول :

وأحْدَاثُ آثار إذَا مَا غَشَيتهَا ... فَجرْتُ عليهَا أدْمعِي وَ القَوَافِيَا

مضِيتَ حَمِيداً كالغَمَامةِ أقشعَتْ ... وقد أَلْبَسَتْ وَشْيَ الرّبيعِ المغَانِيَا

سَأُدْمِي جُفُونِي بالسُّهادِ عُقُوبةً ... إذَا وَقَفَتْ عنكَ الدّموعُ الجَوَارِيَا

وأمْنَعُ نفسِي منْ حَيَاةٍ هَنِيئَةٍ ... لأنَّكَ حَيٌّ تَسْتَحِقّ المرَاثِيَا

---

[50] ينظر : المقري : م.س.، 5/236-237.

[51] ابن حمديس : م.س، ص 530 و ما يليها.

يغشى هذه القصيدة الطويلة البكاء والحزن و الأسى على المعتمد بن عباد، وفيـــها عرض لذلك المشهد الذي أدمى القلوب وأجرى الدموع، وهو مشهد ابن عباد وهو يرسف في قيوده بأغمات، وفيها كذلك ذكر للأيام السعيدة التي كان الشاعر ينعم بها في ظل ولي نعمته، ولما ولّت حق له أن يرثيه وهو حي.

أما الوفي الثالث للدولة العبادية، فهو الشاعر " أبو بكر بن اللبانة الداني". وكـــان أكثر الثلاثة شعرا في بني عباد، ليس بعد موت المعتمد فقط، وإنما رثى الدولة والمعتمد على قيد الحياة، بعيدا عن الملك، مقيدا بأغلال الأسر في أغمات. وقد بلغ به الوفـــاء لملكه ولصديقه المعتمد أن عبر البحر متجها إلى أغمات، وذلك سنة 486 هـــ، أي قبل وفاة المعتمد بعامين، وأنشده قصيدة ميمية رائعة يقول في مطلعها [52]:

تَنَشّقْ بِرَيْحَانِ السَّـــلَامِ فإنَّـما ... أَفضُّ به مِسْكـــًا عليكَ مُخَتَّمَا
وَقُلْ لِي مَجازًا إن عَدِمْتَ حَقِيقَـةً ... لعلّكَ فِي نعْمَى فقَدْ كُنْتَ مُنعَمَـا
أُفكِّرُ في عَصْرٍ مَضَى بكَ مُشرِقـًا ... فيرجِعُ ضَوْءُ الصُّبحِ عِنديَ مُظْلِمَا
وَأَعجَبُ مِن أُفقِ المجـرَّةِ إذ رَأَى ... كُسُوفَكَ شَمْسًا كَيْفَ أطلَعَ أنجُمَـا

إن الموت نوعان : أحدهما حقيقي، وهو الذي يأتي الشخص عندما يحضر أجـله، فيدفـــن فـــي التراب؛ أما الآخر فمجازي، وذلك عندما تتعطل كل حركات هذا الشخص، فيصبح وجوده مثل عدمه، فيستحق رثاء خالصا، وهو ما ينطبق عـــلى المعتمد الـــذي شلت كل حركاته بالأسر في السجن، بعد أن كان بعض أسبـــاب الحياة لغيره بيده. ونجـــد الشاعر في هذه الأبيات يسائل المعتمد عن حاله، وتأخذه الحيرة عندما يقارن بين زمن مضى مشرقا، وزمن حالك، ثم يبدي إعجابه حين يرى الأفق يطلع نجوما بعد كسوف تلك الشمس !

ثم يقول ابن اللبانة باكيا ما فقده بزوال آل عباد :

---

[52] شعر ابن اللبانة الداني : جمع و تحقيق محمد مجيد السعيد، بغداد: دار الكتب للطباعة و النشر، د.ط.، 1977، ص 87-88.

بَكَى آلَ عَبَّاد ولا كَمُحَمَّـــــد وأولَادَهُ صوبُ الغَمَامـــةِ إذْ هَمَى

حبيبٌ إلى قلبي، حبيبٌ لقولِـــه : عَسَى طَلَلٌ يدنو بِهم و لعلَّمـــا

صباحُهُمُ كُنَّا به نَحْمَـــدُ السُّرَى فَلَمَّا عَدِمنَاهُمْ سَرَيْنَـــا على عَمَى

وكُنَّا رَعَيْنَا العِزَّ حَوْلَ حِمَاهُــمُ فَقَدْ أجْدَبَ المرعَى وقدْ أقفرَ الحِمَى

فهو بعد أن يدعو لابن عباد و آله بالسقيا، يعبر عن حبه للمعتمد ويتأسف على زوال ما غمروه به من فضل.

ويمضي في مصاحبة الطبيعة مصورا حزنه الكبير، ذلك الحزن الذي خلعه على كل مظاهر الطبيعة، فيقول :

تَضِيقُ عليَّ الأرضُ حتَّى كأنَّــمَـــا خُلقتُ و إيَّاها سِوَاراً ومِعْصَمَـــا

ندبتُك حتى لمْ يَخلَّ لِيَ الأسَـــــى دُموعًا بِها أبكي عليكَ،ولا دَمَـــا

وإنّي على رَسْمِي مُقيمٌ فإن أمُــــتْ سَأجْعلُ للبَاكِينَ رَسْمِيَ مَوْسِـــما

بَكاكَ الحَيا والرِّيحُ شقَّت جيُوبَــهـا عليكَ وناحَ الرَّعدُ باسِمِكَ معلمَا

ومُزِّقَ ثَوبُ البَرقِ و اكتَستِ الضُّحَى حِداداً و قامَتْ أنجُمُ الجوِّ أفحَما

ومــــا حَلَّ بدرُ التِّمِّ بعْـدَكَ دارةً ولا أظْهَرَتْ شَمسُ الظَّهِيرَةِ مَبْسِما

فالكون بأجمعه، متحركه وساكنه، بكى المعتمد وناح عليه، والأبيات كلها تصوير لذلك الأسى، ووصف لذلك التوجع.

ثم يقول بعد أن حلت قيود المعتمد :

قُيُودُكَ ذابَتْ فانطلقتَ، لقَـــدْ غدتْ قيودُكَ، منهم بالمكَارِم أرْحَمَـــا

عجِبْتُ لِأَنْ لَانَ الحديدُ وأن قَسَـــوْا لقدْ كانَ مِنهمْ بِالسَّرِيرَة أعْلَمَـــا

سَيُنجيكَ مَنْ نجَّى مِنَ السِّجنِ يُوسُفا ويُؤْوِيكَ من آوى المسِيحَ بنَ مَرْيما

وفي ذلك مقارنة طريفة بين قساوة قلب سجان المعتمد ولين الحديد. ولقد وظف الشاعر للتعبير عما تجيش به نفسه ثقافته التاريخية والدينية.

كان أبو بكر بن اللبانة من أكثر الشعراء شعرا في المعتمد بن عباد، فقد أغـــرق صاحبه بالمراثي الفياضة بالأسى والدموع، وهو ما جعل بعضـــهم يلقبه " سمـــوأل الشعراء"[53] . "و لأبي بكر الداني المذكور في البكاء على أيامهم (أي بني عـــباد) وانتثار نظامهم عدة مقطوعات وقصائد، هي قرة عين الطالب، ونجعة الرائد . وقـــد اشتمل عليها جزء لطيف، صدر عنه في هيئة تصنيف سماه : " السلوك، في وعـــظ الملوك" [54]. و ألف الشاعر أيضا كتابا يهتم بتاريخ مملكة بني عباد وأخبارهم سماه: " الاعتماد، في أخبار بني عباد" [55].

ومن سبائك ذلك الرثاء الجيد لابن اللبانة في "ملك الملوك"، مرثية مفعمة بالمعـــنى الرصين الحزين. يقول في أولها، في نغمة حكمية حزينة [56] :

لِكُلِّ شيءٍ مِنَ الأشْيَاءِ مِيقَـــــاتُ وللِمُنَى من مَنَايَاهُنَّ غَـــايَاتُ
والدَّهرُ في صِبغَةِ الحِرْبَاءِ منغَمِـــــسٌ ألوَانُ حَالاتِهِ فيهَا استِحَالَاتُ
ونحنُ من لُعبِ الشَّطرنْـــجِ في يَدِهِ ورُبَّمَا قمرَتْ بالبيذَقِ الشَّـــاةُ

لقد أشار "بدير متولي حميد" إلى نوع رابع من الرثاء، عندما تعرض لقـــول ابـــن رشيق المشار إليه سابقا : " و ليس بين الرثاء و المدح...." وأورد أربعة أوجه بـــيّن مـــن خلالها أن الرثاء يختلف تماما عن المدح، ناقدا بذلك قول ابن رشيق. هذا النوع الرابع من الرثاء قال فيه [57]: " ورابعها، وهو أبعد عن المدح، التحدث في المرثية عـــن فلسفة الحياة والموت والبقاء، والإشارة إلى الزمن وصروفه في حكمة يراد بها تعليـــم الناس،ووقوفهم على حقيقة الدهر والحياة".

[53] ينظر : إحسان عباس: م.س.، ص190.

[54] المقري : م.س.، 4/258.

[55] م.ن.، ص 225 .

[56] ابن اللبانة الداني : م.س.، ص 24

[57] قضايا أندلسية، القاهرة : دار المعرفة، الطبعة الأولى ، 1964، ص 322-323.

وإذا تأملنا الأبيات السابقة، وجدناها تصب في هذا المعنى. وقد افتتح الشاعر كعادة بعض المشارقة، مرثيته بأبيات من الحكمة، حيث ذهب إلى الحديث عن صروف الدهر وأحواله، والذي يُشبّه في تقلباته بالحرباء المتغيرة الألوان. ثم انتقل إلى عالم الناس وما أحدثته تقلبات الدهر فيه، فشبه الناس في هذا العالم بقطع الشطرنج، يحركها الدهر كيف شاء. ولعل الشاعر مصيب في تشبيهه، فالشطرنج في الأصل لعبة الملوك، وإذا أُسقط فيها الملك انتهت اللعبة.

ثم يقول مزهدا :

انفُضْ يَدَيْكَ من الدّنيا و ساكِنِها   فَالأرضُ قدْ أقفَرَتْ والنّاسُ قدْ مَاتُوا
وقُلْ لِعَالِمِهَا السُّفْلِيّ: قدْ كَتَمَتْ   سَريرَةَ العَالَمِ العُلْوِيّ أغْمَاتُ
طَوَتْ مِظَلّتُها لاَ بَلْ مَذَلّتُهَا   من لم تَزلْ فوقَهُ للعِزّ رَايَاتُ
مَنْ كانَ بَين النّدى و البَأسِ: أَنْصُلُهُ   هِنْدِيّةٌ، وَعَطَايَاهُ هُنَيْدَاتُ

وهي دعوة إلى الزهد و ترك الدنيا و الابتعاد عنها. ويمكن القول هنا بأن الشاعر قد ضخم الأمر في وصف حقيقته، وليس الأمر كذلك. إذ لا يمكن أن يكون موت شخص واحد سببا في كل ذلك، حيث تدق الطبول ويعلن في المعمورة أن الناس قد ماتوا، و أن الأرض قد أقفرت من كل شيء، و أن ذلك مدعاة لترك الدنيا. إنما مبالغة كان وراءها الحزن العظيم و الألم الممض. و إنما لتدل على الإخلاص العميق لصاحبه، والوفاء الرائع لولي نعمته. بل و تبلغ تلك المبالغة شأوا بعيدا حين يدعي أن أغمات قد كتمت كل سريرة العالم العلوي، وطوت كل معالم السخاء والشجاعة والبأس.

ثم يقول مشيرا إلى ما بعث المرابطين على نكبة المعتمد، مسوّغا ما فعلوا به :

رَأَوْهُ لَيْثاً فَخَافُوا مِنْهُ عَادِيَةً   عَذرتُهُمُ، فَلعَدْوَى اللّيْثِ عَادَاتُ

ولقد كان المعتمد حقا ليثا يهابه غيره من الملوك، و الأمراء، الذين كانوا يجاورونه

في الأندلس، والليث كما هو معروف، يهاب وإن كان رابضا. وفي البيت حكمة في قول الشاعر: " فلعدوى الليث عادت"؛ وهي صائبة، لأنه لا يوجد ليث أليف.

وقد ذكر صاحب " نفح الطيب " بعض المراثي السالفة الذكر التي قالها ابن اللبانة في المعتمد تحت عنوان " مدائح ابن اللبانة في بني عباد". وقد لا يناقض ذلك الحقيقة. ولعله أخذ بقول ابن رشيق في كتاب " العمدة" عندما تعرض للمدح والرثاء، إذ رأى أنه لا فرق بينهما إلا في كون الأول للأحياء، والثاني للأموات.

وقد فضلت أن أدرج تلك القصائد ضمن الرثاء لا المدح.

ولقد طال نفس ابن اللبانة في هذا الفن ، لأن الحوادث كانت تقدم له غذاء يذكي شعوره، فكثر عنده هذا اللون من الشعر الحزين. وكان يحزنه أن يرى الملك العزيز قد أخذته الذلة والمسكنة، و باء بغضب من يوسف تاشفين، فلم يستطع أن يكبت هذه الآلام ويخفي هذا الشعور المحرق، فانفجرت نفسه بقصيدته الدالية النادرة مثيلاتها في هذا الفن.

وسأمثل منها ببعض الأبيات للتدليل على جودتها وصدق إحساس صاحبها.

يقول أبو بكر ابن اللبانة في مستهلها [58]:

تَبكِي السَّمَاءُ بِمُزْنٍ رَائِحٍ غَادِ ... عَلَى البَهَالِيلِ مِن أَبْنَاءِ عبَّادِ

عَلَى الجِبَالِ التِّي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا ... وكانَتِ الأَرضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ

... وَكَعْبَة كانَتِ الآمالُ تعمُرُهَا ... فاليَوْمَ لا عَاكِفٌ فيهَا ولا بَادِ

نَوْرٌ و نُورٌ،فهذَا بعدَ نِعمَتِه ... ذَوى، وذَاكَ خَبَا مِن بَعْدِ إيقَادِ

وهي صورة فنية رائعة لمشهد مثير؛ فبعد أن كان المطر يستعمل للدلالة على الخير والجود،والحياة والنماء والبركة، وظف في هذه القصيدة ضمن غرض الرثاء المملوء بالدموع والبكاء والحزن وغيرها. والمعنى : أن السماء قد بكت بمزنها الهاطل، في رواحه وغدوه، على السادات الجامعين لصفات الخير من آل عباد، هؤلاء الذين كانوا

---

[58] ابن اللبانة الداني : م.س.، ص 39.

من قبل مثل الجبال الراسيات التي تثبت الأرض، ثم هدت هذه القواعد وتزعزعت. وإن بلاط بني عباد الذي كان مقصد ذوي الآمال وموئل أصحاب الحاجات صار مكانا قفرا لا عاكف فيه ولا باد، فقد ذوى ما كان بذلك المكان من نَوْر، وخبا ما كان فيه من نُور.

ثم يقول :

يَاضيف أَقْفرَ بَيْتُ المكرُمَاتِ فَخُذْ ... فِي ضَمِّ رَحْلِكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ

وَيَا مُؤَمِّلَ وَادِيهِمْ لِيَسْكُنَهُ ... خَفَّ القَطِينُ وَجَفَّ الزَّرْعُ بالْوَادِي

و أنتَ يَا فَارِسَ الخَيْلِ التي جعلَتْ ... تَخْتَالُ فِي عُدَدٍ مِنْهَا وَ أَعْدَاد

أَلْقِ السِّلاحَ وَخَلِّ المشْرَفِيَّ فَقَدْ ... أَصْبَحْتَ فِي لَهَوَاتِ الضَّيغَمِ العَادِي

وكأن الشاعر واقف في مكان عال، وهو يخاطب الناس قائلا : يا أيها الضيف الذي كنت تحل بالجواد الكريم، خذ راحلتك ، واجمع فضلة زادك، وانصرف، لأن البيت قد أقفر من الكرام، ويا من أتى ليسكن بقربهم خفف من مكثك لأن أسباب الحياة قد انعدمت برحيلهم، وحل الجدب بزوالهم، و أنت أيها الفارس المختال بعدد الخيول وعددها ألق السلاح، فلن تستطيع رد إغارة العدو إذ صرت في لهاته، لأن الشجاع الذي كان لهم بالمرصاد قد نبا سيفه وكبا فرسه.

إنها أبيات جد رائعة، تصور ذلك التحول الفظيع الذي أصاب الناس بزوال مملكة بني عباد وأفول نجمها. وقد استعمل الشاعر ما يصطلح عليه بأسلوب " المشاركة "، وذلك أن يعمد الشاعر إلى مخاطبة غيره من المستمعين حتى يجعلهم يشاركونه همومه وأحزانه ومشاعره.

ثم يقول محاولا التعزي عن بني عباد، واصفا مصيبة الإشبيليين بهم، مصورا مشهد ترحيلهم إلى المغرب.

إن يُخْلَعُوا فَبَنُو العَبَّاسِ قدْ خُلِعُوا ... وقَدْ خَلَتْ قَبْلَ حِمْصٍ أَرْضُ بَغْدَادِ

حَمَوْا حَرِيمَهُمْ حَتَّى إِذا غُلِبُوا ... سِيقُوا عَلَى نسقٍ فِي حَبْلِ مقْتَادِ

وَأنزلُوا عن مُتُونِ الشّهْبِ و احتُمِلُـوا فَوْقَ نَخِيلٍ لِتِلْكَ الدّهمِ أَنْدَادِ
... والنّاسُ قَدْ مَلأُوا العبرين وَاعتبرُوا مِن لُؤْلُؤٍ طَافِيَاتٍ فَوْقَ أَزبَـادِ
حُطّ القِنَاعُ فَلَمْ تَسْتَتِـرْ مُخَدَّرَةٌ وَمُزِّقَتْ أَوْجُهٌ تَمْزِيق أَبْـرَادِ
تَفرقُوا جِيرَةً مِنْ بَعدِ ما نَشَـأُوا أَهلاً بأهْـلٍ وَ أولاَدًا بأوْلاَدِ
حَانَ الوَدَاعُ فَضَجّتْ كُلّ صَارِخَـةٍ وَصَارِخٍ مِنْ مُفَدّاةٍ، وِمِنْ فَـادِ
سَارَتْ سَفَائِنُهُم، وَ النّوحُ يَصْحَبُهَـا كَأَنَّهَا إِبِلٌ يَحْدُو بِهَا الـحَادِي
كَمْ سَالَ فِي المَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ تِلْكَ القَطَائِعُ مِن قِطْعَاتِ أَكْبَادِ
مَنْ لِي بِكُمْ يَا بَنِي السَّمَـاءِ ، إِذَا مَاءُ السَّمَاءِ أَبَى سُقْيَا حَشَا الصَّادِي

إن الإنسان إذا أحب شخصا حبا جما، أبا كان أو أخا أو قريبا أو صديقا، فإن هذه المحبة ستثمر ثمرا يانعا. فإذا أصيب ذلك الشخص بفاجعة،وقعت على الآخر كالسهم الطائش الذي لا يحتمل رده، ولا يكمن اتقاؤه، فيبكيه بكاء مرا صادقا. وهذا هو الذي حدث لابن اللبانة عندما أصيب صديقه المعتمد.

ويبدو أن الشاعر كان موفقا في تصوير حزنه الذي أثاره ذلك المشهد. وإن كان الدكتور إحسان عباس يقول[59] : " تمثل هذه القطعة صورة خارجية للمنظر الحزين ، دون أن تعبر إلا قليلا عن الحزن الذاتي لدى ابن اللبانة. ولكن هذه الطريقة غالية في طلب الإثارة بتعريض القارئ نفسه لتصور موقف الحزن، هذا إلى أن الحزن الذاتي كامن في كلماتها".

كذلك صورت هذه الأبيات مشهدا مرئيا، فالذي يقرؤها يتمثل الواقعة وكأنه يراها، فإذا ما انتقلت إلى شعوره وامتزجت بأحاسيسه ومشاعره تولد لديه الحزن العميق والأسى البالغ.

ولقد كان ابن اللبانة من شهود هذه الحادثة، فلم يسمع بأذنيه فحسب، وإنما رأى بأم عينيه. لذلك فهو ينقل المشهد حقيقة كما رآه. فبعد أن ذكر الخلال والمكارم

[59] م.س.، ص 190-191.

الـــتي اتصف بها ابن عباد، شرع يؤكد أن خلعه من إشبيلية لم يكن الأول والأخير. إن بني العباس الذين أطاحوا ببني أمية قد خلعوا كذلك، وإن حمص (وهي إشبيلية) الـــــتي سقطت، قد خلت قبلها بغداد ودمرت؛ فهو يقارن عظيما بعظيم، وذلك حتى يـــجد للمهزوم مبررا تاريخيا يرفع عنه اللوم.

ثم يذكر أنه بعد أن أعلن خلعهم من قصر إشبيلية المنيف الذي دافع فيه المعتمد عن نفسه وحرمه، سيقوا ثم حملوا في السفن التي شقت ماء نهر " الوادي الكبير" متجهـــة من إشبيلية إلى المغرب، وحالهم لا تبعث إلا على الحزن والأسى. وقد صفـــــــدوا بالأغلال وقيدوا بالسلاسل، في مناظر تذيب القلب كمدا. ولم ينس ابن اللبانة وصف بعض المناظر المثيرة، فيذكر أن النساء الإشبيليات اللواتي كن مخدرات بَدَوْن سافرات، لشدة حزنهن، وهن يخدشن وجوههن ويمزقنها كما تمزق الأثواب .

ثم يصور ابن اللبانة تلك اللحظة الحاسمة في ذلك المشهد المثير، فيذكر أنه لما حـــان الوداع لم يتمالك المخلصون لهول المشهد ولم يضبطوا أنفسهم، إذ عز عليهم فـــراق ملكهم، فضجت جموعهم، التي احتشدت على ضفتي النهر، لوداع المعتمد، بالبكـــاء والنواح. وكيف لا وهم يشاهدون ملكهم و ممثل سيادتهم الوطنية وحامي ذمارهـــم يقاد ذليلا، هو وأهله إلى مصيرهم المجهول، بل إلى مصيرهم السيئ المحزن، حيـــث " فعل أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) بهم فعالا لم يسلكها أحد من قبـــله، ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده، إلا من رضي لنفسه بهذه الرذيلة... وأبان أمير المسلمـــين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره" [60].

لقد كانت مأساة المعتمد بن عباد من أجلّ المآسي الملوكية، وما زالت محنة هـــذا الملك تثير الأشجان إلى يومنا هذا. وهكذا سقطت مملكة بني عباد كلمح البصـــــر،

---

[60] ابن الأثير :م.س.، 190/10

وأفل نجمها الذي سطع حينا في سماء الأندلس، ولكنها سقطت أبية كريمة النفس، في شجاعة ومروءة نادرة الوقوع. وقد بكاها كثير من شعراء الأندلس، لا لفقد نعيم كانوا يرفلون فيه فحسب، ولكن لزوال دولة و ملك كانا يمثلان سيادتهم الوطنية.

ب- رثاء دولة بني الأفطس :

تقع دولة بني الأفطس، أو بني المظفر، في غربي الأندلس. أنشأها محمد بن المنصور بن الأفطس التجيبي في بطليوس وماردة وشنترين وإشبونة وما حولها ؛ أي أن ملكه شمل منطقة البرتغال الحالية وجزءا من إسبانيا. وكان ابن الأفطس أديبا كبيرا ومؤرخا عظيما وفارسا شجاعا. وقد عاصر المعتمد بن عباد المذكور سالفا. وعلى الرغم من أنه صبّ كل اهتماماته على تدبير الملك وشؤون الحرب والسياسة، فإنه كتب موسوعة تتألف من خمسين جزءا سماها " المظفري "، وهي على نمط كتاب ابن قتيبة " عيون الأخبار"، كما ألف كتابا في تفسير القرآن الكريم. وتوفي سنة 460هـ. ثم تولى الملك من بعده نجله " المنصور يحيى"، ولكنه لم يشبه أباه في خصاله. و توفي المنصور هذا في سنة 473 هـ . ثم حكم من بعده أخوه " عمر" الذي تلقب فيما بعد " بالمتوكل". وكان مثل أبيه، شاعرا أديبا، وفارسا مغوارا. ولا غرو، فقد اكتسب ذلك كله منذ طلائع شبابه[61].

وكانت الجيوش المرابطية في فترة " المتوكل" في أنشط أيامها وأعتاها، حيث سارت تتوغل في الأراضي الأندلسية بشكل رهيب، تطيح بدولها وإماراتها الواحدة تلو الأخرى، وتخلع ملوكها الواحد بعد الآخر . فلما علم عمر المتوكل باستيلائهم على إشبيلية والإطاحة بملكها المعتمد بن عباد، شعر بأن وهج الخطر سيلفحه بألسنته ولهيبه، وأن الحرب ستدور رحاها عليه. ولما استولى الجيش المرابطي على غرناطة، مشى المتوكل والمعتمد لتهنئة ابن تاشفين، فاستقبلهما بجفاء واضح، فشعر كل واحد منهما بالخطر المنتظر، وكان هذا قبل الإطاحة بمملكة إشبيلية، وخلع المعتمد. إلا أن

---

[61] ينظر : مصطفى الشكعة : م.س.، ص 369.

المتوكل استطاع أن يكسب ود المرابطين مدة ثلاثة أعوام، إلى أن بدأ المرابطون الإغارة على مملكة بطليوس لافتتاحها كما فتحوا غيرها. عندها أحس المتوكل بأن المرابطين قد تغير مزاجهم نحوه. ثم بعث حاكم إشبيلية بعد المعتمد " سير بن أبي بكر" المرابطي جيشا ضخما إلى بطليوس لفتحها، فاخترقت هذه القوة أراضي بطليوس بسهولة. مما اضطر ابن الأفطس إلى أن يتحصن، كابن عباد، بقصبة بطليوس المنيعة الضخمة. لكن الجيش المرابطي كان ذا بأس شديد، فاقتحم الجنود المرابطون تلك القصبة، وقبضوا على المتوكل وابنيه، " الفضل" و"العباس"، وأخذوهم بحجة دفعهم إلى حاكم إشبيلية، لكنهم أعدموهم بمجية في الطريق بعد أن استولوا على جميع أموالهم التي كانت بالقصبة، وكان ذلك سنة 488 هـ[62].

وهكذا انتهت مملكة بطليوس بعد أن قامت تحت راية بني الأفطس حوالي خمسة وسبعين عاما. وقد أيقظت محنة بني الأفطس أيضا قريحة الشعر الأندلسي، وأفاض في رثائهم و رثاء دولتهم، وزيرهم الكاتب البارع و الشاعر الماهر، " أبو محمد عبد المجيد بن عبدون" بمرثيته السائرة، التي تعد من غرر الشعر وأروعه. وهي رائية جميلة مؤثرة ، كان لها رواج واسع، وحظ وافر من الشروح والتعليقات والترجمة.

والحق أن عمر المتوكل لم يحظ بمثل ذلك الرثاء الكثير الذي حظي به المعتمد بن عباد، ولعل ذلك يعود إلى أن المتوكل لم يقرب إليه أرباب الشعر الأندلسي آنذاك كما فعل المعتمد، وإنما اشتغل كثيرا بأمور السياسة التي كان فيها محنكا. وهو ما جعله يكسب ود المرابطين ثلاثة أعوام، كما رأينا سابقا، وذلك بخلاف المعتمد الذي ألقي القبض عليه قبل المتوكل.

على أن قصيدة ابن عبدون توازي في قيمتها وشهرتها دواوين كاملة ! فقد رثى فيها تلك الدولة ببراعة قل نظيرها، مما يجعل قارئ القصيدة يتصور أن بني الأفطس كانوا أبطالا عظماء، وأسطورة لا مثيل لها.

---

[62] ينظر : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص 368-369.

على أنه لا غرو في إجادة ابن عبدون في نظم تلك القصيدة، فقد كان جامعا لمختلف العلوم، حيث تلقى الفقه واللغة والأدب والشعر، فقربته تلك المكانة العلمية من المتوكل أمير "يابرة"، ثم من أمير بطليوس الذي اتخذه كاتبا لسره سنة 473 هـ، ثم تولى ابن عبدون وزارة دولة بني الأفطس حتى انهيارها[63].

ولقد حظي، من بني الأفطس، شاعرهم ووزيرهم بالعيش الكريم. وإذا تأسى ابن عبدون فعلى عيش رغيد مضى وانقضى، مما يجعلنا نرجح أنه كان صادقا في إحساسه، غير مبالغ في وصف مشاعره. وحق له أن يجعل من بني الأفطس أبطالا ويبكي عليهم بدل الدمع دما ! وإذا كان ابن اللبانة قد رثى بني عباد وتتبعهم وهم محمولون على السفن إلى منفاهم الأخير، فإن ابن عبدون قد بكى بني الأفطس بعدما ماتوا فعلا وانتهى أمرهم، وزال ملكهم وعزهم.

فلنسمع إليه وهو يقول[64] :

الدّهرُ يفجعُ بعد العَيْنِ بالأثَـــرِ	فَما البُكَاء على الأشبَاح والصّـوَرِ
أَنْهَاكَ أنْهَاكَ لَا آلُوكَ مَوعِظَـــةً	عَن نَوْمَةٍ بينَ نابِ اللّيْثِ و الظّفـرِ
فالدّهرُ حربٌ وإنْ أبدَى مُسالمةً	والسُّودُ والبِيضُ مثلُ البِيضِ والسّمرِ
ولا هَوَادةَ بين الرّأسِ تأخـُـذه	يدُ الضّرّاب و بينَ الصّارِم الذّكـرِ
فلا تغرّنْكَ من دُنياكَ نومتُـــها	فمَا سجيَّةُ عينيهَا سِوى السّهَـــرِ
مَا لِلّيالي – أقالَ الله عثرتَنَـــا	مِن اللّيالي وخانتْهَا يَدُ الغِـــيَرِ -
في كُلّ حِينٍ لهَا في كُلّ جَارحةٍ	مِنّا جراحٌ وإنْ زاغتْ عن النظَـرِ
تَسرّ بالشّيءِ لكنْ كَيْ تغرّ بِـــهِ	كَالأَيمِ ثَارَ إلى الجانِي مِنَ الزّهَـــرِ

---

[63] ينظر : ميشال عاصي : الشعر و البيئة في الأندلس، بيروت : منشورات المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الأولى، 1970، ص 91.

[64] ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس، بيروت :دار صادر ، د.ط.، 1974، 303/2

كثير من الناس إذا أصيب بفاجعة أو ألمت به ملمة، يبحث من حوله عن مشجب يعلق عليه ما أصابه. وهو بهذا العمل لا يعالج الـــداء أصلا. وهو أمر " نعيشه يوميا، فيقول الواحد منا إذا أصيب : " هذا قضاء وقدر"، و" هذه مكتوبة" إلى غير ذلك من العبارات التي يتعزى بها عن مصيبته.

وإن الشاعر ابن عبدون،قد تحدث في أبيات كثيرة من مقدمة هذه القصيدة، عن غير الذي أراده قبل ذكره لبني الأفطس،حتى ليخيل إلى القارئ،أنّ القصيدة ليست رثاء لبني الأفطس. وقد نتصور ابن عبدون فوق المنبر ممسكا عصا بيده، وهو يحـــذر الناس من الاستكانة إلى هذه الدنيا، وذلك في أسلوب شديد اللهجة.

لقد جاءت تلك المقدمة مملوءة بالحكم، وبالحديث عن غوائل الدهر ونوائـــبه، وبالتحذير من الركون إليه، وهو ليس بموقف الشعراء، وإنما هو من عكازات الفقهاء ورجال الدين. وكأن الشاعر يريد أن يقول : إن سبب ما آل إليه بنو الأفطس هو أن الدهـــر حاربهم فغلبهم. وكان على الشاعر أن يذهب إلى موطن الداء،حيث أن الذي وقـــع لبني الأفطس كان بسبب ضعفهم و قوة خصمهم. لكننا نجد للشاعر عـــذرا على موقفه هذا، لأنه إن لم يفعل كان منكرا للجميل الذي تنعَّم فيه. فهو مع أوليـــاء نعمته ظالمين أو مظلومين !

وقد جرى الشاعر ، في تلك المقدمة، على نمط القدماء من أهل المشرق في نظرتهم إلى الحياة و موقفهم من الدهر، محاولا مثلهم أن يفلسف الموقف.

ثم يقول ذاكرا أهم الأحداث التاريخية والدينية التي مضت :

كَمْ دولَةٍ وَلِيتَ بالنَّصرِ خدمتَهَـــــا   لَم تُبقِ منهَا ـ وسَلْ ذِكراكَ ـ مِنْ خَبَرِ
هَوَتْ بِدارَا وفلَّتْ غربَ قاتِلــــــهِ   وكانَ عَضبًا علَـى الأملاكِ ذَا أثَرِ
واستَرجَعتْ مِن بني سَاسَان مَا وَهبَتْ   ولَمْ تدَعْ لبني يونانَ مـــــنْ أثَرِ
وأتبعَتْ أختَها طسْماً و عَادَ علـــى   عَادٍ وجُرْهُمَ منهَا نَـــاقضُ المرَرِ
... وأنفَذَتْ في كُليبٍ حُكمَهَا ورمَتْ   مُهلهِلاً بينَ سَمعِ الأرضِ والبَصَــرِ

... وَخضّبتْ شيبَ عُثمان دَمًا وخطتْ إلَى الزّبيرِ ولمْ تسحْي مِنْ عُمَـــر
... وأجْزرَتْ سيفَ أشقَاهَا أبَا حسَــنٍ وأمْكنَتْ من حسَيْن راحتَيْ شمـر
... ولمْ تُراقبْ مكانَ ابنِ الزّبــيْرِ ولَا رَعَتْ عياذَتَه بالبَيْتِ و الحجَــرِ
... وأوْثقَتْ في عُرَاهَا كل مُعتمِــدٍ وأشْرقَتْ بِقذاهَا كلّ مقتَـدِرِ
ورَوّعتْ كُلّ مأمُون و مؤتَـــمنٍ وأسْلمَتْ كُلّ منصُور و مُنتَصِـر
وأعثَرتْ آلَ عبّاسٍ-لعًا لَهُــــمُ - بذَيْلِ زبّاءَ مِنْ بيضٍ ومِنْ سمَــرِ

إنّ فن الرثاء في الأندلس هو أوضح موضوع تجلت فيه آثار طريقة العرب[65]. وهي سمة لاحظها ابن بسام حين رأى ابن عبدون قد ضمن قصيدته الفريدة أخبار من أباده الحدثان، من أكثر ملوك الزمان[66].

وقد جاءت قصيدة ابن عبدون طويلة، وبلغت مقدمتها وحدها ما يربى عـــلى الأربعين بيتا، تمثل كتابا كبيرا يتضمن الأحداث التاريخية الممتدة في الزمن الغابر. فهو يتحـــدث عن دول وأمم ضاربة في القدم، فيذكر " دارا " وهو أحد ملوك الفرس مات مقتولا سنة 330 ق.م. على يد الإسكندر ذي القرنين بعد انكساره في واقعة "إربل " [67].

ثم يمضي الشاعر متكئا على ثقافته الواسعة في ذكر الأحداث الجسام الـــتي أودت بدول سطعت نجومها عالية، مثل دولة بني ساسان، ودولة اليونان، ثم يستعرض أهوال التاريخ التي قضت على قبائل كثيرة بائدةو عاربة كـ" طسم"، و" عاد " و" جرهم" و"سبأ" وغيرها، ثم يعرج على أعلام العصر الجاهلي،فيذكر الذين أفناهم الموت،مثـــل " كليب" و" المهلهل".

ومن عصر صدر الإسلام،يذكر من أتى عليهم الموت من الصحابة،والخلفــــاء

---

[65] إحسان عباس : م.س.، ص 117.

[66] ابن بسام : م.س.، 720/2/2.

[67] ينظر:بطرس البستاني : أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث، دار الجيل،د.ط.، د.ت.، ص 52.

والمجاهدين "كجعفر بن أبي طالب" و" حمزة بن عبد المطلب"، ثم يذكر مقتل الراشدين "عثمان" و"علي"، ومصرع "الزبير"، واستشهاد الإمام " الحسين بن علي".

ثمّ يمرّ ابن عبدون إلى الإشارة إلى بعض الأحداث السياسية التي وقعت في عهد بني أمية، ويستمر ذاكرا غدر الدهر بالناس، وخيانة الأيام لهم، وتقلب الليالي عليهم، ضاربا كثيرا من الأمثال. وممّا ذكر، قضية اتهام معاوية بدسّ السّم للإمام " الحسن". ومن الشخصيات التاريخية التي ذكرها نماذج لمن أفناهم الموت : "عبيد الله بن زياد"، والحسن بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، وأخوه مصعب، حيث لم يشفع للأول احتماؤه بالكعبة الشريفة، وقتل الثاني على فرط شجاعته وحسن بلائه.

وإذا كان " ابن اللبانة" قد أشار إلى أن بني العباس قد خلعوا وانتهى أمرهم ، فإن " ابن عبدون " يذكر بعض هؤلاء الذين خلعوا من الخلافة، وغدرت الأيام بهم، من أمثال : المستعين، وعبد الله بن المعتز، والمعتمد على الله ، والمقتدر، والمأمون، والمؤتمن، والمنصور، والمنتصر...كل هؤلاء كانوا يمثلون عز ملك بني العباس، وصولة الدولة العباسية، لكن عصفت بهم رياح الهزيمة وأصابهم القدر، فدالت دولتهم كغيرهم ممن سبقوهم ولحقوهم.

لقد أورد ابن عبدون خمسة وثلاثين بيتا مدارها أحداث التاريخ ، مادتها الحكمة وهدفها العبرة. و لم يكن سوقه هذا العدد من الأحداث التاريخية في هذه المقدمة الطويلة اعتباطيا، أو على سبيل النزهة في رياض التاريخ، ولكنه قدم ذلك حتى يخفف من وطأة الآلام التي أحس بها لما أصاب بني المظفر، ولأن إيراده ذلك يصغر في إحساسه من الكارثة التي وقعت، إذ حدث قبل هذا المصاب الجلل ما هو أجل وأطم. وليس يستوي الواحد مع العشرة، والكثير ينسي القليل.

وقد ساق ابن عبدون كل هذه العبر في وقار الحكيم، ودقة المؤرخ، ومسحة الشاعر، ولمسة الفنان. إنه قدم ألوانا من غدر الأيام في جلباب الأمثال والحكم.

على أن هناك قضية مهمة أثارها " إميليو غرسية غومس"، حين تعرض لقصيدة ابن عبدون فقال[68] : " فأما القصيدة الأولى – يقصد رائية ابن عبدون- فلا نعرف شعرا هو أبعد عن الإحساس الإنساني منها، إذ أنها سلسلة من الأبيات تدور حول معنى " أين الألى ؟ " يعدد ابن عبدون فيها مصائب التاريخ البشري في أسلوب خال من حرارة الإحساس الصحيح، وهو لا يرمي من وراء هذا السرد إلا إظهار مدى علمه".

لقد حكم إميليوغرسية غومس على القصيدة كلها بأنها بعيدة عن الإحساس الإنساني. وهذا الحكم – وإن سلمنا بصوابه- لا ينسحب على كامل القصيدة، إذ لا يتجاوز مقدمتها التاريخية، لأن المصائب التي حلت ببني الأفطس ليست بالنسبة إلى الشاعر تاريخا ، بل كانت واقعا حاضرا عاشه. أما بالنسبة إلى غرسية غومس، وإلينا نحن، فالقصيدة كلها، وما يشبهها، تعد ضمن أخبار أحداث التاريخ، بمعنى أنه لا يمكن أن نقول بأنها كلها بعيدة عن الإحساس الإنساني الذي عاشه الشاعر. ولقد صدق الدكتور إحسان عباس حين قال متحدثا عن ذلك الشعر الذي يشبه مقدمة قصيدة ابن عبدون[69] : " ...وإنما فيه أسى عميق على العظماء من بني الإنسان، فهو بكاء على العظمة من خلال تصوير عظمة الموت، رجاء التأسي ".

كما أصاب حميد متولي حين رد على قول غرسية غومس السابق فقال[70]: " والواقع أن ابن عبدون كان يشعر بالألم يعصر قلبه وإحساسه، فقد كان وزيرا لبني الأفطس يغمره القوم بالنعيم والإكرام. وإذا بكى فإنما يبكي حقا لنعيم زال فعلا، كان هو على الأقل يتقلب فيه. ومن أجل ذلك نرجح أنه كان صادقا في إحساسه الإنساني".

---

[68] م.س.، ص 106-107.

[69] م.س.، ص 119

[70] م.س.، ص 328-329.

ولكي ندلل على صدق هذا الإحساس الإنساني الرفيع،ننصت إلى ابن عبدون وهو يقول :

بَنِي المُظفَّرِ وَالْأَيَّامُ مَا بَرِحَتْ ... مَرَاحِلاً وَالورَى مِنهَا عَلَى سَفَرِ

سُحْقاً لِيَوْمِكُمُ يومًا وَلَا حَمَلَتْ ... بِمِثْلِهِ لَيْلَةٌ فِي مُقْبِلِ العُمُرِ

مَنْ لِلْأَسِرَّةِ أَوْ مَنْ لِلْأَعِنَّةِ أَوْ ... مَنْ لِلْأَسِنَّةِ يهْدِيهَا إِلَى الثَّغَرِ

مَنْ لِلظُّبَى وَعَوَالِي الخَطِّ قَدْ عُقِدَتْ ... أَطرَافُ أَلْسُنِها بِالْعِيِّ و الحَصَرِ

وَطَوَّقَتْ بِالْمَنَايَا السُّودِ بِيضَهُمُ ... فَاعْجَبْ لِذَاكَ وَمَا مِنهَا سِوَى الذِّكرِ

مَنْ لِلْبَرَاعَةِ أَوْ مَنْ لِلبَرَاعَةِ أَوْ ... مَنْ لِلسَّمَاحَةِ أَوْ لِلنَّفْعِ وَ الضَّرَرِ

أَوْ رفْعِ كَارثَةٍ أَوْ دَفْعِ آزِفَةٍ ... أَوْ رَدْعِ حَادِثَةٍ تعيَا عَلَى القَدَرِ

ويذهب الدكتور " ميشال عاصي" مذهب الباحثين السابقين في تقويم إحساس ابن عبدون في هذه القصيدة، فيرى أن هذه المرثية " تجسيد بارع لموقف إنساني يقفه الشاعر من الدهر وأحداث التاريخ[71]"

وبعدما ذكر الشاعر تلك المرحلة الغابرة من التاريخ،المليئة بمآسيها وبما فعله الدهر بأهلها، ينتهي إلى الحديث عن غدر الدنيا ببني المظفر، على نحو ما فعلت بغيرهم، إذ بذلك يؤكد قضية أساسية هي أن هؤلاء الذين مضوا لم يتوقف غدر الدهر عندهم، وإنما طال أيضا أولئك الذين كان يتقلب الشاعر في نعمائهم. ولذلك نجده يردّد عددا من الاستفهامات التي غرضها البلاغي،تعظيم أولياء نعمته. ويبدي من خلال ذلك اللوعة والحسرة على بني المظفر،سادة الحكام،وأرباب الفصاحة،وشجعان الوغى.

ونلحظ في آخر هذه المقطوعة مبالغة زائدة حين ألصق ببني المظفر أشياء هي لله، سبحانه وتعالى، مثل النفع والضر، و دفع الكوارث،وردع الآزفة [72]، وقمع الحوادث التي تعيا على القدر، وهي في الأصل خاصة بالمولى عز و جل. و لم يقع هذا الأمر من

---

[71] م.س.، ص 92.

72 الآزفة : القيامة. و قد ذكرت في قوله تعالى : "أزفت الآزفة" (النجم:57) .

الشاعر إلا لأنه خلع على القوم جليل الصفات التي تتساوى مع جلال الرزء،وجسامة المصاب.

وفي آخر هذه القصيدة يركز ابن عبدون على تأبين ثلاثة كانوا أعلام بني المظفر فيقول :

وَيْحَ السَّمَاحِ وَ وَيْحَ الجُودِ لوْ سلمَا   وحَسْرَةَ الدّينِ والدُّنيا عَلَى " عمر"
سقَتْ ثَرى الفَضْلِ و" العَبَّاس" هامية   تُعزى إليهِمْ سماحاً لا إِلَى المَطَرِ
ثلاثَةٌ مَا أرْتَقَى النَّسرانِ حيثُ رَقُوا   وكلُّ ما طَارَ مِنْ نسرٍ وَلَمْ يَطِرِ
ثلاثَةٌ ما رَأَى العَصَرَانِ مثلَهُمُ   فضلاً وَلاَ عُزّزا بالشَّمسِ والقمَرِ

فهو ينوّه بالمكانة التي كان أولئك الثلاثة يحتلونها، وهم : الملك عمر المتوكل، وولداه الفضل والعباس، فيدعي أنهم في رفعة، وسمو لا يرقى إليه أحد. ثم يبالغ في الإشادة بفضلهم فيدعي أنّ الشمس والقمر لا يضاهيانهم.

أينَ الجَلالُ الذِي عَمَّتْ مهابَتُهُ   قلوبَنَا وعيُونَ الأنجُمِ الزّهرِ
أينَ الإباءُ الذِي أرْسُوا قواعِدَهُ   على دعائِمَ مِنْ عزّ و مِنْ ظَفرِ
أينَ الوفَاءُ الذي أصْفَوا شَرائِعَهُ   فلَمْ يرِدْ أحدٌ منهَا علىَ كَدَرِ
كانوُا روَاسِيَ أرضِ اللهِ، منذُ مَضَوا   عَنهَا استطَارَتْ بمَنْ فيهَا و لم تقرِ
مَنْ لِي-ولاَ مَنْ- بِهِمْ إن عُطّلتْ سُننٌ   وأُخفِتَتْ ألسُنُ الأيّامِ و البشَرِ
...عَلَى الفضائلِ -إلاَّ الصَّبرَ- بَعْدَهُمْ   سَلاَمُ مُرتَقبٍ لِلأجرِ منتَظِرِ
يَرجُو عَسَى ولَهُ فِي أختِهَا أمَلُ   والدَّهرُ ذُو عُقَبٍ شَتَّى وذُو غِيَرِ

يبحث الشاعر، مستفهما مجلا معظما، عن قيم وفضائل عليا كانت متجسدة في عمر المتوكل وولديه الذين قتلهم المرابطون، ويشيد، متحسرا، بتلك الخلال التي فقدها الناس بفقدانهم. فهو يتساءل عن الجلال الذي كان يهابهم به الناس، وعن الإباء الذي أرسوا أسسه، وعن الوفاء الذي عاملوا الناس به، صافيا من غير كدر. ويضيف

إلـــى ذلك أنهم كانوا كالجبال التي تثبت الأرض لئلا تميد بمن فوقها. وهي دلالة على أنهم كانوا منبع استقرار ومصدر أمان. فلما رحلوا لم يعد هناك قرار، ولا بقي أمان.

ولم يجد ابن عبدون أخيرا ما يكفكف به دموعه على تلك الفضائل والشمائـــل وأصحابها، سوى الصبر واحتساب الأجر،وتعلقه بالرجاء والأمل.

ويختتم الشاعر القصيدة بما بدأها به، بحكمة جليلة لا تبليها الأيام، وهي أن الدهر قُلّب وذو غير، فوجب ألا نأمنه.

هكذا بكى ابن عبدون بني الأفطس ودولتهم. وحق له أن يبكي، لأن بكاء أوليـــاء النعمة من شيم أولي الهمم العالية. وإنه لدليل على أسمى الوفاء وأصدقه.

بعد هذه الجولة القصيرة بين رثاء الملوك ودولهم، تبين لنا أنه يمتاز في الغالب، على فنون الشعر الأخرى بالصدق، وسبب ذلك أن معظمه نابع من قلوب براهـــا الألم، وأحرقها الحُزن على نعم توقف مددها، وعطايا انقطع اتصالها، وعيش رغيـــــد زال وفني، وعلى ملوك كانوا يمثلون السيادة الأندلسية، فذلوا وهانوا. لقد كان إسقـــاط تلك الدول وخلع ملوكها، وإلحاق الأندلس بالمغرب، يمثل -في نظر جل الأندلسيين- اعتداء على سيادتهم الوطنية. لذلك كان الشعر الذي قيل في تأبين أولئك الملـــــوك ورثاء دولهم التي سقطت من أهم النصوص التي تمثل الاتجاه الوطـــــني فـــي الأدب الأندلسي.

وقد كان من حظ الاتجاه الوطني هنا ذلك الشعر الرقيق الصادق الخالي من النفـــاق والكذب، ذلك الشعر الذي قيل في الدول التي دالت والملوك الذين خلعوا. ولقـــــد يكذب الشاعر في وصف الحب ليرضي محبوبه، وقد ينافق و يتملق في المدح ليهز أريحية ممدوحه، ولكنه في رثاء دولته ، وبكاء ملكه،لا يمكن أن يكون إلا صادق الإحساس، جياش العاطفة. لقد تأثرت نفوس أولئك الشعراء بالحوادث التي أصابت دولهم و أزالت سيادتهم، فشكوا ذلك الألم، وتحدثوا عن تلك اللوعة، فجـــــادت

قرائحهم بذلك الشعر الباكي الحزين الذي يمثل قمة الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي خلال تلـــك الفترة.

4- الإشادة بمحاسن الأندلس :

كان الشاعر العربي قديما متأثرا بالبيئة التي يعيش فيها : يستوحي منها ألوان رسمه، وخيوط نسيجه، وموضوع فنه، ويصوغها في شعره صياغة تجعل قارئ ذلك الشعـــر- دون أن يطلع على قائله- يتعرف على الزمان الذي نظم فيه ذلك الشعر، و البيئة التي قيل فيها. ولقد وصف ذلك الشاعر الخيمة والفرس والسيف والناقة وما إليهـــا، لأنه كان يعيش في بيئة خشنة جافة جرداء قاحلة. ثم انتقل الشاعر العربي إلى بيئـــة أخرى، فتحول إلى إنسان ثان، ينظم شعرا آخر يكـــاد يكون غير الذي قاله من قبل. والسبب في ذلك هو أثر تلك البيئة التي يعيش فيها ويستنطقها، ويقتبس منها مـــادة أدبه، ويأخذ منها وسائل فنه.

وسأورد هنا بعض الأشعار التي قالها الأندلسيون في هذا القرن في الإشادة بمحاسن وطنهم فأقول : استقرأت ما وقع في يدي مما سيأتي ذكره من أشعار، فوجدت أنـــه يمكن أن يقسم إلى ثلاثة أقسام: شعر الطبيعة وما يندرج فيه، والأشعار التي قيلت في العمران كوصف القصور والمساجد وغيرها، والأشعار التي قيلت في المدن الأندلسية، أوفـــي الأندلس كلها.

ولن أطيل في الشرح والتحليل عند تطرقي لهذه العناصر الثلاثة، لأن النزعة الوطنية واضحة فيها، وهي لا تحتاج إلى تبيان. وسأكتفي بالإشارة إليها . ولا يدل ذلـــك الشعر إلا على انجذاب الشعراء الأندلسيين إلى وطنهم، ذلك الوطن الذي تعلقوا به أيما تعلق.

أ – الإشادة بالطبيعة :

لقد كان للمشارقة فضل السبق في شعر الطبيعة. وما من عصر يمر ، إلا ويكـــون فيه عدد من الشعراء ينظمون في هذا الموضـــوع. والأمر نفســـه كان بالنسبـــة إلى الأندلسيين،إذ أنهم اقتفوا أثر إخوانهم المشارقة ، لكنهم " فاقوهم في شعر الطبيعة كما كيفـــا" [73]. ومرد ذلك إلى أن الله -سبحانه وتعالى - قد منح الأندلس طبيعة جميلة، فهي ذات أرض مخضرة وتربة خصبة، وأنهار كثيرة، وهواء منعش معتدل، ومنتزهات قل وجود مثيلاتها...وإن تلك الطبيعة لتفتن الأفئدة، وتذهب بالعقول، وتفعـــــل في النفوس فعل السحر. وابن خفاجة أحد أولئك الذين سحرتهم تلك الطبيعة وجعلـــته يقول [74]:

يَـــا أَهْلَ أَندَلُسٍ لِلّهِ دَرُّكُـــمْ ... مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَـــــارْ

مَا جَنَّةُ الخُلْدِ إلاَّ فِي دِيَارِكُـــمْ ... وَلَوْ تَخَيَّرْتُ، هَذِي، كُنْتُ أَخْتَارْ

لَا تَخْتَشَوْا بَعْدَهَا أَنْ تَدْخُلُوا سَقَراً ... فَلَيْسَ تُدْخَلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّـــارْ

وهذه الأبيات يهتز لها الفؤاد ويطرب، وتأخذه نشوة عارمة. ذاك أن ابن خفاجة قد أشرب حب وطنه، وأخذ لبابه ماؤه المسكوب، وظله الممدود، وأنهاره و أشجاره. قد تمثل بلاده جنة الخلد، ذلك المكان الأبدي الذي لا يخرج الداخل فيه، منه أبـــدا. وقد خرج الشاعر إلى معنى طريف حقا حين ذهب يطمئن مواطنيه بعدم الدخـــول إلـــى النار. وقد تعود مبالغته في هذه الأبيات إلى حبه الشديد للأندلس وإعجابـــه بطبيعتها الجميلة، حيث اعتبرها جنة الخلد التي هي مستقر كل إنسان مؤمن، وحب الوطن من الإيمان.

وشعر الطبيعة في الأندلس ، هو الغالب والسائد. وحسبنا أن نتصفح أي ديـــوان

---

[73] عبد العزيز عتيق : م.س.، ص 291.

[74] ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة، بيروت: دار صادر و دار بيروت، د.ط.، 1961، ص 117.

لأي شاعر أندلسي لنجد فيه أثر الطبيعة واضحا جليا. ولا أريد أن أفيض في الحديث عنه في هذا المقام، لأنه طويل و متشعب. ويكفي أن أؤكد أن شعر الطبيعة في هـــذا العصر، يعكس شدة ارتباط الأندلسيين بوطنهم وتعلقهم ببلادهم. فالشاعر لا ينفـك يتغنى بحب الأندلس ويلهج به لسانه، ويشيد بمحاسن بلده، ويعبر عن التصاقه بتربته ، ويفضله على سائر البلدان. وكان هذا الالتصاق بالطبيعة والبيئة الأندلسية مرآة تعكس الشعور الوطني الذي يختلج في نفـوس الأندلسيين.

على أنّ هناك قضية أثارها الدكتور "شوقي ضيف" حيث يقول[75]: " ونحن لا نبالغ إذا قلنا بأنّ شخصية الأندلس في الأدب العربي ليست من القوة كما ينبغي، وخاصـة إذا أهملنا جانب البيئة، فمما لا شك فيه أن هذا الجانب أثر أثرا واضحا في طبيـعة الأدب الأندلسي شعره ونثره. غـير أنّنا إذا تركنا هذا الجانب لم نكد نجد شيئا آخر، فقد كانت الكتلة الأندلسية تنساق نحو تقليد المشرق بكلّ ما فيه. وحتى شعر الطبيعة عندهم لم يأتوا فيه بجديد سوى الكثرة". إلى أن يقول : " وما أراني أبعد إذا قلت : إنّ الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد".

وهذا موقف نقدي متعصب و مجحف، لأنه يلغي كلية – أويكاد - وجـود أدب يسمى " الأدب الأندلسي". وإلا فما معنى قوله : " تنساق نحو تقليد المشرق بكل ما فيه" ؟ فلو كان الأمر كذلك لما سموا هذا الأدب كذلك. والحقيقة أن تلك التسمية لا تعـني فقط أن البقعة الأندلسية مكانه، بل لأنه يمتاز بخصوصيات وسمات أندلسية.

وأعظم من ذلك إجحافا – وهو الذي يعنيني- أن الدكتور شوقي ضيف اعتبر كل ما قيل في شعر الطبيعة لم يأت فيه الأندلسيون بجديد سوى الكثرة.وكأنه يريد أن يقول: إنّ شعر الطبيعة نموذج مكرر لما كان عليه في المشرق . وإذا كان الأمر كذلك فلِـم يتعب الدارسون – وهو منهم- أنفسهم في دراسة شيء معاد مكرر،كـان عليهـم أن يضربوا عنه صفحا ؟ الحقيقة هي أنهم ما فعلوا ذلك إلا لإدراكهـم

---

[75] الفن و مذاهبه في الشعر العربي، القاهرة : دار المعارف، الطبعة السابعة، 1969، ص 412.

خصوصية شعر الطبيعة في الأندلس.ولذلك فتنوا به وأعجبوا، وانكبوا عليه انكباب النحل على الأزهارليستخرجوامنـــــه شهدا فيه شفاء للناس.

إن الشعر الأندلسي فيه – حقا- بعض التقليد والمحاكاة لشعر المشارقة، لكن ذلك ليس إلى حد الذوبان الكلي. والدكتور شوقي ضيف اعترف بأن شعر الطبيعة كثـــير عندالأندلسيين. ومعنى ذلك أن هذه الكثرة فيها شيء من التجديد.

وقد ينصف الأندلسيين في هذه القضية ويعطيهم حقّهم قول الدكتور عبد العزيـــز عتيق،وهو من دارسي الأدب الأندلسي[76]: " والواقع الذي شاهده من نفســـــه أن الأندلسيين قد فاقوا المشارقة في شعر الطبيعة كمًّا وكيفا، وتوسعوا ونوعـــــوا فـــي موضوعاته توسعا فاق كل اعتبار. كما أنّهم كانوا فيه أكثر براعة و ابتكارا وتجديدا وتصويرا...".ثم يقول : "هذه البقعة الكريمة من الأرض والغنية بشتى المناظر والمشاهد التي تأســـر الطرف، وتستهُوي الأفئدة وتستثير المشاعر والعواطف، وتستصبي الخيال، كان لـــها الأثر القوي في عقول أبنائها وأخلاقهم وأمزجتهم ورهافة حسهم، وصفاء أخيلتهم".

وهذه شهادة خبير بأن شعر الطبيعة في الأندلس كان له من الخصوصيّات والمميزات ما جعله أندلسيّا.

وهذان باحثان آخران يؤكدان ما قاله الدكتور عبد العزيز عتيق، وهما : " حســـن جاد حسن" و" محمد عبد المنعم خفاجة"، حيث يقولان[77]: " و أخيرا نستطيـــع أن نقول إن للأندلسيين شخصية واضحة في شعرهم استمدوها من بيئتهم، وتجاوبوا فيها مع طبيعة بلادهم التي كانت مصدر إلهامهم وأفق خيالهم".

---

[76] م.س.، ص 291.

[77] الأدب العربي في الأندلس، مصر : المطبعة المحمدية بالأزهر، الطبعة الأولى، د.ت، ص 78.

وقد يؤكّد ذلك قول " مصطفى صادق الرفاعي"، متحدّثا عن الشعر الأندلسي [78]: " يمتاز بتجسيم الخيال النحيف، وإحاطته بالمعاني المبتكَرة التي توحي بها الحضارة، والتصرّف في أرقّ فنون القول، واختيار الألفاظ التي تكون مادّة لتصوير الطبيعة وإبداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي...".

ونختم هذه الشواهد بكلام رائع عذب للأستاذ بطرس البستاني، يقول فيه مشيرا إلى النزعة الوطنية للأندلسيين التي عبر عنها ذلك الشعر[79] : " إذا شئت أن تلتمس إبداع شعراء الأندلس وافتنانهم ودقّة وصفهم، وجمال تصويرهم، وحلاوة معانيهم، وخصب خيالهم، فاسمعهم يذكرون الطبيعة الناعمة الناضرة، وينعتون زينتها وحلاها، وأصباغها وألوانها...وما إلى ذلك من مفاتن الطبيعة والعمران.والأندلسيّ أشغف الناس بالطبيعة...وإذا شئت أن تلتمس حبّ الوطن في الشعر العربي، فاطلبه عند شعراء الأندلس...وليس بينه (أي الشعر الأندلسيّ) وبين الشعر العباسي شبه من هذه الناحية، لأن العاطفة الوطنية ضعيفة في شعر المشارقة، لا تكاد تلمح لها خيالا إلا في الندرى... وحقّ لأهل الأندلس أن يتعبّدوا لوطنهم، فإن هذا الصقع الجميل جدير بأن يمتلك القلوب ويستهويها." إلى أن يقول :" فإن قرطبة وإشبيلية وغرناطة كانت أبلغ أثراً في مخيلات الشعراء من الشام والعراق ومصر.".

أفبعد هذا كلّه نركن إلى قول شوقي ضيف :" وحتى شعر الطبيعة عندهم لم يأتوا فيه بجديد سوى الكثرة...فصورته كله بما فيها من أفكار و أخيلة وأساليب هي الصورة المشرقية."؟ !

---

[78] م.ن.

[79] بطرس البستاني : م.س.، ص 78-79.

ويمكن القول، على ضوء ما ذكر،بأن شعر الطبيعة في الأندلس قد شغل الشعـــراء جميعا، فكلهم تحدث عن طبيعة الأندلس، ووصف محاسنها، بل وأشاد بجمالها ووازنها بغيرها، وقد تجلت فيه نزعتهم الوطنية على نحو واسع.

ب- الإشادة بالعمران :

لم تكن إشادة شعراء الأندلس بالعمران أقل من تنويههم بالطبيعة، إذ أنه حظي، هو كذلك باهتمام كبير من لدن الشعراء؛ فإذا كانت الطبيعة الأندلسية قد أدركتـــها مسحة سماوية، جعلت منها جنة الله في أرضه، فإن العمران بشتى صنوفه قد شكلتـــه لمسة بشرية، ومثّل بذلك حضارة فاقت في بعض جوانبها ما كـــان في المشـــــرق.

ويمكن أن أقسم هذا العنصر إلى قسمين وهما : التنويه بالقصور والدور، والإشادة بالجوامع.

1ـ التنويه بالقصور والدور:

لقد شكّل الحديث عن القصور حيزا كبيرا في وصف العمران، إذ أن الحكـــام والخلفاء اهتموا بهذا الجانب اهتماما وصل إلى حد المبالغة. ولولا أن بعض آثار هذه القصور وأطلالها موجود إلى حد الساعة،لقلنا:إنّ ذلك كان من وحي الخيـــال. فالأندلسيون اعتنوا ببنائها وأبدعوا في زخرفتها، وكانوا يصنعون بداخلها التماثيـــل المنقوشة بالذهب والفضة، كما أقاموا تماثيل الأسود والزرافات على حافة الفوارات. وها هو المعتمد –مثلا- بنى قصرا تدل عظمته على عظمة بانيه، وهو القصر الذي سماه " المبارك"، ووصفه شاعره ابن حمديس وصفا رائعا فقال [80]:

وَيَا حَبَّذَا دَارٌ قَضَى اللهُ أَنَّـــهَا ... يُجَدِّدُ فِيهَا كُلَّ عِـــــزٍّ وَلَا يُبْلَى

مُقَدَّسَةٌ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَلِيمَـــهُ ... مَشَى قدماً في أَرْضِهَا خَلَعَ النَّعلاَ

...إِذَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا خِلْتَ أَنَّـــهَا ... تَقُولُ بِتَرْحِيبٍ لِدَاخِلِهَا : أَهْـــلاَ

---

[80] ابن حمديس : ديوان ابن حمديس، صححه وقدم له إحسان عباس، بيروت : دار صادر، دار بيروت، د.ط.، 1960، ص 378 .

...نَسِيتُ بِهِ إِيوَانَ كِسْرَى لأَنَّنِي أَرَاهُ لَهُ مَوْلَى مِنَ الْحُسْنِ لَا مِثْلَا
كَأَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ لَمْ تُبِحْ مَخَافَتَه لِلْجِنِّ فِي صُنْعِهِ مَهْلَا
تَرَى الشَّمْسَ فِيهِ لِيقَةً تَسْتَمِدُّهَا أَكُفٌّ أَقَامَتْ مِنْ تَصَاوِيرِهَا شَكْلَا
لَهَا حَرَكَاتٌ أُودِعَتْ فِي سُكُونِهَا فَمَا تبعت(*) فِي نَقْلِهِنَّ يَدٌ رِجْلَا
وَلَمَّا عَشِينَا من تَوَقُّدِ نُورِهَا تَخِذْنَا سَنَاهُ فِي نَوَاظِرِنَا كُحْلَا

وقال أيضا قصيدة أخرى يصف فيها أحد القصور المغربية[81] :

اعمُرْ بقصْرِ الملكِ نَادِيكَ الَّذِي أَضْحَى بمجْدِكَ بَيْتُه مَعْمُورَا
قَصْرٌ لَو انَّكَ قدْ كَحلْتَ بنُورِهِ أَعْمَى لعَادَ إِلَى المقَامِ بَصِيرَا
وَاشْتُقَّ مِنْ مَعْنَى الحَيَاةِ نَسِيمُهُ فيكاد يحدث للعظام نشورا
وَلَو أَنَّ بِالإِيوَانِ قُوبِلَ حُسْنُهُ مَا كَانَ شَيْئاً عِنْدَهُ مذْكُورا
...ومضَتْ عَلَى الرُّومِ الدُّهُورُ وَمَا بَنَوْا لملُوكِهِمْ شَبَهاً وَلَا نَظِيرَا
أَذكرتَنَا الفرْدَوْسَ حِينَ أريْتَنَا غُرَفاً رفعْتَ بناءَهَا وقُصُورا
....وَالمذنبُونَ هُدُوا الصِّرَاطَ وَكَفَّرَتْ حَسَنَاتُهم لِذُنُوبِهِم تكْفِيرَا
...وَظَنَنْتُ أَنِّيَ حَالِمٌ فِي جَنَّةٍ لَمَّا رأيتُ المُلْكَ فِيه كَبِيرَا...

إلى أن يذكر بركة في القصر عليها أشجار من ذهب وفضة ويخرج المـاء من فروعها، ويذكر أسودا موجودة على حافتها قاذفة هي كذلك من أفواهها الميـاه، فيقول :

أُسُدٌ كَأَنَّ سُكُونَهَا مُتَحَرِّكٌ فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرَا
...فَكَأَنَّمَا سَلَّتْ سُيُوفَ جَدَاوِلٍ ذَابَتْ بِلَا نَارٍ فَعُدْنَ غَدِيرَا
...شَجَرِيَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ نَزَعَتْ إِلَى سِحْرٍ يُؤَثِّرُ فِي النُّهَى تَأْثِيرَا
...وَكَأَنَّمَا فِي كُلِّ غُصْنٍ فِضَّةٌ لَانَتْ فَأُرْسِلَ خَيْطُهَا مجْرُورا

---

81 م.ن.، ص 545.

* الصواب : تعبت

وإذا كان ابن خفاجة جنّان الأندلس وشاعر طبيعتها، فإن ابن حمديس وصـــاف قصورها ودورها. وقد أحسن الوصف في ذلك أيما إحسان.

والملاحظ أن أغلب الشعراء الأندلسيين اتخذوا من جنة الخلد نموذجا أعلى يقارنون به جنانهم الأرضية،وذلك لما توحيه الجنة من النعيم الأبدي و الجمال الذي أبدعـــه الخالق جلّ و علا إبداعا يفوق كل إبداع.

وقد فضل ابن حمديس هذا القصر الفخم على قصري "الخورنق" و"السدير"، اللذين أبدعت فيهما اليد البشرية وتفنّنت.

ولقد علّق المقري على هذه الأبيات بقوله [82]:" لم أر لهذه القصيدة من نظـير، في معناها اليانع النضير، ولفظها العذب النمير، الذي شمر فيه قائلها على ساعد الإجـادة أي تشمير...". وهي شهادة من خبير بالأدب متذوق لجيد الشعر، لشاعرية ابـــن حمديس، وسبقه في مجال وصف القصور والدور.

و لم يتخلّف ابن دراج القسطلي في هذا المجال. ولقد خلف ما يجعله من المبرزين فيه. ومن الأمثلة على ذلك وصفه "دار السرور" بالزاهرة حيث قال [83]:

دَارُ السُّرُورِ المُعْتَلِي شُرُفَاتُـــــهَا ... فَوْقَ النُّجُومِ الزُّهْرِ فِي اسْتِعْلاَئِها

وَكَأَنَّ غُرَّ المُزْنِ لَمَّا جَادَهَـــــا ... نَشَرَتْ عَلَيْهَا مِن نَفِيسِ مُلاَئِهَا

وَكَأَنَّ رَيْحَانَ الحَيَاةِ وَرَوْحَهَـــــا ... مُسْتَنْشَقٌ مِنْ نافِحَاتِ هَوَائِهَـــا

...قَامَتْ على عُمُدِ الرِّخَامِ كَمِثْلِ مَـــا ... نُسِقَتْ نُجُومُ النَّظْمِ فِي جَوْزَائِهَا

...وَكَأَنَّمَا اخْتَارَ السُّرُورُ مَكَانَـــــهَا ... وَطَناً فَحَلَّ مُخَيِّمـــــاً بِفِنَائِهَـــا

والأبيات شارحة نفسها، وهي مملوءة بالتشبيهات الجميلة، فهو يذكر أن شرفـات "دار السرور" قد فاقت في علوها النجوم الزهر وتجاوزتها، وكأن الأمطار التي سقتـها

---

[82] م.س.، 494/1.

[83] ابن الكتاني: كتاب التشبيهات من أشعار الأندلس، تحقيق : إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، د.ط.، د.ت.، ص 70

ملاءة نفيسة نُشرت عليها، وكأن أيدي السعود هي التي أبدعتها، وكأن عطور الحياة من هوائها، وكأن السرور اصطفاها فاستوطنها...

والملاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر بعث السرور في شيء جامد غير متحرك. ولولا بعض الأبيات لقلنا إن القصيدة قيلت في شيء له نفس وروح. وما ذلك إلا لأن الدار أخذت بلب الشاعر وأثارت إعجابه بها وبما أُبدع فيها، فأبدع هو كذلك وأحسن.

ويقف المتتبع لتاريخ العمران بالأندلس على أن القصور كانت هناك كثيرة ومتنوعة شكلا ومساحة ورونقا، إذ كان الأمراء والملوك والخلفاء يتخذون لنفوسهم قصورا خاصة ينشدون فيها الراحة والمقام الحسن، ومن ثم كانوا يتفاخرون بها ليُظهر كل واحد منهم للآخر سعة ملكه وبسط يده. وقد أكثر الشعراء وصفها في قصائد كانت في الأصل تصبّ في غرض المدح، ويكفي دليلا على كثرتها أن المعتمد بن عبّاد كان له غير ما قصر منها "المبارك" و"الوحيد" و"الزاهي". يقول في أبيات وهو في أسره بأغمات، ذاكرا تلك القصور [84]:

بَكَى الْمُبَارَكُ فِي إِثْرِ ابنِ عَبَّادِ ... بَكَى عَلَى إِثْرِ غِزْلاَنَ وَآسَادِ

بَكَتْ ثُرَيَّاهُ لاَ غُمَّتْ كَوَاكِبُهَا ... بِمِثْلِ نَوْءِ الثُّرَيَّا الرَّائِحِ الْغَادِي

بَكَى الْوَحِيدُ، بَكَى الزَّاهِي وَقُبَّتُهُ ... وَالنَّهْرُ وَالتَّاجُ، كُلٌّ ذُلُّهُ بَادِي

مَاءُ السَّمَاءِ عَلَى أَفْيَائِهِ دُرَرٌ ... يَا لُجَّةَ الْبَحْرِ دُومِي ذَاتَ إِزْبَادِ

ويقول في أخرى [85]:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... أَمَامِي وَخَلْفِي رَوْضَةٌ وَ غَدِيرُ

بِمُنْيَةِ الزَّيْتُونِ مُورِثَةِ الْعُلاَ ... يُغَنِّي حَمَامٌ أَوْ تَدُنَّ طُيُورُ

بِزَاهِرِهَا السَّامِي الَّذِي جَادَهُ الْحَيَا ... تُشِيرُ الثُّرَيَّا نَحْوَنَا وَنُشِيرُ

---

[84] المقري : م.س.، 274/4.

[85] م.ن.، 275/4..

وَيُلْحَظُنَا الزَّاهِيْ وَسَعْدُ سُعُـــودِهِ، غَيُوْرَيْنِ، وَالصَّبُّ المحبّ غَيُـــورُ

ويظهر أن قصري المعتمد "الزاهر" و"الزاهي" كانا من بين القصور الجميلة الفخمة التي كان ينشد فيها الراحة وطمأنينة النفس، لذلك فقد تكرر ذكرهما في بعـــض قصائده. وهو في المقطوعة التي سبقت يتمنى أن يرجع إلى سالف عهده، حيث الحياة الرغيدة في قصريه، ولو ليلة واحدة، وذلك ما لم يتحقق له.

وهذا الشاعر "ابن عمار "، الذي كان وزيرا للمعتمد، يبدي فرحته وسروره،عندما بات ليلة مع جماعته،عندما لفظته الديار إلى التشرد،بقرب أحد القصور التي بناهـــا الأمويون في الأندلس يسمى "دمشق" فيقول :

كُلُّ قَصْرٍ بَعْدَ الدِّمَشْـــــقِ يُذَمُّ فِيهِ طَابَ الجَنَى وَلَذَّ المشَـــــمُّ

مَنْظَرٌ رَائِقٌ وَمَـــــاءٌ نمير وثَرَى عَاطِرٌ وَقَصْرٌ أَشَـــمُّ

بِتُّ فِيهِ وَاللَّيْلُ وَالفَـــجْرُ عِنْدِي عَنْبَرٌ أَشْهَبٌ وَمِسْكٌ أَحَـــمُّ

2- وصف الجوامع والمساجد:

على الرغم من أن المساجد والجوامع آنذاك كانت منتشرة انتشارا كبـــيرا –إذ أن قرطبة لوحدها كان بها نحو سبعمائة مسجد، وبها الجامع الأعظم الذي فاق كل تصور في بنائه وزخرفته– فإنني لم أقف في هذا القرن على أبيات قيلت في هذه المساجـــد الكثيرة إلاّ ما قيل في جامع قرطبة الأعظم، لشاعر مجهول كان بصدد الحديث عـــن قرطبة،حيث قال[86] :

بِأَرْبَعٍ فَاقَتِ الْأَمْصَارَ قُرطُبَـــةٌ مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ الْوَادِي وجَامِعُهَـــا

هَاتَانِ ثِنْتَانِ وَالزَّهْرَاءُ ثَالِثَـــةٌ وَالْعِلْمُ أَعْظَمُ شَيْءٍ وَهْوَ رَابِعُهَـــا

ولعل ذلك راجع إلى أن أغلب الأشعار التي قيلت في الطبيعة والقصور والـــدور الأندلسية كانت ممزوجة بأغراض أخرى من الشعر اللاهي،كالغزل والخمرة والمدح

---

[86] المقري: م.س.، 153/4، ويذكر في مكان آخر(ص 116) أن الأبيات لمحمد بن عطية المحاربي وهو من شعراء هذا القرن.

وما إليها، وهذه الأغراض، لا يليق بالشاعر أن يجمع بينها وبين وصف بيوت الله، إذ أن المساجد أشرف من الطبيعة والقصور والدور، والغزل والخمرة والمدح وما إلى ذلك مما لا يرقى إلى مقام المساجد والجوامع.

ج- **الإشادة بالمدن الأندلسية :**

لم يتوقف الأندلسيون عند وصف الطبيعة الساحرة والقصور والدور الفاتنة، وإنما برعوا كذلك في وصف بلادهم الجميلة بعامة، ووازنوا بينها وبين بلاد المشرق أيضا. وإذا كان خلفاؤهم وملوكهم وأمراؤهم قد أطلقوا على أنفسهم أسامي الحكام المشرقيين، وشبهوا أكابر شعرائهم بأكابر شعراء المشرق، فإنهم كذلك أطلقوا على مدنهم أسماء أجمل المدن الشرقية ليفاخروهم بها، بل إنهم فضلوها على كل ما سواها.

لقد كان لكل مدينة من المدن الأندلسية جمال اختصت به، وعبيق مسك يميزها عن غيرها، وكان كل نازل بها من الشعراء يعشقها ويتعلق بها. أما من يرجع أصله إليها ، فإنه تأخذه الحمية إلى التعصب لها، حيث لا يرى في غيرها من البلدان والمدن الأخرى ما يشبهها.

ومن الأمثلة على ما قالوه في الإشادة بمدن الأندلس : قول أبي الفضل بن شرف في مدينة "برجة" واصفا جمال طبيعتها[87] :

إِذَا جِئْتَ بُرْجَةَ مُسْتَوفِزًا ... فَخُذْ فِي الْمُقَامِ وَخَلِّ السَّفَرْ

رِيَاضٌ تَعَشَّقَهَا سُنْدُسٌ ... تَوَشَّتْ مَعَاطِفُهَا بِالزَّهَرْ

مَدَامِعُهَا فَوْقَ خَدِّيْ رُبَىً ... لَهَا نضرة فَتَنَتْ مَن نَظَرْ

وَكُلُّ مَكَانٍ بِهَا جَنَّةٌ ... وَكُلُّ طَرِيقٍ إِلَيْهَا سَقَرْ

ويقول فيها أيضا[88]:

---

[87] يورد المقري البيتين الأول والرابع، ويكتفي بـ "قال بعضهم" دون ذكر القائل(ينظر: النفح، 186/1). أما هنري بريس فينسبها إلى: أبي الفضل بن شرف. ينظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص 108.

[88] (2) المقري: م.س.، 151/1

حُطَّ الرِّحَالَ بِبِرْجَـــةْ وَارْتَـــدْ لنفْسِكَ بَهْجَـــهْ
فِي قَلْعَةٍ كَسِـــلاَحٍ وَدَوْحَـــةٍ مِثْلِ لُـــجَّهْ
فَحِصْنُهَا لَكَ أَمْـــنٌ وَرَوْضُـــهَا لَكَ فُرْجَـــهْ
كُلُّ البِلَادِ سِـــوَاهَا كعُمْـــرَةٍ وَهْيَ حَجَّـــهْ

فالشاعر يشبهها بالجنة، ويدعو كل إنسان أن يقيم فيها ويترك السفر إلى غـــيرها، وهو نوع من الإغراء الذي سلكه بعض الشعراء، إذ زينوا بلدانهم وحسنوها لغيرهم، كما كانوا يزينون أشعارهم بألوان البديع والبيان وما إلى ذلك من ضروب الصنعة البلاغية.

ومما يدل على أن حماس الشاعر لتلك البلدة وتعصبه لها كان مبالغا فيهما، ما يشير إليه في مقطوعته من صعوبة الوصول إليها، إذ أن بلدة "برجة"، كانت الطريق إلـــيها سيئة وذات خشونة تتعب السائر إليها. وهي مدينة تقع في ضيعة من إقليم "المرية" في الجنوب الغربي منه [89].

وهذا شاعر آخر اسمه "النحلي البطليوسي" يقول في "المرية" التي استضيف فيها يوما ثم طُرد منها [90] :

رِضَـــا ابْنِ صُمَادِحٍ فَارَقْتُـــهُ فَلَمْ يُرْضِنِي بَعْدَهُ الْعَـــالَمُ
وَكَانَتْ مَرِيَّتُهُ جَنَّـــــــةً فَجِئْتُ بِمَا جَـــاءَهُ آدَمُ

إن الشاعر قد تمثل نفسه آدم -عليه السلام- عندما كان في جنة الخلد وأُهبط منها إلى الأرض بسبب عصيانه، وتمثل مدينة "ألمرية" التي هرب منها خوفا من المعتصم بن صمادح جنة الخلد.

إن إعجاب الشعراء ببلادهم ألهاهم -إلى حد ما- عن أن يقولوا شعرا جيدا، حيث نلمس في بعض قصائدهم شيئا من البرودة والجفاف، فلا أثر فيه للشاعرية الفيّاضـــة.

---

[89] ينظر: هنري بريس : م.س.، ص131.

[90] المقري: م.س.، 9/4.

وقد غلبت عليه البساطة والسطحية. ونلمح هذا جليا في الأبيات التي سبقت لابن شرف، وفي التي قالها الشاعر المجهول في مدينة قرطبة، وقد سبق ذكرها أيضا، وهي :

بأربعٍ فَاقَتِ الْأَمْصَارَ قُرْطُبَةٌ ... مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ الْوَادِي وَجَامِعُهَا

هَاتَانِ ثِنْتَانِ وَالزَّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ ... وَالْعِلْمُ أَعْظَمُ شَيْءٍ وهْوَرابعها

فليس في البيتين من جمال سوى تعبير الشاعر عن مدى محبته لوطنه وتفضيله إياه على سائر الأمصار الأخرى بأربعة أشياء فقط. وهو حصر وتقليل لمزايا هذه المدينة. وهو أمر غير لائق. وكأنه يقول : إن قرطبة بكل ما فيها قد فاقت البلدان الأخرى بأربعة أشياء ليس غير.

وأما مدينة غرناطة فإنها لم تثر قرائح الشعراء إلا في عصر الطوائف، فهذا شاعر يقول فيها [91]:

غَرْنَاطَةُ مَا لَهَا نَظِيرٌ ... مَا مِصْرُ مَا الشَّامُ مَا الْعِرَاقُ

مَا هِيَ إِلَّا الْعَرُوسُ تُجْلَى ... وَتِلْكَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّدَاقِ

يرى هذا الشاعر أيضا أن غرناطة لا تشبهها أي مدينة من المدن المشرقية، وقد أشار منها إلى مدن مصر والشام والعراق على الرغم من أن هذه البلدان كانت ذات شأن كبير، بل زعم أنها عروس جميلة، وتلك البلدان مهرها. وفي ذلك رفع من قدر مدينته، وتقليل من شأن غيرها.

وقد تحمس بعض الشعراء لطليطلة فقال [92]:

زَادَتْ طُلَيْطِلَةٌ عَلَى مَا حَدَّثُوا ... بَلَدٌ عَلَيْهِ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ

اللهُ زَيَّنَهُ فَوَشَّحَ خَصْرَهُ ... نَهْرُ الْمَجَرَّةِ وَالْغُصُونُ نُجُومُ

إن هذه المدينة أصبحت في نهاية هذا القرن عاصمة لمملكة "بني ذي النون". وقد حاول هؤلاء أن ينافسوا بها بشدة قرطبة وإشبيلية على عظمتها. وهذا الشاعر وصف

---

[91] المقري: م.س.، 184/1.

[92] م.ن..، ص 170.

موقعها الفريد، حيث تقع فوق رابية عالية، يطوّقها نهر المجرة، والغصون لها نـــــجوم تتلألأ.

ولم يحتفل الأندلسيون بالمدن وحدها، وإنما اهتموا كذلك بالجزر، فهذا ابن اللبانة، المذكور سابقا، يتحدث عن جزيرة "ميورقة" فيقول فيها[93]:

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الحَمَامَـــــةُ طَوْقَهَا   وَكَسَاهُ حلّةَ رِيشِهِ الطَّـــــاوُوسُ
فَكَأَنَّمَا الْأَنْهَارُ فِيهِ مُدَامَـــــــةٌ   وَكَأَنَّ سَاحَاتِ الدِّيارِ كُـــؤُوسُ

كان الذي يحكم منطقة "دانية" آنذاك هو الأمير "مبشّر العامري" الذي كان يجزل العطاء لابن اللبانة، و"ميورقة" هي إحدى جزر "دانية". وقد وضع الشاعر أمامنا لوحة أبدع في رسمها وتفنن في زخرفتها، فشبه ما يحيط بميورقة بطوق الحمامة، وما يكسو أرضها من أعشاب وأزهار بريش الطاووس، ثم شبه الأنهار التي تصب فيها بالشراب، وساحاتها بالكؤوس التي يصب فيها ذلك الشراب. إنها للوحة جميلة حقا، لا تقع إلا لوصّاف بارع !

ويقول في موضع آخر عند مدحه الأمير "مبشّرا"[94]:

وَغَمَرْتَ بِالْإِحْسَانِ أَرْضَ مَيُورقَـــةٍ   وَبَنَيْتَ مَـــا لَمْ يَبْنِهِ الْإِسْكَنْدَرُ

وعلى الرغم من أن الشاعر قال : إن الأمير بنى في ميورقة ما لم يبنه الإسكنـــدر، فإنني لم أعثر على نصوص شعرية تدل على قوله غير الذي ذكرته. وربما يكون ذلك من جملة ما ضاع من الشعر، أو أن الشعراء لم يهتموا بأمر الجزر كاهتمامهم بالمدن الأندلسية، أو أن هذا الشعر مغمور يصعب الوصول إليه . وكل الاحتمالات واردة.

ومن الجزر التي نالت إعجاب الشعراء، جزيرة "شقر" هذه المنطقة التي امتـــــازت بكثرة خضرتها وجمال طبيعتها، وهي مسقط رأس الشاعر العلم " ابن خفاجة" الذي يقول فيها[95]:

---

[93] م.ن.، ص 169.

[94] المقري: م.س.، 169/1.

[95] ابن خفاجة : م.س.، ص 295.

بَيْنَ شُقْرٍ وَمُلْتَقَى نَهْرِيهَــا حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَا الأَمَانِي عَصَاهَـا
وَيُغَنِّي المَكَّاءُ فِي شَاطِئَيْهَــا يَسْتَخِفُّ النُّهَى فَحَلَّتْ حُبَاهَـا
عِيشَةٌ أَقْبَلَتْ يُشَهَّى جَنَاهَـا وَارِفٌ ظِلُّهَا ، لَذِيذٌ كَرَاهَـا

فالأنهار تلتقي في نقطة واحدة، وطائر " المكّاء " يغني ويشدو على شاطئي الجزيرة، وظل وارف، وكرى لذيذ، كل هاته العناصر شكلت وطنا يُستطاب فيه العيش الهنيء، ويُستلذّ المُقام الشهيّ.

وآخر ما أختم به هذه الزيارة للمدن الأندلسية أبيات قالها شاعر مجهول في مدينته شاطبة الجميلة ومتنزّهاتها، وهي[96] :

نِعْمَ مُلْقَى الرَّحْلِ شَاطِبَــةٌ لِفَتًى طَالَتْ بِهِ الرِّحَــلُ
بَلْدَةٌ أَوْقَاتُهَا سَحَــرٌ وَصَبًا فِي ذَيْلِهِ بَلَــلُ
وَنَسِيمٌ عَرْفُــهُ أَرِجٌ وَرِيَاضٌ غُصْنُهَا ثَــمِلُ
وَوُجُوهٌ كُلُّهَــا غُرَرٌ وَكَلَامٌ كُلُّهُ مَثَــلُ

إن بلدة كشاطبة، كل أوقاتها سحر وسمر، ومنها يفوح نسيم رائحته أريجة، وبها رياض تتمايل أغصانها تمايل السكران الثمل. وسكانها وجوههم وضاءة كالغرر، وكلامهم كله أمثال وحكم – يحق للمسافر أن يحط رحاله بها ويطيل فيها المقام، إن لم يتخذها وطنا ينسيه وطنه !

إن هذه الإطلالة الخفيفة على بعض المدن الأندلسية لم تكن سوى نزهة، أردت بها أن أستريح من تعب بناء القصور والعمران، لأنه من المستحيل أن أتتبع كل المدن الجميلة التي كانت بالأندلس، والتي أشاد بها الشعراء.

---

[96] المقري: م.س.، 186/1.

وإن الحديث عن الطبيعة الأندلسية برياضها وأشجارها وأنهارها، وعن تشـــييد القصور وزخرفتها، والإبداع في الدور وتنميقها،والإشادة بالمدن الجميلة وضواحيها ومتنزّهاتها وشكلها الهندسي الرائع،والتنويه بالجزر الجميلة - لممّا يدلّ على إعجاب الأندلسيين ببلادهم وحبّهم لها، فقد رأوا الأندلس عروسا بين البلدان، هاموا بحبها وعشقوها عشقا جنونيا، و إن شعرهم في ذلك ليحمل أسمى العواطف الوطنية.

5- الحنين إلى الأوطان :

إذا ابتعد إنسان عن وطنه وأقاربه وأصدقائه إلى مكان آخر، وطالت مدة ذلك الابتعاد، أحس بالغربة عن وطنه وازداد ميله إليه، وشعر بالحنين إلى أهله، واتصـــل انشغاله بهم.

وإذا ما قرأنا قوله تعالى:[97] (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ) ، يظهر لنا أنّ المولى -عزّ وجلّ -عطف الخروج من الديار وترك الأوطان على قتل النفس، أو ما يُصطلَح عليه حاليا بالانتحـــــار، لأن خروجهم من ديارهم نظيرُ قتلهم لأنفسهم.

ولا غضاضة في الحنين إلى الأهل والأوطان، بل هو من رقّة القلب وعلامـــــات الرشد، وذلك لما فيه من الدلائل على كرم الأصل وتمام العقل[98].

وإذا كان المشارقة قد سبقوا إلى النظم في شعر الحنين، فإن الأندلسيين ما تخلفوا عن ركبهم أبدا. ولا نغالي إذا قلنا إنهم زادوا على المشارقة وفاقوهم، وخاصة في بـــاب الحنين إلى الأوطان، لأن بلادهم الأندلس عاشت ظروفا غير التي كانت في المشـــرق، فقد كان العدو ينقضّ عليهم من كل جانب، حيث اضطر ذلك كثير منـــهم إلى أن يفارقوا مدنهم التي وُلدوا فيها.

---

[97] سورة النساء، الآية 66.

[98] ينظر : عبد العزيز عتيق: م.س.، ص 269.

ومن يتصفح مصادر الأدب الأندلسي يجد أن هناك أربعة من الشعراء الأندلسيين قد مثلوا هذا اللون من الشعر في القرن الخامس الهجري. وهؤلاء الأربعة هم : ابـــــن زيدون، والمعتمد بن عباد، وابن حمديس،وابن خفاجة. وإذا كنا نجد شعراء آخريـــن تغنوا بشعر الحنين في ذلك القرن،فإن هؤلاء الأربعة كانت لهم اليد الطولى فيه، ومن ثم تردد صداهم في جميع المصادر الأندلسية التي تحدثت عن هذا الغرض الشعري.

وإذا كنت قد تحدثت عن مفارقة هؤلاء الشعراء أوطانهم في الفصل الأول من هذه الدراسة، وذلك كباعث من بواعث الاتجاه الوطني،فإنّي سأقتصر في هذا الفصل على إيراد بعض النماذج الرفيعة من شعرهم الذي يمثّل هذا الفن.

- ابن زيدون :

لا يفتح كتاب أندلسي إلا ويوجد فيه اسم ابن زيدون، فقد مثل الشعر أحســـــن تمثيل، كما مثل النثر أيضا. ولا يخفى على أحد درس الأدب الأندلسي أن ابن زيدون كان عاشقا لولادة بنت المستكفي، حتى قرن اسمه باسمها، كما قرن في المشرق اسم قيس باسم ليلى، واسم كُثيّر باسم عَزّة، وغيرها من الأسماء.

لقد كان ابن زيدون وولادة أديبين يقرضان الشعر قرضا حسنا، وكان لـــــولادة منتدى أدبي يُطرح فيه الشعر واللهو والأنس، وفي أحد المجالس طلب ابن زيدون من جارية لولادة أن تعيد له صوتا غنته، وظنت ولادة أنه يغازلها، فغضبت، وبدأ التوتر يشوب علاقتهما. يُضاف إلى ذلك أن ابن زيدون كان قد مال إلى آل جهور الذين وضعوا نهاية لحكم الأمويين أسلاف ولادة. كل هذه العوامل وغيرها أدت إلى إعلان بنت المستكفي القطيعة لابن زيدون. وكان مما ساعد هذا كذلك، تدخل شخص آخر من أعيان الدولة في حياة الشاعرة ،و هو ابن عبدوس الذي وقع في حبائلها، وأصبح عاشقا لها كذلك.

ثم يحدث أن يشي ابن عبدوس لابن جهور بأن ابن زيدون يحاول القيام بثورة عليه، فيأمر بسوقه إلى المحكمة، وكان بين القاضي الذي تولى المحاكمة وبين ابن زيـــــدون

مخاصمة قديمة، فقضى بسجنه. وقد لبث ابن زيدون في السجن قرابة خمسمائة يـــوم، ظل خلالها يستعطف ابن جهور ويناشده العفو وإخلاء سبيله، ولكن دون فائدة، ثم فر من السجن –كما سلف الحديث في الفصل السابق- إلى خارج قرطبة، ولكنه لم يطق فراق ولادة ولا فراق مدينته، فظل دائم الحنين إليهما.

ومن يتتبع ديوان ابن زيدون، يجده يفرد لشعر الحنين في بعض الأحيان قصائد خاصة، كما يجده يكتفي ،أحيانا أخرى، بأبيات يضمنها بعض القصائد التي نظمها في أغراض أخرى.

وقد لا يقول الشاعر في هذا الغرض قصيدة كاملة، وإنما يكتفي بمقطوعة صغيرة، كقوله متشوقا إلى وطنه، وذلك عندما قصد "طرطوشة"، إذ اكتفى بنظم بيتين[99].

ومن يتتبع كذلك أشعار ابن زيدون التي نظمها في الحنين إلى وطنه، يجد أغلبها ممتزجا بالغزل بولادة والتوسل إليها،مما يجعلنا نقول : لعله لم يكن يحنّ إلى الوطن وإنما إلى من يسكن ذلك الوطن.

ومن أجمل ما نقرأ في ديوان ابن زيدون من شعره في هذا الغرض، مخمسته التي قالها أثناء وجوده في سجن ابن جهور. وهي طويلة جاءت كلّـــها في الحنين إلى قرطبة . يقول في أولها[100]:

أَ قُرْطُبَةَ الْغَرَّاءُ هَلْ فِيكِ مَطْمَعُ ؟ وَهَلْ كَبِـــدٌ حَرَّى لِبَيْنِكِ تُنْقَعُ ؟
وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الحَمِيدَةِ مرْجَـــعٌ إِذِ الْحُسْنُ مَرْأَى فِيكِ وَاللَّهْوُ مَسْمَعُ
وإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا لَدَيْكِ مُوَطَّأٌ ؟

وقد تدل كثرة هذه الاستفهامات على أن الشاعر كان يعيش فترة يأس وقـــلـــق واضطراب. ولعلّ حنينه إلى قرطبة، وهو في سجن موجود بها، أشدّ من حنينه إليـــها وهو خارجها. وقد ينطبق على حاله قول لشاعر :

---

[99] ينظر : ابن زيدون : م.س.، ص 18.

[100] م.ن ، ص 37.

كَالْعِيسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا وَالْـمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَـا مَحْمُولُ

وفي هذا المقطع يُبدي ابن زيدون حنينه إلى قرطبة وجمالها، ويصف شوقه إلى أيـام لهوه ولعبه فيها.

ثم يقول مشيدا منوها :

نَهَارُكِ وَضَّـاحٌ وَلَيْلُـكِ ضَحْيَـانُ وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ وَغُصْنُكِ نَشْوَانُ
وَأَرْضُكِ تُكْسَى حِينَ جَـوُّكِ عُرْيَانُ وَرَيَّاكِ رَوْحٌ لِلنُّفُوسِ وَرَيْـحَانُ
وَحَسْبُ الْأَمَانِي ظِلُّكِ الْمُتَفَيَّأُ

وفي هذا الجزء ينوه ابن زيدون بعدد من محاسن مدينته : فنهارها أبلج، وليلها ظاهر بارز، وغصنها نشوان، وأرضها مكسوّة نباتا وأزهارا أثناء الربيع، وجوّها مفعم روائحَ أزهارٍ منعشة...إن هذه الطبيعة الغناء لجديرة بأن تخلب العقول و تسبي القـلوب، وإن الشاعر ليكفيه من أمانيه أن يتفيّأ ظلّها!

ثم يذكر بعد ذلك أماكن لهوه ، من مرابع وقصور، هي أجمل ما تفخر به قرطـبة على سواها من المدن. ومن تلك الأماكن : " العقاب" ، و" الجعفرية"، و" العقيق "، و" عين شهدة"، و" الجوسق النصري"، و" الوعساء"، وغيرها. وفي القصيدة كـذلك ذكر لأيام خلت قضاها الشاعر في "مصنعة الدولاب" و" قصر ناصح".

ويلاحظ قارئ هذه المخمّسة أن وصف الطبيعة قد استولى على معظـم أقسامها : فبالإضافة إلى ما ذُكر، نجد المفردات والعبارات التالية :" ريح الصبا "، و" الريـاض " و"الجداول"، و"حدائق النرجس"، و"بطاح الهواء النقي "،و" الروابي العفر "،و" قضب النوار"، وغيرها.

وتحظى "الزهراء" من الشاعر بوقفة خاصّة، فيقول منوّها بجمالها مشيدا بحسنها :

وَيَا حَبَّذَا الزَّهْرَاءُ بَهْجَةَ مَنْظَـرٍ وَرِقَّةَ أَنْفَاسٍ وَصِحَّةَ جَوْهَـرِ
وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَا جَمَالٍ وَ مَحْضَرٍ وَجَنَّةِ عَدْنٍ تَطَّبِيكَ وَكَوْثَـرِ
بِمَرْأَىً يَزِيدُ الْعُمْرَ طِيباً وَيَنْسَأُ

إن "الزهراء" هذه موجودة في نواحي قرطبة، و هي من أجمل الأماكن الأندلسية، وبها من القصور والمتنزّهات ما يجعلها فعلا جنّة كما وصفها. وفي هذا المقطع يمدح الشاعر، من الزهراء، منظرها البهيج، ونسيمها الرقيق، وغير ذلك، ويشبهها بجنة عدن يجري فيها نهر الكوثر، ويقرر أخيرا أن مرآها يجمّل العمر ويطيله.

وبعد أن يذكر ابن زيدون مواطن أنسه وفرحه ولعبه، وكل ما يبعث في النفس الابتهاج والسرور، يقول في نغمة آسية :

مَعَاهِدُ أَبْكِيهَا لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا أَغَضَّ مِنَ الوَرْدِ الجَنِيِّ وَأَنْعَمَا

لَبِسْنَا الصِّبَا فِيهَا حَبِيراً مُنَمْنَمَا وَقُدْنَا إِلَى اللَّذَّاتِ جَيْشاً عَرَمْرَمَا

لَهُ الأَمْنُ رِدْءٌ، وَالعَدَاوَةُ مَرْبَأُ

فهو هنا يبكي ويتحسر على المعاهد التي قضى فيها أياما فاقت الورد الجني نعومة،وتجاوزته لينا، تلك المعاهد التي عاش فيها صباه،وتمتع باللذات آمنا مطمئنا.

ثم يقرئ تلك المعاهد سلامه فيقول :

سَلاَمٌ عَلَى تِلْكَ المَيَادِينِ يقرأ

ثم يصف الحالة التي آل إليها فيقول :

ظَعَنْتُ فَكَانَ الحُرُّ يُجْفَى فَيَظْعَنُ وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالأَسَى حِينَ أَحْزَنُ

وَقَرَّ عَلَى اليَأْسِ الفُؤَادُ المُوَطَّنُ وَإِنَّ بِلاَداً هُنْتُ فِيهَا لَأَهْوَنُ

وَمَنْ رَامَ مِثْلِي بِالدَّنِيَّةِ أَدْنأُ

فهو يحاول التعزّي بكون الحرّ العزيز، إذا جفاه بلد، شدّ رحله و ظعن إلى بلد يُكرَم فيه، ساليا بحزنه، موطّنا قلبه على اليأس.

ويتوجه ابن زيدون في أحد مقاطع مخمسته إلى أعدائه الذين كانوا سببا في دخوله السجن،ومنهم منافسه أبو عامر بن عبدوس وقاضي قرطبة ابن المكويّ، فيقول:

وَ لاَ يُغْبِطِ الأَعْدَاءَ كَوْنِيَ فِي السِّجْنِ فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ تُحْصَنُ بِالدَّجَنِ

وَمَا كُنْتُ إِلاَّ الصَّارِمَ العَضْبَ فِي جَفْنِ أو اللَّيْثَ فِي غَابٍ أَوِ الصَّقْرَ فِي وَكْنِ

أوِ الْعِلْقَ يُخفَى في الصِّوان ويُخبأُ

فهو لا يرى عيبا في دخوله السجن، فليس في حاله تلك، إلا كالشمس تحجبها الظلمة،أو كالسيف الصارم في الغمد، أو كالأسد في الغابة، أو كالصقر في الوكر، أو كالعلق في الصّوان؛وإذن فلا مدعاة إلى فرح الأعداء واغتباطهم.

ويواصل الشاعر مخمّسته على نحو ما سبق من الفخر والاعتزاز وبثّ الشوق.

وإذا كان الغرض الأساسيّ لهذه المخمّسة هو الحنين إلى قرطبة والشوق إلى ماضيه فيها، فإنّها قد ضمّت أغراضا أخرى: كالإشادة بالطبيعة، والبكاء على الماضي، وتأنيب الأعداء، والافتخار بالنفس، والحكمة وغيرها . وقد جاء كلّ ذلك متلاحما مترابطا.

إن مخمّسة ابن زيدون،التي عرضنا نماذج منها،لتبدو فيها النزعة الوطنية واضحة، لا بالمفهوم الواسع الشامل، وإنما بالمفهوم الضيّق المحدود.

ولابن زيدون مخمسة[101] أخرى لا تقل جمالا عن السابقة، وهي ليست طويلة مثلها، قالها يتذكر فيها قرطبة وأيامه بها، ومجالس أنسه فيها. يقول في مطلعها، داعيا بالسقيا ومستعيدا ذكرى الماضي :

سَقَى الْغَيْثُ أَطْلَالَ الأَحِبَّةِ بِالْحِمَى وَحَاكَ عَلَيْهَا ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمْنَمَا
وَ أَطْلَعَ فِيهَا لِلْأَزَاهِيرِ أَنْجُمَا فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الْخَرَائِدُ كَالدُّمَى
إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلَامُ

ويقول في موضع آخر متغزلا :

قَضِيبٌ مِنَ الرَّيْحَانِ أَثْمَرَ بِالْبَدْرِ لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ مِنَ السِّحْرِ

ثم يعود إلى الدعاء بالسقيا متخلصا إلى الفخر ببلده وقومه :

سَقَى جَنَبَاتِ الْقَصْرِ صَوْبُ الغَمَائِمِ وَغَنَّى عَلَى الأَغْصَانِ وُرْقُ الْحَمَائِمِ
بِقُرْطُبَةَ الْغَرَّاءِ دَارِ الْأَكَارِمِ بِلَادٌ بِهَا شَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي
وَأَنْجَبَنِي قَوْمٌ هُنَاكَ كِرَامُ

---

[101] م.س، ص 29 و ما بعدها.

ويتذكر ما قضى من أيام جميلة في معاهدها، فيعدد تلك الأيام وتلك المعاهد. يقول ذاكرا يوما له ب " البُنْيَّ" :

وَيَوْمٍ لَدَى البُنْيَّ في شَاطِئِ النَّهرِ تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي فِتْيَةٍ زُهْرِ

ويقول واصفا يوما آخر ب " جوفي الرصافة" :

وَيَوْمٍ بِجَوْفِيِّ الرُّصَافَةِ مُبْهِجٍ مَرَرْنَا بِرَوْضِ الْأُقْحُوانِ الْمُدَبَّجِ

ثم يقول، مستعيدا ذكرى أيام " العقاب" :

وَأَكْرِمْ بأيَّامِ العُقَابِ السَّوَالِفِ وَلَهْوٍ أَثَرْنَاهُ بِتِلْكَ المَعَاطِفِ

وإذن، فهذه المخمّسة لا تختلف في مجملها عن الأولى،ولقد استهلها ابن زيدون بمقدمة شبه طللية ومزج الحنين بالفخر،وقد جاء نصف القصيدة حديثا عن أيام لهوه وصباه، وذكراً لمعاهد لذاته. وفي القصيدة شيء من الغزل، وهو من غير شك في " ولادة"، لأنّه يذكر تمنّعها وإباءها، كما في قوله :

أَهِيمُ بِجَبَّارٍ يَعِزّ وَأَخْضَعُ شَذَا المِسْكِ مِن أَرْدَانِهِ يَتَضَوَّعُ

والمهم أنّ مجمل القصيدة في الحنين إلى قرطبة واستعادة ذكرياته بها وما إلى ذلك مما يجعلها، مثل سابقاتها، من الأدب الوطني.

ولمّا فرّ ابن زيدون من سجنه وأراد الالتجاء إلى بني عبّاد، مرّ بمدينة " بطليوس". وفيها نظم قصيدة في غرض الحنين عنوانها في ديوانه:" لا فِطْر يَسُرّ ولا أضحى". وعند قراءتنا هذه القصيدة،نجده يردّد كثيرا من المعاني و الألفاظ التي وردت في القصائد السابقة : فهويذكر " العقاب"، و"جوفي الرصافة"، و"مجلس ناصح"، و" عين شهدة" و"العقيق"،و" معاهد اللذات"، و" الزهراء"، وما إلى ذلك من أماكن ذكر جلّها في القصائد التي سلفت. يقول من هذه القصيدة [102] :

وَمَا انْفَكَّ جَوْفِيُّ الرُّصَافَةِ مُشْعِري دَوَاعِيَ ذِكْرَى تعْقِبُ الْأَسَفَ البَرْحَا

...وَأَيَّام وَصْلٍ بالعَقِيقِ اقتضَيْتُهُ فَإِلاّ يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالفِصْحَا

---

[102] م.س.، ص 21.

... مَعاهِدُ لَذَّاتٍ وَأَوْطَانُ صَبْوَةٍ أَجَلْتُ المُعَلَّى فِي الأَمَانِي بِهَا قِدْحَا
أَلاَ هَلْ إِلَى الزَّهْرَاءِ أَوْبَةُ نَازِحٍ تَقَصَّى تَنَائِيهَا مَدَامِعَهُ نَزْحَا

لقد أكثر ابن زيدون النظم في شعر الحنين إلى الوطن، وذلك بسبب ظروفه الخاصّة. وكثير من قصائده في هذا الغرض في مصادر كثيرة، فضلا عن الديوان. وإن احتفاء المؤلّفين بتلك القصائد ليدلّ على جودتها.

وإذا كان ابن زيدون قد نظم في هذا الغرض قصائد ومقطّعات تقليدية، كما نظم مخمّستين، فإنّنا نجده يصبّ مشاعره الوطنية في الرجز، فقد نظم، عندما كان بمدينة " بطليوس" ، أرجوزة يقول منها [103] :

يَا دَمْعُ صُبَّ مَا شِئْتَ أَنْ تَصُوبَا وَيَا فُؤَادِي آنَ أَنْ تَذُوبَا
قَدْ مَلأَ الشَوقُ الحَشَا نُدُوبَا فِي الغَرْبِ إِذْ رُحْتُ بِهِ غَرِيبَا
أَرْسِلْ حَكِيماً و اسْتَشِرْ لَبِيبَا إِذَا أَتَيْتَ الوَطَنَ الحَبِيبَا
وَالجَانِبَ المُسْتَوْضَحَ العَجِيبَا وَالحَاضِرَ المُنْفَسِحَ الرَّحِيبَا

وفي ذلك تعبير عن حنين شديد إلى وطنه، وشكوى حادّة من غربته.

وأختم اختياري لما نظمه ابن زيدون في هذا الغرض بقصيدة، هي من الروعة بمكان، عنوانها في الديوان : " سلام على قرطبة". وقد حملت من المشاعر الفيّاضة الشيء الكثير يقول منها [104] :

عَلَى الثَّغَبِ الشَّهْدِيِّ مِنِّي تَحِيَّةٌ زَكَتْ وَعَلَى وَادِي العَقِيقِ سَلاَمُ
وَلاَ زَالَ نَوْرٌ فِي الرُّصَافَةِ ضَاحِكٌ بِأَرْجَائِهَا يَبْكِي عَلَيْهِ غَمَامُ
... تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِهَا فَتَبَادَرَتْ دُمُوعٌ كَمَا خَانَ الفَرِيدَ نِظَامُ

إلى أن يقول :

---

[103] م.س.، ص 14.

[104] م.ن.، ص 71.

فَمِنْ أَجْلِهِ أَدْعُو لِقُرْطُبَةَ المُنَى بِسُقْيَا ضَعِيفِ الطَّلِّ وَهْوَ رِهَامُ

ويمكن أن أجزم، أخيرا، بأنّ ابن زيدون كان رائد شعر الحنين إلى الوطن في المرحلة التي أدرسها، وذلك للظروف والأسباب التي بيّنتها سابقا؛ فقد بكى قرطبة، وعدد معاهدها، ووصف محاسنها؛ وأجاد في ذلك كله . وقد أكثر حتى غلب على قصائده التكرار. وإن تخليده لحبه لوطنه وعشقه لمرابعه لهو أسمى وفاء له.

- ***المعتمد بن عباد*** :

انتهت حياة المعتمد بن عباد – كما بينت سابقا- في "أغمات" مأسورا من قبل الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين. وفي هذه الفترة صدر عنه شعر كثير يحن فيه إلى وطنه ويبكي مُلكه البائد و عزّه الضائع. ومن أجمل ما قال في ذلك قصيدة رائية يقول منها [105] :

غَرِيبٌ بِأَرْضِ المَغْرِبَيْنِ أَسِيرُ سَيَبْكِي عَلَيْهِ مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ
وَتَنْدُبُهُ البِيضُ الصَّوَارِمُ وَ القَنَا وَيَنْهَلُ دَمْعٌ بَيْنَهُنَّ غَزِيرُ
سَيَبْكِيهِ فِي زَاهِيهِ وَ الزَّاهِرِ النَّدَى وَطُلاَّبُهُ وَالعُرْفُ ثُمَّ نَكِيرُ
إِذَا قِيلَ فِي أَغْمَاتَ قَدْ مَاتَ جُودُهُ فَمَا يُرْتَجَى لِلْجُودِ بَعْدُ نُشُورُ
مَضَى زَمَنٌ وَالمُلْكُ مُسْتَأْنِسٌ بِهِ وَأَصْبَحَ مِنْهُ اليَوْمَ وَ هْوَ نَفُورُ

ثم يشتدّ به الشوق إلى حدائقه و قصوره بعاصمة مُلكه إشبيلية فيقول :

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً أَمَامِي وَ خَلْفِي رَوْضَةٌ وَ غَدِيرُ
بِمَنْبَتَةِ الزَّيْتُونِ مُورِقَةِ العُلَى يُغَنِّي حَمَامٌ أَوْ تَدُنْ طُيُورُ
بِزَاهِرِهَا السَّامِي الذُّرَى جَادَهُ الحَيَا تُشِيرُ الثُّرَيَّا نَحْوَنَا وَنُشِيرُ
وَيَلْحَظُنَا الزَّاهِي وَسَعْدُ سُعُودِهِ، غَيُورَيْنِ،وَالصَّبُّ المُحِبُّ غَيُورُ

فقد وصف حاله بين غربة وأسر، وذكر الفراغ الذي تركه نفيه، ثم راح يصف حنينه العارم إلى ما أمضاه من أيام سعيدة بين قصوره وحدائقها. وقد غلب على هذه

---

[105] المقري : م.س.، 275/4.

القصيدة صوت البكاء حتى لنخالها قصيدة في الرثاء؛ فهو يذكر أنه سيبكيه المنـــــبر والسرير والسيوف والرماح والكرم. وقد تدفقت عاطفته وتصعدت زفراته عندما ذكر ما كان ينعم به من سعادة في حديقة " الزاهر".

وكان الزاهر أحبّ حصونه إليه، و ذلك " لإطلاله على النهر، وإشرافه على القصـــر، واشتماله بالشجر و الزيتون. وكان كثيرا ما يدير به الراح ويجعله موضع انشراحه[106].

– ابن حمديس :

لم تكن هجرة ابن حمديس وغربته عن وطنه بسبب نفي أو تعسّف سلطـــــوي أو لأجل تحصيل رزق أو غير ذلك من هذا القبيل، وإنّما كانت هجرته بسبب هجـــــوم النورمان على صقلية وتغلبهم عليها. وقد فرّ هاربا مع من فرّ من الصقلّيين. وكان من بين الشعراء الذين وفدوا على المعتمد بن عبّاد ومدحوه. ولما سيق المعتمد إلى أغمات زاره ابن حمديس و ظلّ وفيّا له إلى أن مات. ثم تنقل بين عدّة عواصم إفريقيّة إلى أن وافاه الأجل.

وخلال فترة خروجه من صقلّية ظلّ دائم الحنين إليها. وقد وصف تلك المشاعر في كثير من قصائده. وتدل تلك القصائد على تعلّق شديد بالوطن واهتمام متواصـــــل بقضيته. ذلك أنّ تلك القصائد كثيرا ما تجمع بين الحنين والحثّ على الجهاد لتحرير صقلية. يقول من إحداها حاثا بني وطنه على الصمود في وجه عدوهم،والتمسك بأرضهم، محذّرا إياهم الهجرة و الاغتراب [107]:

بَنِي الثَّغْرِ لَسْتُمْ فِي الْوَغَى مِنْ بَنِي أُمِّي ... إِذَا لَمْ أَصُلْ بِالعُرْبِ مِنْكُم عَلَى العُجْمِ
... وَ لِلّهِ أَرْضٌ إِنْ عَدِمْتُمْ هَوَاءَهَـــا ... فَأَهْوَاؤُكُمْ فِي الْأَرْضِ مَنْثُورَةُ النُّظْـمِ
وَعِزُّكُمُ يُفْضِي إِلَى الذُّلِّ وَ النَّـوَى ... مِنَ الْبَيْنِ تَرْمِي الشَّمْلَ مِنْكُمْ بِمَا تَرْمِي

---

[106] هنري بيرس : م.س .، ص 124

[107] ابن حمديس : الديوان، ص 416.

فَإِنَّ بِلَادَ النَّاسِ لَيْسَتْ بِلَادَكُمْ ... وَلَا جَارُهَا وَ الْحِلْمُ كَالْجَارِ وَالْحِلْمِ
أَعَنْ أَرْضِكُمْ تُغْنِيكُمُ أَرْضُ غَيْرِكُمْ ... وَكَمْ خَالَةٍ جَدَّاءَ لَمْ تُغْنِ عَنْ أُمِّ
... تَقَيَّدْ مِنَ الْقُطْرِ الْعَزِيزِ بِمَوْطِنٍ ... وَمُتْ عِنْدَ رَبْعٍ مِنْ رُبُوعِكَ، أَوْ رَسْمِ
وَإِيَّاكَ يَوْماً أَنْ تُجَرِّبَ غُرْبَةً ... فَلَنْ يَسْتَجِيزَ الْعَقْلُ تَجْرِبَةَ السُّمِّ

ومع أن ابن حمديس يُعاب عليه أن يدعو الصقليين إلى ما لم يفعل، فإن ما يقوله وما يعبر عنه من حنين إلى وطنه، ومن شكوى اغترابه، ليدل على أنه خرج من صقلية مضطرا، وأن العودة إليها لم تكن متيسّرة السبل. و لعل ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف من أن ابن حمديس قد غادر صقلية " طلبا للشهرة في عالم شعري مزدهر" [108]، أي بلاط بني عبّاد ، غير صحيح. ولعل ما في القصيدة من تعلق بالوطن وحنين إليه (" و لله أرض"، " القطر العزيز" ...) يدل ما ذهبنا إليه.

ويلاحَظ أن ابن حمديس يشير إلى تجربته في الغربة، ويأمر مواطنيه بأن يتقيدوا بموطنهم ويموتوا في ربوعه، كما قد يلاحظ ندمه على تركه وطنه واغترابه.

وإذاكانت القصيدة السابقة -و إن أبرزت نزعته الوطنية- لم يتضح فيها الحنين جيدا، فإنّ له قصائد أخرى يبدو فيها حنينه إلى وطنه شديدا، وتعلّقه به واضحا. منها واحدة قالها في مدح تميم بن المعزّ بن باديس والي المهدية، يقول منها[109] :

تَدَرَّعْتُ صَبْرِي جُنَّةً لِلنَّوَائِبِ ... فَإِنْ لَمْ تُسَالِمْ يَا زَمَانُ فَحَارِبِ
... وَ لَوْ أَنَّ أَرْضِي حُرَّةٌ لأَتَيْتُهَا ... بِعَزْمٍ يَعُدُّ السَّيْرَ ضَرْبَةَ لَازِبِ
وَلَكِنَّ أَرْضِي-لَا عَدِمْتُ فِكَاكَهَا- ... مِنَ الْأَسْرِ فِي أَيْدِي الْعُلُوجِ الْغَوَاصِبِ
... أَلَا فِي ضَمَانِ اللهِ دَارٌ بِنُوطَسٍ ... وَدَرَّتْ عَلَيْهَا مُعْصِرَاتُ الْهَوَاضِبِ
أُمَثِّلُهَا فِي خَاطِرِي كُلَّ سَاعَةٍ ... وَأَمْرِي لَهَا قَطْرَ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

---

[108] شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، عصر الإمارات و الدول، ص 400.

[109] ابن حمديس : م.س.، ص 28-29.

أَحِنُّ حَنِينَ النِّيبِ لِلْمَوْطِـــنِ الّذي مَغَـــانِي غَوَانِيهِ إِلَـــيْهِ جَوَاذِبِي
وَمَنْ سَارَ عَنْ أَرْضٍ ثَوَى قَلْبُهُ بِــهَا تَمَنّى لَـــهُ بِالْجِسْمِ أَوْبَةُ آيِـــبِ

فهو يفخر بصبره متحدّياً نوائب الزمان، ثم يذكر ما منعه من العودة إلى وطنــه، ثم يدعو لداره-وهي بنوطس من أرض صقلية- ويصف تعلّقه بها : فهي لا تبرح خاطره، وهو يبكيها بساكب الدمع. ثم يذكر حنينه إليها، مشبّهاً إيّاه بحنين النيب إلى عطنها، ويُنهي أبياته بحكمة مفادها أنّ من أحب أرضاً تمنّ العودة إليها أبداً.

وقد انطوت هذه الأبيات، ككثير غيرها من شعره،" على حنين طاغ و تجـــربة عاطفية مريرة ذكاها البعد والاغتراب"[110]

ولابن حمديس في الحنين إلى صقلية أيضا قصيدة نظمها وهو في الستين من عمره. وهي تدل على تواصل تذكّره – وقد خرج في الرابعة و العشرين- إلى أن بلغ الشيخوخة. وفيها يتذكر صباه وشبابه في سرقوسة يقول فيها[111] :

قَضَتْ فِي الصِّبَا النَّفْسُ أَوْطَارَهَــا وَأَبْلَغَهَا الشَّيْبُ إِنْذَارَهَــا
... ذَكَرْتُ صِقِلّيَةَ وَ الْأَسَـــى يُهَيِّجُ لِلنَّفْسِ تِذْكَارَهَــا
ومَنْزِلَةً لِلتَّصَابِي خَلَـــتْ وَكَانَ بَنُو الظَّرْفِ عُمَّارَهَــا
فَإِنْ كُنْتُ أُخْرِجْتُ مِنْ جَــنَّةٍ فَإِنِّي أُحَدِّثُ أَخْبَارَهَــا
وَلَـوْلَا مُلُوحَــةُ مَاءِ الْبُكَــا حَسِبْتُ دُمُوعِيَ أَنْهَارَهَــا
ضَحِكْتُ ابْنَ عِشْرِينَ مِنْ صَبْـوَةٍ بَكَيْتُ ابْنَ سِتِّينَ أَوْزَارَهَــا

فهو يستعيد ذكريات سعادته ببلده، ثم يذكر ما يعانيه لفراقه، و يرى خروجه منه شبيها بخروج آدم من الجنة، ثم يقارن بين ما كان عليه من سعادة في شبابه حيث كان في وطنه، وما صار إليه من شقاء في شيخوخته حيث أصبح بعيدا.

---

[110] عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي ، ص 185.

[111] ابن حمديس : م.س.، ص 180.

ويبدو أن كر السنين لم يؤثر في عاطفته تجاه وطنه، ولم يغير من شعره في الحنين إليه. فالنزعة التي كانت لديه، وهو في فتوته، نلحظها فيه وقدرخط الشيب رأسه. قال الدكتور إحسان عباس واصفا ذلك التواصل : " قد اختزنت ذاكرته ضروبا من الذكريات... فظل دائم التحنان إلى وطنه[112].

- *ابن خفاجة :*

يعدّ الدكتور محمد رضوان الداية ابن خفاجة "شاعر الحنين في الأدب الأندلسي"[113].

و إن كنا لا نجد له أشعارا كثيرة في الحنين إلى الأهل والوطن على نحو ما نجد لابن زيدون أو لابن حمديس اللذين فاض شعرهما بذلك. ولعل ذلك الحكم مبنيّ على عمق ما قال الشاعر في هذا الغرض وعلى توزّعه في ديوانه.

على أننا قد نقرأ لباحثين آخرين ما يُستنتج منه غير ذلك.فالدكتور حمدان حجاجي يقول: "وأول ما نلحظه أن ابن خفاجة لا يكاد يغادر مستقرّه بجزيرة" شقر".وفضلا عن هذا فإن ابن خفاجة كان نحيلا فلم يرغب في الترحال،لما يسببه له ذلك من مشاقّ وتعب"[114].

ومهما يكن،فإنّ المطّلع على ديوانه يجد فيه مجموعة من الأشعار يحنّ فيها إلى وطنه الأصغر، جزيرة " شقر"، أو إلى وطنه الأكبر، بلاد " الأندلس". فقد كان كلّما فارق مسقط رأسه،جزيرة شقر، حنّ إليها و نظم شعرا في وصف ذلك الحنين ، كما تشوّق إلى بلاد الأندلس لما سافر إلى أرض المغرب ونزل بمدينة من مدن سواحله .

ومن شعره الذي قاله واصفا حنينه إلى جزيرة "شقر" قوله من قصيدة [115] :

أَجَبْتُ وَقَدْ نَادَى الْغَرَامُ فَأَسْمَعَا ... عَشِيَّةَ غَنَّانِي الْحَمَامُ فَرَجَّعَا

فَقُلْتُ، وَلِي دَمْعٌ تَرَقْرَقَ فَانْهَمَى ... يَسِيلُ وَصَبْرٌ قَدْ وَهَى فَتَضَعْضَعَا :

---

[112] م.ن.، مقدمة التحقيق ، ص 11.

[113] ابن خفاجة ، ص 74.

[114] حياة و آثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، ص 55.

[115] ابن خفاجة،م.س.، ص 160.

أَلاَ هَلْ إِلَى أَرْضِ الْجَزِيرَةِ أَوْبَـةٌ ... فَأَسْكُنَ أَنْفَاسًا وَأَهْدَأَ مَضْجَعَـا
وَأَغْدُو بِوَادِيهَا وَقَدْ نَضَحَ النَّدَى ... مَعَاطِفَ هَاتِيكَ الرُّبَى ثُمَّ أَقْشَعَـا

إلى أن يقول :

وَأَيْـنَ فِنَـا دَارٍ إِلَيَّ حَبِيبَـةٍ ... وَحَسْبُكَ مُصْطَافًا هُنَاكَ وَمَرْبَعَـا
لَقَدْ تَرَكَتْنِي بَيْنَ جَفْنِ جَفَا الْكَرَى ... وَجَنْبٍ تَقَلَّى لاَ يُلاَئِمُ مَضْجَعَـا
أُقَلِّبُ طَرْفِي فِي السَّمَـاءِ لَعَلَّنِي ... أَشِيمُ سَنَا بَرْقٍ هُنَـاكَ تَطَلَّعَـا

وفي هذه الأبيات يصف شوقه إلى الجزيرة، و يتمنّى العودة إليها ليزول ما يعانيه بسبب فراقها، ولينعم بما كان ينعم به من مباهجها.

ويلاحَظ بروز عنصر الطبيعة في هذه الأبيات كما هو واضح في كثير من شعره. ولذلك كان حقيقا بأن يُلقَّب "بالجنّان". فهو هنا يذكر " الوادي "، و" النـدى "، و" الربى".

ومن أجمل قصائده في الحنين إلى "شقر" وإلى ماضيه السعيد بها : قصيدته التي يقول منها [116] :

بَيْنَ شَقْـرٍ وَمُلْتَقَـى نَهْرِيْهَا ... حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَا الْأَمَانِي عَصَاهَا
... عِيشَةٌ أَقْبَلَتْ يُشَهِّي جَنَاهَـا ... وَارِفٌ ظِلُّهَـا لَذِيذٌ كَرَاهَـا
لَـعِبَتْ بِالْعُقُـولِ إِلاَّ قَلِيـلاً ... بَيْنَ تَأْوِيبِهَـا وبَيْنَ سُرَاهَـا
... فَانْدُبِ الْمَرْجَ فَالْكَنِيسَةَ فَالشَّطَّ ... وَقُـلْ: آهِ يَا مُعِيـدَ هَوَاهَـا
آهِ مِنْ غُرْبَةٍ تَـرَقْرَقَ بِنْـا ... آهِ مِنْ رِحْلَةٍ تَطُـولُ نَوَاهَـا
آهِ مِنْ فُرقَـةٍ لِغَيْرِ تَـلاَقٍ ... آهِ مِنْ دَارٍ لاَ يُجِيبُ صَدَاهَـا

ثم يقول :

وشَبَـابٍ قَدْ فَاتَ إِلاَّ تَنَاسِيهِ ... وَنَفْسٍ لَمْ يَبْقَ إِلاَّ شَجَاهَـا
مَـا لِعَيْنِي تَبْكِي عَلَيْهَـا وَقَلْبِي ... يَتَمَنَّى سَوَادُهُ لَوْ فَدَاهَـا

---

[116] م.ن.، ص 215.

ويصحّ في هذه القصيدة ما قاله الدكتور محمد رضوان الداية من أنّ الحنين عند ابن خفاجة منصبّ في دائرتين متقاطعتين [117]، دائرة المكان ودائرة الزمان؛ فدائرة المكان تتمثّل في جزيرة " شقر"، مسقط رأسه وموطن أهله ومقر سكناه، ودائرة الزمان إطارها صباه و أيّام شبابه. فهو في هذه القصيدة يحنّ إلى "شُقْر" وكلّ ما حوته من طبيعة خلابة وأماكن جميلة كان يرتادها متنزّها فيها، كملتقى نهري الجزيرة، والمرج، والكنيسة، والشطّ ، كما يحنّ إلى الشباب الذي ولّى عهده، ومضت أيامه.

ومن شعره الذي قاله في وصف حنينه إلى بلاد الأندلس : تلك الأبيات الثلاثة التي نظمها لما كان بعُدوة المغرب، وهي معروفة . يقول فيها، مادحا متشوّقا [118]:

إِنَّ لِلْجَنَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ ... مُجْتَلَى حُسْنٍ وَرَيَّا نَفَسِ

فَسَنَا صُبْحَتِهَا مِنْ شَنَبٍ ... وَدُجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسِ

فَإِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ صَبَا ... صِحْتُ :وَا شَوْقِي إِلَى الْأَنْدَلُسِ!

فهو يصوّر بلده جنة، ويستخدم في وصفه بعض الصور الغزلية، و يبدي عظيم شوقه إليه.

وإذا كان هذا النوع من شعره في الحنين قليلا بالقياس إلى ما قاله في التشوّق إلى جزيرة "شقر"، فمردّ ذلك إلى قلّة خروجه من الأندلس، إذ لم يثبت أن غادره إلا مرّة واحدة، هي تلك التي أشرنا إليها. ولهذا ظلّ الوطن عنده – إذا استثنينا بعض النصوص- منحصرا في " شقر" وما إليها من شرق الأندلس.

وإذا لم نسلّم بالحكم الذي أصدره الدكتور محمد رضوان الداية، بجعل ابن خفاجة شاعرَ الحنين في الأدب الأندلسيّ، فإنّا نرى أنّه كان من كبار شعرائه.

---

[117] الأدب العربي في الأندلس و المغرب ، ص 188؛ أبحاث في الأدب الأندلسي و المغربي ، ص 215.

[118] ابن خفاجة : م.س.، ص 151.

5-شعراء آخرون

هناك شعراء آخرون من العصر الذي ندرسه نظموا في الحنين إلى الأوطان. ولكنهم لم يكثروا إكثار الأربعة الذين ذكرناهم. منهم الشاعر السائر الذكر ، أبو بكر محمد بن عمار الشِّلْبي وزير المعتمد بن عباد الذي نفاه المعتضد من "إشبيلية" إلى "سرقسطة " ، فكتب إلى المعتمد الذي كان واليا على مدينة "شِلْب" قصيدة يبثّ فيها حنينه إلى تلك المدينة الجميلة . يقول منها [119]:

...عَلَيَّ وَإِلَّا مَا بُكَاءُ الْغَمَائِمِ ؟ وَفِيَّ وَإِلَّا فِيمَ نَوْحُ الْحَمَائِمِ؟
... أَ شِلْبٌ ، وَ لَا تَنْسَابُ عَبْرَةُ مُشْفِقٍ؟ وَحِمْصٌ ، وَلا تعتاد زَفْرَةُ نَادِمِ؟
كَسَاهَا الْحَيَا بُرْدَ الشَّبَابِ فَإِنَّمَا بِلَادٌ بِهَا عَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي
ذَكَرْتُ بِهَا عَهْدَ الصِّبَا فَكَأَنَّمَا قَدَحْتُ بِنَارِ الشَّوْقِ بَيْنَ الْحَيَازِمِ
... وَلَيْلٍ لَنَا بِالسِّدِّ بَيْنَ مَعَاطِفٍ مِنَ النَّهْرِ يَنْسَابُ انْسِيَابَ الْأَرَاقِمِ
بِحَيْثُ اتَّخَذْنَا الرَّوْضَ جَاراً تَزُورُنَا هَدَايَاهُ فِي أَيْدِي الرِّيَاحِ النَّوَاسِمِ
...هُوَ الْعَيْشُ لَا مَا أَشْتَكِيهِ مِنَ السُّرَى إِلَى كُلِّ ثَغْرٍ آهِلٍ غَيْرِ طَاسِمِ

وتنطوي هذه القصيدة على المشاعر التي يحملها كل من نُفي عن وطنه؛ فهو يحنّ إليه و يستعيد ذكرياته الجميلة فيه، ويقارن بين ذلك الماضي السعيد، وما يعيشه من حاضر شقيّ. ويتداخل الإطاران الزماني و المكاني في القصيدة. وهي سمة تطبع كثيرا من شعر الحنين. وممن نظموا في شعر الحنين إلى الوطن : عمر بن الصقلي الذي رحل عن موطنه " بلرم" إثر استيلاء النورمان عليها سنة 464 هـ. يقول في أبيات [120]:

نَفْسِي تَحِنُّ إِلَى أَهْلِي وَ أَوْطَانِي وَهَلْ رَأَيْتُمْ مُحِبّاً غَيْرَ حَنَّانِ
كَانُوا بِقَلْبِي أَحْيَاءً،وَفِي كَبِدِي نَارٌ تَأَجَّجُ مِنْ شَجْوِي وَ أَحْزَانِي
عَزَّ اصْطِبَارِي لِرُزْءٍ قَدْ دُهِيتُ بِهِ وَبَانَ عَنِّيَ لِوشْكِ الْبَيْنِ سلْوَانِي

---

[119] ابن بسام : م.س.، 372/1/2 .

[120] العماد الاصفهاني : خريدة القصر و جريدة العصر ، قسم شعراء المغرب و الأندلس ، 289/2.

فهو يصف حنينه إلى أهله ووطنه، ويذكر حضورهم بقلبه، كما يصور ما يعانيه من ألم وحزن و نفاد صبر. ويصطبغ حنينه بالتفجّع واللوعة، على نحو ما نجد عند مواطنه ابن حمديس. ولعلّ الظروف التي عاشاها معا هي التي جعلت تعبيرهما عن التجربة واحدا أو متقاربا.

ومن بين الذين برعوا في النظم في غرض الحنين إلى الأوطان أذكر – في عجالة ودون تفصيل- ابن حصن الإشبيلي الذي كان معاصرا لابن زيدون. يقول متشوقا إلى حمص (إشبيلية) وهو بقرطبة [121] :

ذَكَرْتُكِ يَا حِمْصُ ذِكْرَى هَوى ... أَمَاتَ الْحَسُودَ وَتَنْعِيتَه
كَأَنَّكِ وَالشَّمْسُ عِنْدَ الْغُرُوب ... عَرُوسٌ مِنَ الْحُسْنِ مَنْعُوتَه
غَدَا النَّهْرُ عِقْدَكِ وَالطَّوْدُ تَا ... جَكِ وَالشَّمْسُ أَعْلاَهُ يَاقُوتَه

وممّن قدموا إلى الأندلس من أقاليم أخرى مجاورة لها : الشاعر القيرواني محمد بن شَرَف الذي يقول،حانّا إلى بلده متمنّيا أن يكون طائرا حتى يمكنه أن يراه [122]:

يَا قَيْرَوَانُ وَددتُ أَنِّيَ طَائِرٌ ... فَأَرَاكِ رُؤْيَةَ بَاحِثٍ مُتَأَمِّلِ
أَبْدَتْ مَفَاتِيحُ الْخُطُوبِ عَجَائِباً ... كَانَتْ كَوَامِنَ تَحْتَ عَتْبٍ مُقْفَلِ
يَا أَرْبُعِي فِي الْقُطْبِ مِنْهَا كَيْفَ لِي ... بِمَعَادِ يَوْمٍ فِيكِ لِي ؟ مِنْ أَيْنَ لِي؟

ومن أولئك القادمين : محمد بن عبد الواحد البغداديّ الذي جاء من المشرق إلى الأندلس، وتنقل بين بلدانها حتى استقرّ به المقام في مدينة طليطلة عند المأمون بن ذي النون. وقد قال حين اشتدّ به الحنين إلى أوطانه وأحبته الذين فارقهم [123]:

أَهِيمُ بِذِكْرِ الشَّرْقِ وَ الْغَرْبِ دَائِمًا ... وَمَا بِيَ شَرْقٌ لِلْبِلاَدِ وَ لاَ غَرْبُ
وَلَكِنَّ أَوْطَاناً نَأَتْ وَأَحِبَّةً ... فَقَدْتُ مَتَى أَذْكُرْ عُهُودَهُمُ أَصَبْ

---

[121] المقري : م.س.، 266/3.

[122] وهيب طنوس : الوطن في الشعر العربي، حلب : منشورات جامعة حلب، مديرية الكتب، د.ط، 1980، ص372 .

[123] ابن بسام : م.س.، 101/1/4 .

إِذَا خَطَرَتْ ذِكْرَاهُمُ فِي خَوَاطِرِي تَنَاثَرَ مِنْ أَجْفَانِيَ اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ
وَلَمْ أَنْسَ مَنْ وَدَّعْتُ بِالشَّطِّ سُحْرَةً وَقَدْ غَرَّدَ الحَادُونَ وَاسْتعجلَ الرَّكْبُ
أَلِيفَانِ : هَذَا سَائِرٌ نَحْوَ غُرْبَةٍ وَهَذَا مُقِيمٌ سَارَ عَنْ صَدْرِهِ الْقَلْبُ

ويجد المتتبع للأدب الأندلسي شعرا كثيرا قيل في الحنين إلى الأوطان خلال هذا القرن. وسواء أحن أصحابه إلى بلاد الأندلس و مدنها، أم حنوا إلى بلدان أخرى ، فإنه يعد جميعا من الشعر الأندلسي. ولا يسع هذه المذكرة أ ن تحويه كله. وحسبها ما سبق من نماذج.

إن شعراء الأندلس كانوا كلما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب فزعوا إلى الشعر محملين إياه حنينهم المشبوب إلى أوطانهم وأهلهم وغيرهم من أحبابهم.

6- انتقاد ملوك الطوائف و عُمّالهم:

على الرغم من الوضع المأساوي الذي كانت عليه الأندلس في عهد دول الطوائف، وعلى الرغم من تذمر كثير من أفراد الشعب الأندلسي ، ومن بينهم الشعراء، فإن نقد الوضع المتردّي كان قليلا، وصوت أصحابه خافتا . ويمكن أن نذهب مذهب الدكتور إحسان عباس الذي يقول منتقدا تخلّي الأدب الأندلسي، في ذلك الظرف ، عن دوره: " انحصر الأدب بولاء إقليمي قاصر النظرة محدود الأفق، ففقد قوة الحدس التي تتمتع بها النظرة الشاملة العميقة" [124].

ومع ذلك فإن ذلك القليل يدل على رفض بعض الشعراء لأوضاع، وعلى جرأتهم وعدم تواطئهم مع أولياء أمورهم.

وكان من أبرز مظاهر النقد في ذلك العهد : نقد اليهود الذين تقلدوا مناصب في الدولة فطغوا وأساءوا التصرف . ومن أمثلة ذلك قول أبي الحسن بن الجد لما رأى تعجرف اليهود على الناس في دولة غرناطة، وإثقالَ كواهلهم بالضرائب [125]:

---

[124] تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف و المرابطين، ص 145.

125 م.ن.، ص 146

تَحَكَّمَتِ الْيَهُودُ عَلَى الفُـــرُوجِ وَتاهَتْ بِالْبِغَالِ وَبِالسُّـــرُوجِ
وَقَامَتْ دَوْلَةُ الأَنْذَالِ فِينَـــا وَصَارَ الحُكْمُ فِينَا لِلْعُلُـــوجِ
فَقُلْ لِلأَعْوَرِ الدَّجَّالِ : هَـــذَا زَمَانُكَ إِنْ عَزَمْتَ عَلَى الخُرُوجِ

فقد استفز هذا الوضع الشاعر فعبر في تلك الأبيات عن سخطه، ذلك أن اليهود كانوا، في المجتمع الإسلامي، يدفعون الجزية إلى الدولة مقابل حمايتهم، فصاروا، في دولة بني زيري، يأخذون الضرائب من المسلمين،جامعين إياها بتعسف.

وهذه الظاهرة نفسها قد تركت أثرا عميقا في نفوس المسلمين، و بخاصة ذوي الوعي منهم، كالشعراء، وذلك ما نلمسه في أبيات قالها"أبو حفص الزكرمي" العروضي هي[126] :

يَا أَهْلَ دَانِيَةٍ لَقَـــدْ خَالَفْتُـــمْ حُكْمَ الشَّرِيعَةِ وَالْمُرُوَّةِ فِينَـــا
مَا لِي أَرَاكُمْ تَأْمُرُونَ بِضِدِّ مَـــا أَمَرَتْ، تَرَى نَسَخَ الإِلَهُ الدِّينَا؟
كُنَّـــا نُطالِبُ لِلْيَهُودِ بِجِزْيَـــةٍ وَأَرَى الْيَهُودَ بِجِزْيَةٍ طَلَبُونَـــا
مَـــا إِنْ سَمِعْنَا مَالِكـًا أَفْتَى بِذَا لاَ لاَ ، وَلاَ مِنْ بَعْدِهِ سَحْنُونَا
هَـــذَا وَلَوْ أَنَّ الأَئِمَّـــةَ كُلَّهُمْ -حَاشَاهُمْ-بِالمكْسِ قَدْ أَمَرُونَا
مَـــا وَاجِبٌ مِثْلِي يُمَكَّسُ عَـــدْلُهُ لَوْ كَانَ يعْدلُ وَزْنُهُ " قَاعُونَـــا"
وَلَقَـــدْ رَجَوْنَا أَنْ نَنَالَ بِمَدْحِكُمْ رِفْداً يَكُونُ عَلَى الزَّمَانِ مُعِينَا
فَالآنَ نَقْنَعُ بِالسَّلاَمَةِ مِنْكُـــمْ لاَ تَأْخُذُوا مِنَّا وَ لاَ تُعْطُونَـــا

وأشهر قصيدة في هذا الموضوع قصيدة الشاعر الزاهد أبي إسحاق الإلبيري الـتي نظمها داعيا فيها إلى الثورة على " ابن النغريلة " الذي استوزره بنو زيري ملـوك غرناطة. يقول في أولها[127] :

أَلاَ قُلْ لِصِنْهَاجَةِ أَجْمَعِينْ، بُدُورِ النَّدَى وَأُسْودِ الْعَرِينْ :

---

[126] إحسان عباس : م.س.، ص 147

[127] المقري : م.س.، 322/4.

لَقَــدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّـــةً تَقَرَّبِـــهَا أَعْيُنَ الشَّامِتِـــيْنْ
تَخَيَّرَ كَاتِبَـــهُ كَافِـــرًا وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِـــيْنْ
فَعَـــزَّ الْيَهُودُ بِـــهِ وَ انْتَخَوْا وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْذَلِـــيْنْ
وَنَالُوا مُنَاهُمْ وَجَـــازُوا الْمَدَى فَحَانَ الْهَلَاكُ وَمَا يَشْعُـــرُون

ويصف الوضع بكثير من التذمر فيقول :

وَرَخَّمَ قِرْدُهُــــــمُ دَارَهُ وَأَجْرَى إِلَيْهَا نَمِيْرَ الْعُيُـــونْ
فَصَارَتْ حَـــوَائِجُنَا عِنْدَهُ وَنَحْنُ عَلَى بَابِهِ وَاقِفُـــونْ
وَيَضْحَـــكُ مِنَّا وَمِنْ دِينِنَـــا فَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاجِعُـــونْ

ثم يزداد سخطه و يثور فيدعو إلى قتله هو وغيره من رهطه، و يفتي – وهو فقيه- بأن دمه حلال، بل إن ذبحه قربة، فيقول :

فَبَـــادِرْ إِلَى ذَبْحِهِ قُرْبَةً وَضَحِّ بِهِ فَهْوَ كَبْشٌ سَمِـــينْ
وَلَا تَرْفَعِ الضَّغْطَ عَنْ رَهْطِهِ فَقَـــدْ كَنَزُوا كُلَّ عِلْقٍ ثَمِينْ
وَلَا تَحْسَبَنْ قَتْلَهُــــم غَدْرَةً بَلِ الْغَدْرُ فِي تَرْكِهِمْ يَعْبَثُـــونْ

7- مدح المرابطين وهجاؤهم:

بينت في الفصل الأول أن الأندلسيين استنجدوا بالمرابطين لما عجزوا عن حمـــاية دولهم من المد المسيحي العاتي، و أن المرابطين قد أنجدوهم ودفعوا عنهم الخطر، ولكنهم ألحقوا الأندلس بالمغرب. وبقي أن نبين موقف الشعراء من الحكام الجدد الذين تحولوا من منجدين إلى فاتحين.

ذهب عدد من الشعراء الأندلسيين إلى مدح الأمراء المرابطين لما رأوا لهم من فضل على بلادهم، وذهب آخرون إلى هجوهـــــم ، لأنهم رأوهـــم غزاة فـــاتحين : قضـــوا على سيادتهم الوطنية، واستعمروا بلادهم. وعلى الرغـــم من تباين ذينيك اللونـــين من ذلك الشعر، فإن الباعث الوطني يوحّد بينهما.

- *مدح المرابطين* :

إن من ينقذ أرضا من مخالب مستعمر لخليق بمدح أهل تلك الأرض وثنائهم.وهذا ما فعله بعض شعراء الأندلس الذين رأوا في صنع المرابطين مـــا عاد بالفائدة عـــــلى وطنهم، إذ دفع عنه الخطر، ووحّد فيه الكلمة. ومن أولئك الشعراء أبو إسحاق بـــن خفاجة الذي قال جملة من المدائح في المرابطين، نشتمّ منها رائحة العرفان. يقول من إحداها [129] :

وَبَدِّدْ شَمْلَ آمَالِ الْأَعَادِي ... وَطَأْ تِيجَانَ أَرْبَابِ الصَّلِيبِ

...فَيَا مَلِكَ الملُوكِ، وَلِي لِسَانٌ ... يُشِيرُ بِهِ البَنَانُ إِلَى خَطِيبِ ...

وابن خفاجة لم يكن يبتغي من وراء هذا المدح حاجة -فقد كان غنيا-، و إنّما قام بذلك إحساسا منه بأن هؤلاء المرابطين خلّصوا أجزاء من بلاده من النصارى.

على أنّ الذين قاموا بمدح المرابطين قليلون. وربّما يعود ذلك إلى أنّ المرابطين ألحقوا الأندلس بالمغرب.وقد يعود أيضا إلى معاملة المرابطين للأندلسيين.وقد كانوا يتميّـــزون بالغلظة والخشونة والصرامة على عكس ما كان الأندلسيون متصفين به من لـــــين ولطف.

- *هجاء المرابطين* :

شعر كثير من الأندلسيين بالمرابطين عبئا ثقيلا على صدورهم. وقد حزّ في نفوسهم تحوّلهم من منجدين إلى مستعمرين. وقد عبّر بعض الشعراء عن هذا الإحساس : هجاء مقذعاً، وانتقادا حادّاً. و من أبرز أولئك الشعراء : أبو بكر اليَكّي، والأبيض.

فممّا قاله اليكي البيتان التاليان [130]:

فِي كُلِّ رَبْطَ اللِّثَـــامَ دَنَاءَةٌ ... وَلَوَ انَّهُ يَعْلُو عَلى كيـــوَانِ

لَا تَطْلُبَنَّ مُرَابِطاً ذَا عِفَّـــةٍ ... وَاطْلُبْ شُعَاعَ النَّارِ فِي الغُدْرَانِ

---

[129] ديوان ابن خفاجة ص 45

[130] ابن سعيد : المغرب، 267/2.

فهو يصف الملثمين بالدناءة، وينفي عنهم العفّة.ولعلّ وصفه ذلك راجع إلى تصرّفات جندهم في الأندلس؛ فقد ثبت أن سلوك الجنود كان قبيحا.

ويقول اليكّي كذلك[131] :

إنّ المُرَابِطَ بَاخِلٌ بِنَوَالِــــهِ لَكِنَّــــهُ بِعِيَالِهِ يَتَكَــــرَّمُ
اَلْوَجْهُ مِنْهُ مُخَلّقٌ لِقَبِيحِ مَـــا يَأْتِيـــهِ فَهْوَ مِنَ اجْلِهِ يَتَلَثّـــمُ

وفيه حسن تعليل جميل، يدلّ على إبداع اليكّي المعروف في باب الهجاء. علـــى أن ما يصف به المرابطَ قد لا يكون صحيحا ، وإن كنا نعرف أن المرابطين لم يشجّعــوا شعراء المدح حتى كسد على عهدهم.

ومما قاله أبو بكر محمد بن أحمد المعروف "بالأبيض" في أحد الأمراء المرابطين اسمــه "الزبير"، وكان أكثرُ هجائه فيه[132] :

عَكَفَ الزبيرُ على الضَّلاَلَةِ جَـــاهِداً وَوَزِيرُهُ المَشْهُورُ كَلْبُ النَّـــارِ
مَازَالَ يَأْخُذُ سجْدَةً في سجْــــدَةٍ بَيْنَ الكُؤُوسِ وَنَغْمَةِ الأَوْتَـــارِ
فَإِذَا اعْتَرَاهُ السَّهْوُ سَبّحَ خَلْفَــــهُ صَوْتُ القِيانِ وَرَنَّةُ الأَوْتَـــارِ

ورُوي أن الزبير أحضره إلى مجلسه ووبّخه هلى هجائه، وقال له: ما دعاك إلى هذا ؟ فقال له : إني لم أر أحقّ بالهجو منك. ولو علمت ما أنت عليه من المخازي لهجوت نفسك إنصافا، و لم تكلها إلى أحد[133] . فأثارت هذه الجرأة الأمير فلقي الشاعر حتفه على يده.

---

[131] المقري : م.س ، 193/4.
[132] المقري : م.س.، 490/3.
[133] م.ن.، 37/5.

الفصل الثالث

الاتجاه الوطني في النثر الأندلسي في القرن الخامس الهجري

أظلت سماء الأندلس في القرن الخامس الهجري عددا من الناثرين.بل كان كثير من شعرائها كتابا مجيدين؛ فابن شهيد وأبو حفص بن برد وابن دراج القسطلي وابن حزم وابن زيدون، قد جمعوا إلى موهبة الشعر براعة الكتابة.

وقد ظهر الاتجاه الوطني في النثر ظهوره في الشعر، إذ كان النثر كذلك مجالا للتعبير عن العاطفة الوطنية حيث سجل فضائل الأندلس، ونبه إلى الخطر الذي هددها واستنهض الهمم لدفعه، و وصف حنين أصحابه إلى بلادهم...

وقد وقفت على عدد من النصوص النثرية الممثلة لذلك الاتجاه، يمكنني أن أصنفها كما يلي :

- ما كُتب في بيان فضل الأندلس و الإشادة بمحاسنها.
- ما كتب في استنهاض الهمم و الدعوة إلى الجهاد .
- ما صور حنين أصحابه إلى وطنهم.

ولن أتحدث الآن عن كل فن من فنون ذلك النثرحديثا يتناول ذلك الفن، لأن الذي يهمني الآن هو كون هذه الكتابات تمثل النزعة الوطنية لأصحابها.

1- بيان فضل الأندلس و الإشادة بمحاسنها :

خلّف الأندلسيون في القرن الخامس عددا من النصوص ،يشيدون فيها بمحاسن بلادهم، ويعدّدون فضائلها، ويفاخرون غيرهم... ويتجلّى في تلك النصوص شعورهم الوطني بارزا. و من تلك النصوص ما يلي :

أ - *رسالة ابن حزم* :

هي رسالة شهيرة كتبها في بيان فضل الأندلس وذكر رجالها. ولها مناسبة طريفة، أرى من المفيد ذكرها تقدمة لها.وهي أن أحد المغاربة من أبناء تاهرت، و لكنه يُنسَب إلى القيروان، واسمه أبو علي الحسن بن الربيب التميمي، كتب رسالة إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم، وهو ابن عم الإمام أبي محمد علي بن حزم، يلوم فيها أهل الأندلس عل تقصيرهم في حق تراثهم من تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم

وملوكهم وقضاتهم، يقول منهـــا [1] : " إني فكـــرت في بلدكم – أهل الأندلس- إذ أنـــه قرارة كل فضل ... إن بارت تجارة أو صنـــاعة فإليكم تُجلَـــب، وإن كسدت فعندكم تنفق، مع كثرة علمائه ووفور أدبائه وجلالة ملوكه ومحبتـــهم للعلم وأهله..."

إلى أن يقول : " ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ونهاية التفريط ...وعلماؤكم مع استظهـــارهم على العلوم، كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح، وثابت في كعبه لا يتزحزح ... لم يتعب نفسا أحد منهم في مفاخر بلده، و لم يستعمل نفسا في فضائل ملوكه، ولا بـــلَّ قلما بمناقـــب كتّابـــه ووزرائه، ولا سوّد قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه..." .

وهكذا حاول ابن الربيب أن يستنهض العلماء الأندلسيين،ويحرك أقلامهم حتى يضعوا لأنفسهم ومن سيأتي بعدهم،ما يحفظ لهم مآثرهم ومفاخرهم وتاريخهم.و لذلك ردّ أبو المغيرة على رسالة ابن الربيب ردّا جميلا، حيث شكـــره على عنايته بالأندلس والاهتمام بعلمائها. وقد رد عليه برقعة حـــذف ابن بسام جلّها لطولها يقول منها[2] : " أبقاك الله من حميم ، صريحَ الود، أهدى تحيتـــه على البعـــد... فأول ما قدّمت في كتابك ما يقدّمه ذو الفضـــل والنبل : الثناء على بلدنا وأهله، ووصفت الجميع على اختلاف طبقاتـــهم وتباين درجاتهم... وهؤلاء الذين أنضيت وصفهم جياد مدحك، وهتكـــت ظلامهم بغرّة صبحك، على غير هذا الرأي مقيمون،وبخلاف هذا المذهب قائلون...". ثم يقـــول : " وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يُدفَن، وشرّها يُعلن، يتعب أحدنا نفسه، و يرهق حسّه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه ... ونتائج فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة".

---

[1] ابن بسام : م.س. 133/1/1.

[2] م.ن.، ص 136-137.

وقد وقعت رسالة ابن الربيب في يد أبي محمد علي بن حزم، حيث وجدها بين مجموعة من الكتب والوثائق لصديقه الوزير أبي بكر إسحاق المهلّبي[3]. وقيل : إنه كتب الرسالة بطلب من محمد بن عبد الله الفهري يُمْن الدولة ورئيس قلعة " البونت" ببلنسية [4]. وكلا القولين صحيح حسبما يُستنتج من مقدّمة رسالة ابن حزم.

ويستهل ابن حزم رسالته بقوله [5] : " الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله،وعلى أصحابه الأكرمين،وأزواجه أمهات المؤمنين، و ذريته الفاضلين الطيبين.

أما بعد يا أخي يا أبا بكر، سلام أخ مشوق طالت بينه وبينك الأميال و الفراسخ، وكثرت الأيام والليالي... وإني لما احتللت بك وجالت يدي في مكنون كتبك ومضمون دواوينك، لمحت عيني في تضاعيفها درجا فتأملته ، فإذا فيه خطاب لبعض الكتّاب من مصاقبينا في الدار، أهل إفريقية ثم من ضمّته حضرة قيروانهم، إلى رجل أندلسي لم يعيّنه باسمه ولا ذكره بنسبه".

وفي هذا المطلع إشارة إلى أن ابن حزم كان يجهل أنّ ابن الربيب كان يخاطب بذلك الكتاب ابن عمه أبا المغيرة، كما يُستنتج من المطلع أنه كان يجهل كذلك ردّ أبي المغيرة على رسالة ابن الربيب [6] . وقد ذكر كذلك في هذه المقدّمة كيف تسنّى له الحصول على رقعة ابن الربيب.

ثم يبين ابن حزم ما جاء في تلك الرسالة فيقول : " يذكر فيها أن علماء بلدنا الأندلس، وإن كانوا على الذروة العليا من التمكّن بأفانين العلوم، وفي الغاية القصوى من التحكّم على وجوه المعارف، فإن همهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ،

---

[3] ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة، ص 388.

[4] إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة، ص 347.

[5] المقري : م.س. 158/3.

[6] علي بن محمد : النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس ،431/1.

ومكارم ملوكهم، ومحاسن فقهائهم، ومناقب قضاتهم وفضائل علمائهم، ثم تعدّى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف يحيي ذكرهم، ويُبقي علمهم ،بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدُفن علمه معه".

ثم يواصل ابن حزم حديثه بذكر مجلس يُمن الدولة الذي أمره بكتابة ردّ على رقعة ابن الربيب. وقد استطرد كثيرا في ذكر هذا المجلس والإشادة بيمن الدولة حتى إنك لتخاله انتقل من ردّه على رسالة ابن الربيب إلى مدح يمن الدولة. ومما قال :" ثم لما ضمّنا المجلس الحافل بأصناف الآداب، والمشهد الآهل بأنواع العلوم،والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمترل المحفوف بكل لطيفة وسيعة من دقيق المعاني وجليل المعالي... عند الرئيس الأجلّ، الشريف قديمه وحسبه، الرفيع حديثه ومكتسبه... بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور.... أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم، صاحب البونت، أطال الله بقاءه".

وبعد هذا التقديم الطويل يشرع ابن حزم في الردّ على رسالة ابن الربيب، فيقول : " فأما مآثر بلدنا، فقد ألّف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتبا جمة، منها كتاب ضخم ذكر فيه ممالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة وخواصّ كل بلد منها و ما فيه مما ليس في غيره، وهو كتاب مريح مليح ".

وهو بهذا يرد ما زعمه ابن الربيب من تفريط الأندلسيين في تخلد مآثر بلدهم.

ثم يشرع ابن حزم في بيان فضل الأندلس على غيرها من البلدان، مستدلا بالحديث النبوي فيقول :" وأنا أقول : لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله – صلى الله عليه و سلم- بشّر به ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرّة،في الحديث الذي رويناه... لكفى شرفا بذلك، يسرّعاجله ويغبط آجله". ويذكر الحديث الذي أخبر فيه النبي صلى الله عليه و سلم " بطائفتين من أمته يركبون ثبج البحر غزاة واحدة بعد واحدة"، مؤكّدا أن النبي عنى أسلاف الأندلسيين الذين فتحوا الأندلس، لا فاتحي "إقريطش" أو "صقلية" أو "قبرص".

ثم يتحدث ابن حزم عن موقع موطنه قرطبة من الناحية الفلكية، ويستدل بهذا الموقع على ما طُبع عليه أهلها من التمكّن من العلم. يقول : "وأما في قسم الأقاليم، فإن قرطبة، مسقط رؤوسنا ومعقد تمائمنا، مع " سُرّ مَن رأى" في إقليم واحد . فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا...فكان أهلنا من التمكّن في علـــوم القـــراءات والروايـــات وحفـــظ كثير من الفقه والبصـــر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطبّ والحساب والنجوم، بمكان واحد رحب الفناء، واسع العطن، متنائي الأقطار، فسيح المجال".

و بعد أن يقرّر هذه النظرية الفلكية، يعود إلى مخاطبة ابن الربيب مبيّنا أن زهد الخلف في تخليد مآثر السلف ليـــس مقصورا على الأندلسيين، يقول : " والذي نعاه علينا الكاتب المذكور، لو كان كمـــا ذكر، لكنا فيه شركاء لأكثر أممهات الحواضر، وجلائل البلاد،و متسعات الأعمال : فهذه القيروان، بلد المخاطب لنا، ما أذكر أني رأيت في أخبارها تأليفاً غير " المُعرب.عـــن أخبـــار المغرب"،وحاشا تآليف محمد بن يوسف الورّاق؛ فإنه ألّف للمستنصر -رحمه الله تعالى- في مسالك إفريقية وممالكها ديوانا ضخما... وكذلك ألف أيضـــا في أخبـــار تيهـــرت، ووهران، وتونس، وسلجماسة، ونكور،و البصـــرة[7]، وغيرها تآليف حسانا. ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع، آباؤه من وادي الحجـــارةومدفنه بقرطبة وهجرته إليها، وإن كانت نشأته بالقيروان".

و كأنّ ابن حزم يريد أن يقول لابن الربيب : إذا كنت تفاخرنا بما ألّف محمد ابن يـــوسف الورّاق من تآليف ضخمة في بلاد إفريقية، فإنّه، وإن نشأ بالقـــيروان، أندلسي ، أصله من وادي الحجارة، و هجرته إلى قرطبة و مدفنه بها.

و يشير ابن حزم هنا إلى قضية كانت محلّ اختلاف، وهي قضية نسبة من وُلد في بلد ثم رحل إلى بلد آخر وعاش فيه، حيث يذهب مذهب جمهـــور المؤرّخـــين

---

[7] مدينة بالمغرب .

الذيـــن ينسبون الشخص إلى مكان هجرته . قال ابن حزم : " ولابدّ من إقامة الدليل على ما أشرت إليه ها هنا، إذ مرادنا أن نأتي منه بالمطلب فيما يستأنف إن شـــاء الله تعـــالى، وذلك أن جميع المؤرّخين من أئمتنا السالـــفين والباقين دون محاشاة أحد، بل قد تيقّـــنّا إجماعهم على ذلك، متّفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقرّ بها و لم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها إلى أن مات " . ثم راح يذكر مجموعة من الصحابة نُسبوا إلى مكان هجرتهم، كنسبة علي وابن مسعود وحذيفة إلى الكوفة، ونسبة عمران ابن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر إلى البصرة، ونسبة عبادة ابن الصامت و أبي الدرداء وأبي عبيدة بن الجراح إلـــى الشام، ونسبة عمرو بن العاص وخـــارجة بن حذافة إلى مصر،ونسبة عبد الله بن عبـــاس وعبـــد الله الزبير إلى مكة. ويقرر تلك القاعدة قائلا : " والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصـــصنا : فمن هاجر إلينا من سائر البـــلاد فنحن أحقّ به".

وإذا كان ابن حزم يستدل بهذه القاعدة على تأكيد أندلسية ابـــن الـــورّاق، وذلك في سياق مناظرة ابن الربيب، فإنه كان يقصد أيضا إلى فعل ذلك بالنســـبة إلى كثير من الشخصيات التي وفدت على الأندلس من المشرق أو المغرب، واستقرت بها نهائيا، و ساهمت بنصيب في صنع الثقافة الأندلسية[8].

ثم يعود ابن حزم إلى تأكيد ندرة التآليف بشكل عامّ،وأن الأندلس ليست بدعا من البقاع والممالك الأخرى، في هذا المجال؛ فبغداد العظيمة " حاضرة الدنيا و معدن كل فضيلة" ، و"البصرة وهي عين المعمور"، لا يُعلَم في أخبارها تآليف غير كتـــب قليلة منفردة. ومثلها الكوفة .ثم يذكر أنّه لا يعلم تأليفا قُصد به أخبار الملوك والعلماء والشعراء والأطباء،وذلك بالنسبة إلى خراسان، وطبرستـــان،وجرجـــان، وسجستان، والري، والسند، وأرمينيا.

---

[8] ينظر : إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة ، ص55.

ويكاد ابن حزم يجاري ابن الربيب فيما نسبه إلى أهل الأندلس من التقصير في تخليد مآثر بلدهم،وذلك حين يذكر زهدهم في علمائهم فيقول : " وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر" أزهد الناس في عالم أهله".. و لا سيما أندلسنا: فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثيرا ما يأتي به، واستهجانهم حسناته".

ولعل ابن حزم كان يقصد كذلك نفسه. ونحن نعلم شكواه مما كان يعانيه من قلّة الاعتبار بين مواطنيه. وبائيته الفخريّة المشهورة ناطقة بتلك الشكوى.

ثم ينتقل ابن حزم إلى إحصاء العلماء الأندلسيين ممن عاصروه أو سبقوه،مع ذكر مؤلّفاتهم، حيث أخذ في عدّها بادئا بالفقه، ثم تفسير القرآن الكريم، ثم الحديث النبوي الشريف.ثم ذكر مختلف العلوم، كاللغة،والتراجم، والأخبار، والطبّ،والفلسفة، والعدد، والهندسة، وعلم الكلام، والشعر، والأنساب والتاريخ... ويبدو محيطا بأخبار كل علم من تلك العلوم. وهو أثناء ذلك يُجري مقارنة بين أعلام علماء الأندلس بمؤلّفاتهم، وقرنائهم من أعلام علماء المشرق بكتبهم، ولا سيما في ميادين علوم الدين. ويلاحظ المتتبع لهذه المقارنة الطويلة أن ابن حزم يفضّل علماء بلده وأدباءه على زملائهم المشارقة.

وبذكر هؤلاء الأعلام بمصنّفاتهم يُنهي ابن حزم رسالته الشهيرة في بيان فضل الأندلس وذكر رجالها. وهي تدخل في فنّ المناظرات الأدبيّة، وإن كانت من جانب واحد،لأن رسالة ابن الربيب التي تطلّبت ردّ ابن حزم، ليس فيها إنكار لفضل الأندلس وحطّ من قيمة علمائها،وإنما فيها حثّ للأندلسيين على الحفاظ على تراثهم.وهو القائل منتقدا ابن عبد ربه : " على أنّه يلحق فيه بعض اللوم لا سيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه. أكثر الحزّ و أخطأ المفصل، وأطال الهزّ لسيف غير مصقل"[9]. وإذا كانت الرسالة قد غلب عليها الطابع الجدلي،

---

[9] المقري : م.س.158/3 ؛ ابن بسام : م.س. 135/1.

فذلك عائد إلى " مزاج ابن حزم الحادّ الذي لا يكاد يتناول موضوعات العلم إلاّ من زاوية الردّ الذي لا يخلو من خصومة و عنف" [10].

ومهما يكن، فإن ابن حزم قد اجتهد في إبراز فضل بلده،معدّدا علماءه، محصيا ما صنّفوه من كتب.وقد كان حبّه لوطنه، وغيرته عليه، هما اللذين بعثاه إلى كتابة تلك الرسالة الخالدة.

ب- مقدّمة كتاب " الذخيرة " :

كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" من أشهر الكتب التي أُلّفت في الأدب الأندلسي وتاريخه. وهو مصدر لا يستغني عنه الباحث في الأدب الأندلسي في القرن الخامس الهجري، العصر الذي يهمنا أمره.وكان الباعث الوطني هو الذي حمل صاحبه، ابن بسّام الشنتريني،على تأليفه. ويظهر ذلك جليا لمن يطالع مقدّمة هذا الكتاب.

يستهل ابن بسام تلك المقدمة بقوله [11]:" أما بعد حمد الله وليّ الحمد و أهلـه، والصلاة على سيدنا محمد خاتم رسله، فإنّ ثمرة هذا الأدب، العالي الرتب، رسالةتُنثَر وتُرسّل، وأبيات تُنظم وتُفصّل، تنثال تلك انثيال القطار،على صفحات الأزهار،وتتّصل هذه اتصال القلائد، على نحور الخرائد. ومازال في أفقنا هذا الاندلسي القصي، إلـى وقتنا هذا، من فرسان الفنّين، وأئمّة النوعين، قوم هم ما هم:طيبَ مكاسر، وصفـاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقّق،لعب الدجى بجفـون المؤرّق،وحدوا بفنون السحر المنمّق، حداء الأعشى ببنات المحلّق ؛ فصبّوا على قوالـب النجوم، غرائب المنثور والمنظوم، وباهَوْا غُرر الضحى والأصائل، بعجائب الأشعـار والرسائل : نثر لو رآه البديع لنسي اسمه،أو اجتلاه ابن هلال لولاّه حكمه، ونظم لـو سمعه كُثيّر ما نسب ولا مدح، أو تتبّعه جَرْول ما عوى ولا نبح".

---

[10] علي بن محمد : م.س. 435/1 .

[11] ابن بسام : م.س. 11/1/1.

فهو يشيد بالأدب عامّة، ثم ينوه بما أبدع الأندلسيون من نثر وشعر مدّعيا أنه لو اطّلع عليه أدباء المشرق، كبديع الزمان، و ابن هلال، وكُثيّر عَـزّة، والحطيئة، لبهروا وسكتوا، عجزا عن محاكاته.

ثم يعيب على مواطنيه اهتمامهم بأدب المشرق وإعراضهم عن تراثهم فيقول : " إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتـادة، رجـوع الحـديث إلى قتادة . حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما. وأخبارهم الباهـرة، و أشعارهم السائـرة،مرمى القصيـة، ومناخ الرذية،لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد".

ثم يبدي غيرته على التراث الأندلسي، ويصف ما تجرّد له من إبـراز فضـل الأندلسيين في مجال الأدب، فيقول :" فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة، وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة،مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه.وقديما ضيعوا العلم و أهله،ويا رب محسن مات إحسانـه قبله.وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخصّ أهل المشرق بالإحسان. وقد كتبت لأرباب هذا الشأن من أهل الوقت والزمان محاسن تبهر الألباب، وتسحـر الشعراء والكتاب".

وإذا كان ابن بسام قد تـجرّد لرفع الضيم عن أدب بلده، وتفرّغ للتعريف به وإبراز قيمته، فإنه لم يتعدّ الأدب الأندلسي المعاصر، فقد اقتصر على أولئك الذيـن شاهدهم أو عاصرهم بعض معاصريه، فضلا عن كون ما سبق من الأدب الأندلسـي، قد حظي ببعض الاهتمام. يقول،معلـلا اقتصاره علـى أدب القرن الخامس :" و لم أعرض لشيء من أشعار الدولة المروانية، ولا المدائح العامرية " لأن أبا عامر أحمد بن فـرج الجياني" قد رأى رأيي في النصفة، وذهب مذهبي من الأنفة،فأملـى في محاسن

أهل زمانه " كتاب الحدائق"، معارضا به "كتاب الزهرة" للأصبهاني [12]، فأضربت أنا عما ألّف، و لم أعرض لشيء مما صنّف، ولا تعدّيت أهل عصري، ممن شاهدته بعمري، أو لحقه بعض أهل عصري، إذ كل مردّد ثقيل، وكل متكرر مملول".

ثم يقول منوها بما جمعه في كتابه من إبداع مواطنيه:" وقد أودعت هذا الديوان، الذي سميته بـ" كتاب الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة"، من عجائب علمهم،وغرائب نثرهم ونظمهم، ما هو أحلى من مناجاة الأحبّة بين التمنّع والرقبة، وأشهى من معاطاة العُقار، على نغمات المثالث والأزيار ، لأن أهل هذه الجزيرة ـ مذكانوا- رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة،تدفّقوا فأنْسوا البحور، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور؛ وذهب كلامهم بين الهواء، وجزالة الصخرة الصماء".

وتبدو النزعة الوطنية،فضلا عن المقدّمة،في كثير من صفحات كتاب"الذخيرة " يقول ابن بسام في وصف قرطبة [13] –مثلا- :"وحضرة قرطبة منذ استُفتحت الجزيرة، هي كانت منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أهل الفضل والتقى،ووطن أولى العلم والنهى،وقلب الإقليم، ينبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صواب العقول، وبستان ثمر الخواطر، وبحر درر القرائح؛ ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر،وفرسان النظم والنثر، وبها انتشأت التأليفات الرائعة . والسبب في ذلك، وتبريز القوم هنالك قديما وحديثا على من سواهم،أن أفقهم القرطبي،لم يشتمل قط إلا على أهل البحث والطلب، لأنواع العلم و الأدب. وبالجملة فأكثر أهل بلاد هذا الأفق أشراف عرب المشرق افتتحوها،وسادة أجناد الشام والعراق نزلوها،فبقي النسل فيها بكل إقليم، على عرق كريم،فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر،إن مدح ما

---

[12] هو محمد بن داود الظاهري.

[13] ابن بسام : م.س. 1/1/33-34.

كُثيِّر عنده بكثير،وإن هجا أجرّ لسان جرير،وعدا عديّا عن مدح ذويه،وأنسى جَرْولا العواء في إثر قوافيه؛ وإن تغزّل أربى على الساحـــرات فنونا، وأزرى بالغانيات مجونا".

و هكذا يتجلّى الاتجاه الوطني في نثر ابن بسام في كتابه "الذخيرة" ولا سيما في المقدّمة.وإذا كان ابن بسّام يبدو مبالغا في ذكر محاسن بلاده،مغاليا في تفضيل أدبـــها على أدب المشرق، فما ذلك إلا نتيجة لحب طافح و شعور فيّاض.

2-الدعوة إلى الجهاد،و طلب الإغاثة :

بيّنا في الفصل الأول ما نجم عن حركة الاسترداد المشؤومة من ضياع كثير من أجزاء الأندلس و سقوط كثير من مدنها ، كما بيّنا كيف تتبّع الشعر الأندلسي تـــلك الأحداث،باكيا ما سقط في أيدي النصارى من مدن الأندلس وأجزائها،حاثا المسلمين على استخلاصها، مستنهضا الهمم بوصف ما حلّ بسكانها...

و كما تعالت صيحات الشعراء الأندلسيين، إثر الـــهزّات الخطيرة التي أصـــابت بلادهم، تنبّه الكتّاب إلى ما كان يدور حولهم من الأحداث، فاضطلع النثر الأندلسي بواجبه الوطني، إذ دعا بعض الكتاب إلى الجهاد لاستخلاص ما أُخذ، ولحماية ما بقي، كما استغاث بعضهم بالمرابطين لنصرتهم.

أ- *الدعوة إلى الجهاد :*

تحرّكت أقلام بعض الكتّاب الأندلسيين لما أحسّوا بخطورة حركة الاســـترداد، فنبّهوا الملوك والرعيّة عليها.وأخذوا يصوّرون ما بـــدأ يحلّ بديار الإسلام من النهب والدمار، و بالمسلمين من الإبادة و السبي و التهجير . ثم أخـــذوا يستنفرون المسلمين كافّة لإنقاذ بلاد الإسلام من الخطر الذي حلّ بهـــا، منبهين أثنـــاء ذلك على الواقع الأليم، حتى يبعثوا على اليقظة والنهوض لإنقاذ ما يمكن إنقاذه والحفاظ على ما بقي، ومحذّرين من مغبة التخاذل على مصير المسلمين بالأندلس.

و قد تعددت النداءات التي صدرت عن بعض الواعين من أبناء الأندلس،داعية إلى الجهاد، مستنهضة لعزائم أولي الأمر وعامة المسلمين. وسأعرض فيما يلي،لبعض ما صدر في هذا الموضوع.

- **منشور ابن عبد البر النمري :**

كـــان أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر النمري من أعلام الكتـــاب الأندلسيين في القرن الخامس الهجري، كتب عن المعتضـــد بن عبّاد، وتنقّل بين ملوك دول الطوائف، ثم استقر في دانية حيث وافتـــه المنية سنـــة 458 هـــ [14]. قال الفتح ابن خاقان منوها به [15] : " بحـــر البيان الزاخـــر، وفخـــر الأوائل والأواخر، وواحد الأندلس الذي فاز بها بحظ الظهور، وحاز قصب السبق بيـــن ذلك الجمهور، وامترى أخلاف اســـعادها، وسقى صوب عهادها، واستقر في مراتب رؤســـائها، استقرار الفلك عند إرسائها".

و لما استقر بدانية كان أميرها هو علي بن مجاهد، فكتب إليه على لسان أهـــل "بربشتر"،رسالته المشهورة، وذلك إثر نكبة مدينتهم سنة 456هـــ. ، كما بينا. وقد وُزّعت هذه الرسالة في جميع أنحاء الأندلس، فطارت لكاتبها شهرة واسعة.

و ليس بين أيدينا نص هذه الرسالة كاملا.وكل ما عندنا هو تلك الفصول التي اختارها ابن بسام و سجلها في كتاب " الذخيرة " [16]. و ليته أثبت تلك الرسالة كاملة، وذلك لما لها من الأهمية الأدبية والتاريخية.

وعنوان تلك الرسالة، أو على الأصح ذلك المنشور، طويل هو :" من الثغـــور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعروة الدين، المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتآلفين على

---

[14] ينظر : العماد الأصفهاني : م.س. 166/2.

[15] قلائد العقيان، ص 180.

[16] ق 3، م 1، ص 173 و ما بعدها.

الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سنة الرسول محمد -نبي الرحمة وشفيع الأمة – إلى من بالأمصار الجامعة،والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس، من ولاة المؤمنين".

و في هذا العنوان تعظيم للصفة العقدية لأهل الرباط والجهاد من أهل بربشتر وإيمانهم بالإسلام وقيمه ومثله وشعائره، وإشادةٌ برباطهم في ذلك الثغر،مجاهدين لدفع الخطر عن معاقل المسلمين، ومخاطبةٌ لأمراء الأندلس ورعاياهم.

و بعد ذلك العنوان يستهل ابن عبد البر منشوره بما يلي : " سلام عليكم، فإنا نحمد الله إليكم حمد من أيقن به ربا، وجعله حسبا، ولي المؤمنين، وغياث المستغيثين...".

ثم يستنفر على لسان أهل بربشتر أهل الأندلس وأمراءهم، مصورا حالهم، إثر المأساة العظيمة التي حلت بهم، والداهية الدهياء التي أصابتهم، فيقول:" أما بعد، حرسكم الله بعينه التي لا تنام، فإنا خاطبناكم مستنفرين، وكاتبناكم مستغيثين، وأجفاننا قرحى، وأكبادنا حرى، ونفوسنا منطبقة، وقلوبنا محترقة،على حين نشر الكفر جناحيه، وأبدى الشرك ناجذيه، واستطار شرر الشر، ومسنا و أهلنا الضر . أحسن ما كنا بالأيام ظنا، وملتنا ظاهرة، وفئتنا متناصرة، لا تشل لنا يد، ولا يفل لنا حد، حتى انقلبت العين، وبان الصبح لذي عينين".

فهو يذكر الحالة التي كانوا عليها قبل أن تحل بهم النكبة، ثم يصف ما آل إليه أمرهم لما حلت بهم.

ثم يقول جانحا إلى الحكمة، مستغيثا بالمسلمين لنصرة أهل بربشتر، مذكرا بالوشائج التي تربطهم، داعيا إلى الاتعاظ بما حدث : "وأي أمان من زمان، قلما يخضر منه جانب إلا جف جانب، ولا تبرق منه بارقة إلا أتبعتها صاعقة، إلا ما وقى الله. ونبئكم –معشر المسلمين- بعض ما نابنا في ثغورنا عسى أن تكونوا سببا لنصرتنا. فالمؤمنون إخوة، والمسلمون لحمة، والمرء كثير بأخيه، وإلى أمه يلجأ اللهفان، وإلى

الصوارم تفزع الأقران، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من عميت عيناه، وصمت عن الموعظة أذناه. ونقصّ عليكـــــم مـــــن نبأنا [17] وما انتهت إليه حـــال ملأنا[18]،ما –والله- يوجع القلوبَ سماعه، كما قصم الظهور وأسخن العيون اطلاعه".

ثم يصف الضائقة التي عاشوها أثناء الحصار الرهيب الذي فصلنا الحديث عنه في الفصل الأول من هذا البحث، فيذكر كيف ضيق الأعداء عليهم قائلا :" فأحاطت بنا كإحاطة القلادة بالعنق، يسوموننا سوء العذاب بضروب من الحرب، آناء ليـــلـــــها ونهارها، تصب علينا صواعقها، وترمي إلينا بوائقها".

وبعد ذلك ينقل الكاتب صورة ما حدث لأهل بربشتر على يد الأعداء لمـــــا دخلوا المدينة .يقول :"فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما رأت منا العيـــون من انتهاك النعم المدّخـــرات،ومـــا تكشّف من تلك العورات المستّرات، فلو رأيتـم – معشر المسلمين- إخوانكم في الدين، وقد غُلبوا على الأموال و الأهلين، واستحكمت فيهم السيـــوف، واستولت عليهم الحتوف، وأثخنتهم الجراح،وعبثت بهم زرق الرماح، وقد كثرالضجيج والعويل والنياح، ودماؤهم على أقدامهم تسيل، سيل المطر بكل سبيل، ورؤوســـهم قدامهم تطير، وقلوبهم في أجسادهم تستطير، ولا مغيث ولا مجير، وقد صمت الآذان بصراخ الصبيان،ونياح النسوان، وبكاء الولدان،وعلت الأصوات، وفشت المنكرات.."

فقد وصف ما حل بأهل بربشتر الذين استهدفوا فناءهم، إذ قتلوا الرجال، وسبوا النساء والأطفال، وانتهكوا الأعراض واستولوا على الممتلكات... كما أشار إلى تخاذل ملوك الطوائف وغيرهم من مسلمي الأندلس عن نجدتهم. وقد أراد ابن عبد

---

[17] كذا كتبت اللفظة في كتاب " الذخيرة ".

[18] كذا كتبت اللفظة في كتاب " الذخيرة ".

البر، بهذا الوصف، استثارة نفوس الأندلسيين، و بخاصة ملوكهم ، ليقوموا بواجبهم تجاه هـــذا الجزء من بلادهم ،و هذه الطائفة من إخوانهم.

ثم يأخذ في تصوير عناصر المأساة التي أصابت المسلمين في ذلك الجزء مـــن بلادهم، فيذكر أن هذه النكبة مسّت كل مقومات الوجود الإسلامي في تلك المدينة. ومما يذكر، من مظاهر تلك المحنة : تحويل المساجد إلى كنائس، وإحراق بعضـــها، وإحـــلال أصوات النواقيس محل الأذان، وتمزيق المصاحف، والاعتـــداء على الأملاك والأرواح، وغيرها. يقول : " تمرد الشيطان، واشتهر الطغيان، وظهرت الصلـــبان، وأفصحت النواقيس، وجلحت الأباليس، وسعرت طغاة الخنـــازير، وصـــارت الدوركالتنانير، دماء تُسفك، وستور تُمتك، وحرم تُنتهك، ونعم تُستهلك، وأقفـــاء تُصفع، و أعضاء تُقطع، و أعياث تُرتكب، و أثاث يُنتهب، و مصاحـــف تُمـــزّق، ومساجد تُحرق، فلا الأخ يغني أخاه، و لا الابن يدعو أباه، و لا الأب يـــدني بنيه... و لا المرضعة تلوي على رضيعها، و لا الضجيعة ترثي لضجيعها، كأنهم في مثل اليوم الـــذي ذكره الجليل، في محكم التنزيل : (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى)[19]".

ثم يحاول ابن عبد البر أن يقرع ضمائر المسلمين علّهم ينهضون لنصرة دينـــهم ورفع الضيم عنه، موضّحا لهم أن الصراع صراع عقـــديّ قبـــل كـــل شيء. يقول مستثيرا تلك الضمائر : " و ما ظنّكم – معشر المسلمين- و قد رأيتـــم الجوامـــع والصوامـــع بعد تلاوة القـــرآن،و حلاوة الأذان، مُطبقة بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضا من شيعة الرحمن، و الأئمة و المتديّمون و القومة والمؤذّنون يجرهم الأعلاج كما تُجرّ الذبـــائح إلى الذابـــح، يُكبّـــون على وجوههم في المساجد

[19] سورة الحج ، الآية 2.

صاغرين. ثم أضرمت عليهم نارا[20] حتى صاروا رمادا، و الكفر يضحك و ينكي، والدين ينوح و يبكي".

ثم يصرخ محاولا تحريك نفوس المسلمين، وبخاصة ملوك دول الطوائف، بعد أن اعتادوا الخنوع، وإثارة غيرتهم على الدين بعد أن اعتادوا الدنية فيه،والسكوت على انتهاك قدسيته، فيقول :" فيا ويلاه،ويا ذلاه، ويا كرباه،ويا قرآناه، ويا محمداه، ألا ترى ما حل بحملة القرآن، وحفظة الإيمان، وصُوّام شهر رمضان، وحُجّاج بيت الله الحرام، والعاكفين على الصلاة والصيام، والعاملين بالحلال و الحرام. فلو شهدتم – معشر المسلمين-ذلك لطارت أكبادكم جزعا، وتقطّعت قلوبكم قطعا، واستعذبتم طعم المنايا لوضع تلك الزوايا، ولهجرت أسيافكم أغمادها، وجفت أجفانكم رقادها،امتعاضا لعبدة الرحمن، وحفظة القرآن، وضعفة النساء و الولدان، وانتقاما من عبدة الطغيان، وحملة الصلبان".

ثم يتجاوز مشاعر الهزيمة واليأس، و يدعو إلى النفير والجهاد، ويذكّر بالنصوص الدينية التي وردت في هذا الواجب المقدّس، محذّرا من عاقبة التهاون ومغبّة التقاعس. يقول :" وقد ندب الله مسلمي عباده، إلى الجهاد في غير ما آية من الكتاب، يضيق عن نصها الخطاب، ترغيبا وترهيبا، فوعد المطيعين جزيل ثوابه، والعاصين أليم عقابه. والرواية عنه،عليه السلام، وما يجازي فيه رب العباد، أشهر من أن تُذكَر، وأكثر من أن تُحصَر. فالله الله في إجابة داعينا،وتلبية منادينا، قبل أن تُصدَع صفاتنا، كصدع الزجاج،وهناك لا ينفع العلاج".

ثم يحاول ابن عبد البر أن يبعث الأمل في النفوس،ويبيّن الأسباب التي أدّت إلى ما وصل إليه المسلمون من الضعف والهوان،فيقول :" لابد للحق من دولة، وللباطل من جولة، والحرب سجال، والدهر دول، و(لكل أمة أجل)، ولولا فرط الذنوب، لما كان لريحهم علينا من هبوب، ولو كان شملنا منتظما، وشعبنا ملتئما، وكنا كالجوارح في

---

[20] كذا وردت في " الذخيرة"، و الأصح بالرفع، لأنها نائب فاعل.

الجسد اشتباكا، وكالأنامل في اليد اشتراكا، لما طاش لنا سهم، ولا سقط لنا نجم،ولا ذلّ لنا حزب، ولا فُلّ لنا غرب،ولا رُوّع لنا سِرْب، ولا كدر لنا شرب، ولكنا عليهم ظاهرين إلى يوم الدين".

ويشترك ابن عبد ربه، في تشخيص أسباب الهزيمة، مع ابن العسال الذي كان يرى -وهو يصف مأساة بربشتر- أنّ "الذنوبَ الداءُ".

ثم يعود إلى التحذير منبها إلى أن الصراع ما زال في بدايته، وأنه سوف يكون لهذا المد العدائي مدى بعيد، وأن المأساة لن تقتصر على بربشتر،وإنما هو كالبركان الذي يصيب بحممه الداني والقاصي، أو كالطوفان الذي سيغرق الأندلس كلها. ثم يحثهم على أن يدركوا خطورة الأمر قبل أن يستفحل ، و أن يبادروا إلى نجدة أهل بربشتر الذين كانوا جُنّة لهم تحميهم من أعدائهم . يقول : " الحذر الحذر ! فإنه رأس النظر، من بُركان تطاير منه شرر مُلهب، وطوفان تساقط منه قطر مرهب، قلما يُؤمَن من هذا إحراق، ومن ذلك إغراق؛ فتنبهوا قبل أن تُنبَّهوا، وقاتلوهم في أطرافكم، قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم، قبل أن يجاهدوكم في دوركم. ففينا متعَظ لمن اتعظ، وعبرة لمن اعتبر. فانظروا إلى ثغورنا كيف تُمتضَم، وإلى أطرافنا كيف تُخترَم وفيئنا كيف يُقتسم، وأموالنا كيف تُصطلم، ودماؤنا مطلولة، وحدودنا مفلولة، وأنتم عنها لاهون، في غمرة ساهون ، وكأنا لِسنا منكم و لا نحن سداد دونكم مضروبة، وجُنَن نحوكم منصوبة".

وقد وقع ما تنبأ به ابن عبد البر وخشيه،ودعا إلى تفاديه.فما إن اهتُضمت الثغور واختُرمت الأطراف، حتى تساقط ما دونها كحبّات العقد.

ويختم ابن عبد البر رسالته الطويلة، التي حرمنا ابن بسام الاطلاع على بعضها، بمثل ذلك التحذير الحازم. وفي ذلك يبدو وعي الكاتب وقدرته على استشراف الغيب من خلال الواقع برؤية عقلية و إحساس صائب. يقول :" وإنه إن استُلبت الأطراف، لم تتعذّر الأنصاف، والبعض للبعض سبب، والرأس من الذنب .غير أنا دعونا وبعدتم،

وشقينا وسعدتم، ورأينا وسمعتم، وليس الخبر كالعيان، ولا الظن كالعرفان، وقد آن أن يبصر الأعمى، وينشط الكسلان، ويستيقظ النومان، ويشجع الجبان".

ونحس في هذه الخاتمة عتابا خفيفا لمن يستبعدون الخطر ولا يبالون، ويشقى إخوانهم وهم يسعدون، كما نشعر فيها بأمل طفيف يطرد بعض اليأس الذي غمر النفوس.

ويبدو أن ابن عبد البر قد نجح في التأثير في أهل الأندلس، فكان لرسالته صدى واسع على الصعيد الخاصّ لدى الفقهاء والكتّاب، وعلى الصعيد العامّ عند مختلف طبقات الناس.

على أن هذه الرسالة لم يكن لها أي صدى على المستوى الأعلى، مستوى الحكام، فقد ذهبت "كلاما يُزجَى فلا يجد سميعا"[21]. وكان للتهاون في التصدي لغزاة بربشتر أثره في تطور الأحداث نحو ما حذّرت منه رسالة ابن عبد البر، فقد توالى سقوط الثغور، وأخذ ظلّ الإسلام ينحسر عن شمال البلاد. وكانت تلك بداية النهاية.

وقد أثارت مأساة بربشتر ومعاناة أهلها مشاعر غير واحد من كتاب الأندلس، وامتدّ صداها على نطاق واسع. وذلك لكونها أولى النكبات التي حلت بالبلاد، وأبشعها وقعا، وأعظمها خسائر، إذ فني كثير من سكان تلك المدينة، وانتُهبت أموالهم،ونال الأسر أو السبي من بقي حيّا منهم.

- *رسالة أبي حفص الهوزني*

أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني واحد من فقهاء الأندلس وأدبائها في العصر الطائفي.رحل إلى المشرق لطلب العلم، ثم عاد إلى الأندلس واستوطن "مرسية". وكان بينه وبين المعتضد بن عباد " ائتلاف الفرقدين، وتضافر اليدين". وقد استحوذ

---

[21] إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف و المرابطين، ص 181.

الهوزني على قلوب أهل إشبيلية فخشي المعتضد منه على مكانتـه فأصبـح يكنّ له الضغينة، ثم كانت نهايته على يده[22].

وإذا كانت رسالة ابن عبد البر نداء عاما للنفير والجهاد، وجهه إلى سكان جزيـرة الأندلس دون تخصيص أو استثناء، فإن أبا حفص الهوزني قام باستنهاض أمير بعينـه، وخصّه بالدعوة إلى القيام بإنقاذ أهل " بربشتر" والانتقـام لهم ، دون غيره من أمراء الجزيرة، حيث خمن أن لديه القدرة على ذلك، وأنه لا عذر له عن التخاذل وعدم تلبية داعي النفير. فاختار صديقه المعتضد وخصه بهذه المهمة الجليلة التي قعد عنها جميـع أمراء الجزيرة الذين كان المعتضد أقواهم. فأرسل إليه يستثير عزيمته، ويستنهض حميته على الجهاد، ونصرة مسلمي بربشتر وغيرهم من مسلمي الثغور الذين كان المصـير نفسه ينتظرهم.

ورسالة الهوزني مزيج من النثر والشعر.بدأها بأبيات يصف فيها ما حـلّ بالمسلمين من المحن والبلاء، مما يشغل العقل و يذهب القلب. يقول منها[23] :

"أَعَبَّادُ جَلَّ الرُّزْءُ وَالقَوْمُ هُجَّـعُ　　　عَلَى حَالَـةٍ، مَـنْ مِثْلِهَـا يَتَوَقَّعُ

فَلَقِّ كِتَابِي مِنْ فَرَاغِكَ سَاعَـةً　　　فَإِنْ طَالَ، فَالْمَوْصُوفُ لِلطُّولِ مَوْضِعُ

إِذَا لَمْ أَبُثَّ الدَّاءَ رَبَّ دَوَائِـهِ　　　أَضَعْتُ ، وَأَهْلٌ لِلْمَـلَامِ المُضَيِّـعُ

فهو ينبه المعتضد إلى أن الخطب جلل، وأن القوم عنه غافلون. ثم يطلب منـه أن يهتم بكتابه وإن طال. ثم يؤكد ضرورة التنبيه على الداء حتى لا يضيع الدواء ويـحق اللوم.

ثم يبدأ في وصف حال أهل "بربشتر" وتصوير ما أصابهم، فيقول :" وكتابي عـن حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد، كما يغبر لورودها وجه الصعيد، بدؤها ينسـف الطريف والتالد، ويستأصل الوليد والوالد، تذر النساء أيامى، والأطفال يتامى. فلا أيمة

---

[22] ابن بسام : م.س.، ص 83.

[23] ينظر : ابن بسام : م.س. 2/1/81-82؛ ابن بشكوال : كتاب الصلة 380/1.

إذا لم تبق أنثى، ولا يتيم والأطفال في قيد الأسرى، بل تعم الجميع جما جما، فلا تخص، وتزدلف إليهم قدما فلا تنكص".

فهو يصور عموم تلك الكارثة وقساوتها.

ثم يصف مأساة الإسلام في تلك المدينة، فتلك النكبة قد" عمت حتى خيف على عروة الإيمان الانفضاض، وطمّت حتى خُشي على عمود الإسلام منها الانقضاض، وسمت حتى تُوقع على جناح الدين الانهياض".

ثم بعد ذلك ينكر على المسلمين صمتهم و تخاذلهم عن نصرة أهل بربشتر، وكأنهم لم يسمعوا بالآيات القرآنية الداعية على الجهاد، ويتهمهم بضعف الإيمان، وبالجبن عن مواجهة الأعداء. ويهيب بالمعتضد ليتدارك الأمر. يقول:" كان الجميع في رقدة أهل الكهف، أو على وعد صادق من الصرف و الكشف. و أنى لمثلها في الدفاع عن الحريم، ولما يمتثل أدب العزيز الحكيم، في قوله*: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)، وقوله تعالى**: (وَلَهُدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ). ومن أين لنا دفعهم بالكفاية أو كيف، ولم نمتط إليهم الخوف، ونساجلهم السيف، بل لما يرأب من صدوعهم ثَلْم، ولا ذووي من جراحهم كَلْم، ولا رُدّ في نحورهم سهم: إن حاربوا موضعا أرسلناه، أو انتسفوا قطرا سوّغناه. وإن هذا لأمر له ما بعده إلا أن يُسنيّ الله على يديك دفعه وصده". ويختم الهوزني هذه الفقرة بثلاثة أبيات شعرية يتم بها المعنى.

ثم يرسم صورة للحرب فيظهرها بأسا شديدا لا يُطاق، وهي تحتاج إلى تضحيات لا يقوى عليها إلا قلة قليلة تخوض غمارها، وتصبر على شدائدها، وتتحمل لأواءها، وتعد لها عدتها. وكأنه كان يعرّض بملوك دول الطوائف، ويندّد بجنبهم وتخاذلهم واتقائهم للحرب وويلاتها. يقول:" الحرب في اجتلائها حسناء عروس تطبي الأغمار بزينتها، وفي بنائها شمطاء عبوس تختلي الأعمار غرتها، فالأقل للهبها وارد، والأكثر عن شهبها حائد. فأخلق بمحيد عن مكانها، وعزلة في ميدانها؛ فوقودها شكة السلاح،

* البقرة : 151.
** الحج : 40.

وفرندها مساقط الأشباح، وقتارها متصاعد الأرواح؛ فإن عسعس ليلها مدة من الانصرام، أو انبجس وبلها ساعة الانسجام، فيومها غسق يرد الطرف كليلا، ونبلها صيّب يزيد الجوف غليلا".

ويورد بعد ذلك ثلاثة أبيات يستنصر فيها بصديقه المعتضد ذاكرا أنه هو الوحيد الذي تُعلّق عليه آمالهم في ردّ العدوان. يقول فيها :

أَعَبَّادُ ضَاقَ الذَّرْعُ وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ ... وَلَا غَرْبَ لِلدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَكُنْ شَرْقُ

وَدُونَكَ قَوْلاً طَالَ وَهْوَ مُقَصِّرٌ ... فَلِلْعَيْنِ مَعْنىً لَا يُعَبِّرُهُ النُّطْقُ

إِلَيْكَ انْتَهَتْ آمَالُنَا فَارِمْ مَا دَهَى ... بِعَزْمِكَ، يَدْمَغْ هَامَةَ الْبَاطِلِ الْحَقُّ

ثم يشيد به ويحثه على الإقدام فيقول:" وما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها، ولا أرجى الدليل من ناط الأمور بأربابها. ولرب أمل بين أثناء المحاذير مدمج، ومحبوب في طي المكاره مدرج؛ فانتهز فرصتها فقد بان من غيرك العجز، وطبّقْ مضاربها فكأنْ قد أمكنك الحزّ... ومازلت أعتدّك لمثل هذه الجولة وَزَرا، وأدّخرُكَ في مُلمّها ملجأ وعَصَرا، لدلائل أوضحت فيك الغيب، وشواهد رفعت من أمرك الريب".

ثم يقول،موضحا،و منوها بالمعتضد وسلفه: " ... فقد كان ظهر قديما من اختلال الأحوال ما أيأس، وتبين من فساد التدبير ما أبلس، حتى تدارك فتقَ ذلك سلفُك، فرتقه جميلُ نظرهم ورأْبَه، وصرفه مشكور أثرهم وشعبه... ثم توليتَ فكَفَيْتَ، وخلفتَ فأربَيْتَ... فالناس مذ بوّأتهم رحبَ جنابك في عطن يربي على لين الدمقس، وتحت منن تعلو على منى النفس... ففضلكم في الأعناق أطواق، ومجدكم للآفاق إشراق، وحيثما حللتَ:الأرضُ عراق، فأنا أول من هو إلى تلك الحضرة مشتاق، فلا تحرمني وصلا كنتُ جاهدا في إنباطه، ولا تصدني عن منهل كنت صدرا في فُراطه...".

إن هذه الرسالة – كما يبدو من مختلف أجزائها- قد بعث على كتابتها شعور وطني حادّ. وإذا كان كاتبها قد فضّل أن يتوجه بها إلى المعتضد بن عباد، فما ذلك إلا

لإدراكه عجز غيره عن الاستجابة لندائه. فهل أصاب الهوزني في اجتهاده، وحقّق المعتضد أمله؟

إن رد فعل المعتضد كان أكثر خساسة وأشد نذالة؛ فقد استدرج الهوزني إلى إشبيلية سنة 458 هـ وقتله بيده على نحو ما سيفعل ابنه المعتمد بوزيره أبي بكر بن عمار. فهل صدقت عبارات الهوزني، التي ختم بها رسالته، على حاله مع المعتضد؟ لقد قال في تلك الخاتمة :" فمن طلب النبل في غير معادنه، واستثار الخير من غير مكانه، أعجزه من مطلبه مرامه، وطاشت في سهمه أقلامه، بل قد ضلّ السبيل، واعتسف الفلاة بغير دليل، فسقط العشاء به على سرحان...".

على أنه مهما كان انتقادنا لما فعل المعتضد بالهوزني فإننا نجد ما قد يبرر فعله ويرفع عنه اللوم الكبير؛ فقد أحرج الهوزني المعتضدَ وأوقعه بين أمرين أحلاهما مر": فإن هو أقدم على قتال العدو خشي أن تلحقه الهزيمة، وإن هو أحجم عن ذلك عُدّ جبانا[24] ؛ فلجأ إلى تلك الطريقة الخسيسة ليُسكت ذلك الصوت الذي علا شأن صاحبه في إشبيلية، ورقيت مكانته في نفوس أهلها.

- *خطبة ابن أبي الخصال*

كان أبو عبد الله بن أبي الخصال من أبرز كتاب الأندلس في عصر المرابطين. قال الفتح بن خاقان منوها به[25] :" حامل لواء النباهة، الباهر بالروية والبداهة، مع صون ووقار... وقول أصفى من ذي الفقار. وله أدب بحره يزخر، ومذهب يباهي به ويفخر... فقد تميز بنفسه، وتحيز من جنسه، وظهر بذاته... والذي ألحقه بالمجد، وأوقفه بالمكان النجد، ذكاء طبع عليه، ونجم في تربة النباهة غربه ونبعه".

---

[24] ينظر: إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص180.

[25] الفتح بن خاقان :م.س.، ص 174.

ولابن أبي الخصال عدة خطب؛ منها واحدة في الشكر على نزول غيث ، وأخرى في عيد الأضحى، وثالثة في الحض على الجهاد[26]، وهي التي يهمنا أمرها في هـــذا الحديث.

يستهلها بمقدمة معهودة في الخطب المنبرية، فيحمد الله و يثني عليه، ويذكر نعم الله على الخلق ومشيئته فيهم، فيقول :" الحمد لله الذي لا تُعَدّ سوابق نعمه، ولا تُـــحَدّ علائق عصمه، ولا تُرَدّ بوائق نقمه، الذي فضح البرية عدله، ووسعتهم رحمته وفضله؛ قدر أرزاقهم وأعمارهم، وأحصى أنفاسهم وكتب آثارهم، ووكل بهم ليلهم ونهارهم. فكل يتحرى مطالعه على أن يبلغ منتهاها، ويتقرى مضاجعه حتى يبيت بأقصاها، من رضيَ حتمه فمن السعداء، ومن سخط حكمه فليمدد بسبب إلى السماء. أحمده حمد المؤمن بدوامه وبقائه".

ومما جاء في هذه الخطبة قوله معاتبا المسلمين على تخاذلهم عن رد العدوان، وموبخا إياهم على ما اقترفوا من ذنوب، تلك الذنوب التي كانت سببا في كل ما وصلوا إليه من هوان :" ألا تستوحشون لتباريح العصر، وركود ريح النصر، وتداعي أمم الفكر، وإجفالنا عن مقاومتهم إجفال العفر؟ ألا نقلع عن الذنوب التي فتت في أعضـــادنا، وقضت باهتضامنا واضهادنا ؟ وأقسم بالله ما انقلب حال الدهر، ولا سلبنا عـــادة الظهور والقهر، ولا نكل الأبطال، ولا أخلفنا الغيث الهطال، ولا رُفعت علينا مـــن الرعب جبال، لا تظهر ولا تطال، ولا غير الله نعمنا، ولا خذلنا ولا أسلمنا، إلا لمـــا عهد إلينا وأعلمنا، إذ يقول سبحانه: (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَـــوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّـرُوا مَـــا بِأَنفُسِهِمْ)".

وإذا كان ابن أبي الخصال قد اعتمد على فنّ الخطابة لتنبيه الأندلسيين إلى واقـــع بلادهم، ولبعث روح الجهاد في نفوسهم التي غلب عليها الركود والاستسلام للأمـــر الواقع –فإنّه يذهب، في تعليل ذلك الواقع الأليم، مذهب بعض الشعراء الذين ذكرهم

---

[26] إحسان عباس : م.س.، ص 286-287.

في الفصل الثاني في ردّ ذلك إلى ما ارتكب الناس من ذنـــوب ؛ فهو يرى، مثلهم، أن تلك الذنوب هي السبب في الانهزام أمام الأعداء بل إنّه ليذهب إلى أنّها السبب في أشياء أخرى.

ب- *طلب الإغاثة*

تبيّن ممّا سبق أنّه لما أصبحت مدن الأندلس الشمالية في خطر، وأخذ الأعـــــداء يستولون عليها الواحدة تلو الأخرى، قام أصحاب الضمائر الحيّة و العقول الرشيـــدة من كتّاب وشعراء وغيرهم بإطـــلاق صيحاتهـــم منبّهين أولي الأمر علـــى ما يحدث لأطراف بلدهم، ومحذّرين من مغبة التهاون،على مصير الأندلس كلّها. ولكنّ نداءاتهم ذهـــبت حديثا يُزجَى لم يجد لـــه مجيبا. عند ذلك طُرحت قضيّة الأندلس على نطاق أبعد،حيث قام بعض الواعين من أبنائها ينشُدون الإغاثة من دولة المرابطين التي كانت آنذاك دولة قويّة، فتوجّهوا إلى أميرها يوسف بن تاشفين، مستنصرين به على أعدائهم، متوسّلين إلى ذلك بالأخوّة الدينيّة. وأكتفي بمثال واحد من تلك الرسائل الموجّهة إلى الأمـــــير المرابطي، هو رسالة الكاتب محمد بن أيمن.

وهو أبو عبد الله محمد بن أيمن، الوزير الكاتب. كان من أعلام النثر والنظم فـــي الأندلس. استوزره المتوكّل بن الأفطس صاحب بطليوس. قال فيه ابن بسّـــــام[27] : " وكان أبو عبد الله محمد بن أيمن بأفقنا أعجوبة الدهر، وفريد العصر، وفارس ميدان النظم والنثر؛ اشتهر في حَمَلة الأقـــلام،اشتهـــار البـــدر في السماء، وتلاعب بغرائب الكـــلام،تلاعب الأفعال بالأسماء".

ويذكر ابن بسّام أنّه لما اشتدّ شره الروم بالمسلمين في إقليم الأندلس، استصـــــرخ ملوك الطوائف أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ،رحمه الله، فكتب إليه محمد بن أيمن، عن صاحبه المتوكّل بن الأفطس، رسالة[28] تدخل في إطـــار

---

[27] الذخيرة: 652/2/2 .

[28] م.ن.، ص 655 .

التقارير الرسمية، بالمفهوم الحديث. يقول في أولها :" لماّ كان نور الهدى ــ أيّدك الله ــ دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك،ووفقت في الجهاد عزائمـــــك، ووضح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعزّ ناصـــر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تُستدعَى لما أعضل من الداء، وتُستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء".

فهو ينوّه بيوسف بن تاشفين، مشيدا بصلاحه وتجرّده للجهاد، ونصرته للـــــدين، وقدرته على غزو المشركين، وذلك حتى يهيّئ نفسه فيستجيب لدعوته.

ثم يعرض ما حلّ بالمسلمين بجزيرة الأندلس، فقد تكالب العدو عليهم ، واسترف خيراتهم وأذلّهم وطمع في احتلال أرضهم ... يقول :" فقد كانت طوائف العـــدوّ المطيفة بها – أهلكهم الله – عند إفراط تسلّطها واعتدائها، وشدّة كلبها واستشرائها، تُلاطَف بالاحتيال، وتُسترَل بالأموال، ويُخرَج لها عن كل ذخيرة، وتُسترضَى بكـــل نفيسة خطيرة. ولم يزل دأبها التشطّط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى استُصفي الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطأه القتل منهم فإنّما هم بأيديهم أسرى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد همّوا بما أرادوا من التوثّب، وأشرفوا على ما أمّلـــوه مـــن التغلب".

ثم يصعّد الكاتب لهجته، مستغيثا، مستنكرا ما آل إليه أمر الإسلام بالأندلس من ذلّ وهوان، وذلك ليثير العاطفة الدينيّة لدى ابن تاشفين فيهبّ للنجدة. يقول" فيا لله وللمسلمين !! أيسطو بالحقّ الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيـــمان الكفر، ولا يكتنف هذه الملّةَ النصر؟. ألا ناصر لهذا الدين المهتضَم، و لا حامي لـــما استُبيح من حمى الحرم !! و إنا لله على ما لحق عرشَه من ثلّ، وعزّه من ذلّ، فإنهـــا الرزيّة التي ليس فيها عزاء،والبليّة التي ليس مثلها بلاء".

ولكي يثير الكاتب غيرة ابن تاشفين على بلاد المسلمين ذهب يصف ما أصاب البلاد من الضعف والوهن، ومرض الاستسلام للعدو. وهو الشيء الذي مكّن العدو من استرداد مدينتي "قورية" و"سُرته". ثم راح الكاتب ينبّه على العواقب الوخيمة لهذا الوضع، حاثّاً ابن تاشفين على التدارك.يقول:" ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك – أيّدك الله- بالنازلة في مدينة "قورية" –أعادهاالله- وأنّها مؤذنة الجزيرة بالخلاء، ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم مازال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند، حتى تخلصت القضيّة، وتعجّلت البلية، وحصلت في يد العدوّ– قصمه الله- مدينة " سُرته"، وعليها قلعة تجاوزت حدّ القلاع،، في الحصانة والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدائرة، وواسطة القلادة، يدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الاستضرار بما قاصيها ودانيها. وما هو إلا نفَس خافت، ورمق زاهق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالا، وتتداركوها رُكبانا ورِجالا، وتنفروا نحوها خِفافا وثِقالا. وما أحضّكم على الجهاد بما في كتاب الله تعالى، فإنّكم له أتلى، ولا أحرْضكم على التسرّع إليه بما في حديث رسول الله عليه السلام، فإنكم إلى معرفته أهدى".

وتبدي هذه الرسالة قلق الكاتب حين رأى وطنه يُنتقَص شبراً شبرًا، وأهله في تخاذل وتدابر، وكأنّهم لا يرون ما يقع؛ كما تُظهر تطلّعه الشديد إلى استجابة ابن تاشفين.

4-حبّ الوطن والتعلّق به:

كان الشعر هو المجال الواسع لوصف حبّ الوطن والتعلّق به. على أن أدباء الأندلس قد وصفوا ذلك الحبّ والتعلّق في بعض ما دبّجوا من نصوص نثريّة. ونكتفي بالوقوف عند نموذج واحد،هو رسالة ابن زيدون المعروفة "بالجِدّيّة"[29].

[29] ابن بسّام : م.س.، 340/2/1 وما بعدها.

كتب ابن زيدون هذه الرسالة لمّا كان في سجـــن ابن جهور. وجلّها في التبرؤ مما نُسب إليه، والمدح، والاستعطاف. ولكنّ الذي يهمّنا منها في هذا الحديث، هو تلك الفِقَر التي عبّر فيها عن حبّه لوطنه وتعلّقه به وتفضيله إياه على كلّ البلدان.

يقول لمّا ضاق عليه السجن، "مهدّدا" ابن جهـــور بفراق قرطبة التي أُهين فيها :" ولعمري إنّ صريح الرأي أن أتحوّل إذا بلغتني الشمـــس، ونبا بيَ المترل، وأصفح عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال، ولا أستوطىء العجــز، ولا أطمئنّ إلى الغرور..."

ثم يذكر أنّ هناك وطنا آخر للأديب قد يغنيه عن وطنه الأوّل،، ويخفّف عنه قساوة غربته، فيقول:" وإنّي مع المعرفة بأنّ الجلاء سِباء، والنقلة مُثْلة :

وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لم يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُـومٍ مُجَرّاً وَمَسْحَبـا
وتُدْفَنُ مِنْهُ الصّالِحَاتُ وَإنْ يسِـئْ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النّارَ في رأسِ كَبْكَبَا

لعارف أنّ الأدب هو الوطن الذي لا يُخشَـى فراقه، والخليط الذي لا يُتوقّع زياله، والنسيب الذي لا يُجفى، والجمال الذي لا يخفى".

ثم يسترسل في مدح ذلك الوطن وبيان مترلة الأديب في كلّ مكان، فيقول : " ثم ما قران السعد بالكواكب أبهى أثرا، ولا أسنى خطـــرا، من اقتـــران غنى النفس به، وانتظامها نسقا معه، فإنّ الحائز لهما، الضارب بسهم فيهما –وقليـــل ما هم- أينما توجّه ورد أعذب منهل، وحطّ في جناب قبول فترل، وضوحك قبـــل إنزال رحله، وأُعطي حكمَ الصبيّ على أهله:

وَقِيلَ لَهُ : أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَبَا فَهَذَا مَبِيـتٌ صَالِحٌ وَمَقِيـلُ"

ولكنّ ابن زيدون لا يلبث أن يرجع إلى حقيقة الحال ويؤكّد تعلّقه بوطنه الحقيقيّ، وهو الذي وُلد فيه ونشأ، ويرى أنّ جفاء ذلك الوطن ليس من شيم الكريم، يقول :" غير أنّ الوطن محبوب، والمنشأ مألـــوف؛ واللبيب يحنّ إلىوطنـــه، حنين النجيب إلى عطنه، والكريم لا يجفو أرضا فيها قوابله، ولا ينسى بلدا فيه مراضعه:

أَحَبُّ بِلَادِ اللهِ مَا بَيْنَ منعجٍ إليّ وَسلْمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا

بِلَادٌ بِها عَقَّ الشَّبَابُ تَمائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرابُها".

الفصل الرابع

الخصائص الفنية

أولا: الشعر

لما انتقل المشارقة إلى الأندلس وأقاموا فيها، ظل الشعر مصاحبا لهم، وبقي حاملا لنفس الخصائص، فكان الشعراء في الأندلس يتناولون نفس الأغراض، ويركبون نفس البحور . وتُسمّى هذه المرحلة المتقدّمة من تاريخ الشعر الأندلسي : مرحلة التقليد .

ثم بدأ الشعر الأندلسي يتخلص من محاكاة شعر المشرق. ولقد سبق أن نفينا ذوبان الشعر الأندلسي جملة في تقليد شعر المشرق ومحاكاته . ونرى أن يُسمّى ما يعدّه بعض الباحثين محاكاة وتقليدا، منافسة؛ فقد نافس الأندلسيون حقّا المشارقة في الأدب وغيره. ولعل قول ابن بسام:" إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق[1] " لا يقصد به التقليد الأعمى والمحاكاة الحرفية . أو ليس هو القائل، مادحا أهل ذلك "الأفق" : "لعبوا بأطراف الكلام المشقّق، لعب الدجى بجفون المؤرّق ، وحدوا بفنون السحر المنمّق "[2] ؟

ثم إن الشعر في حقيقته يُعدّ مرآة عاكسة لواقع الحياة ، فشعر البدوي هو غير شعر المتمدّن. والعكس صحيح. لأنّ كلّ واحد منهما يعبّر بشعره عن واقعه، ثم إنّ الشعر تصوير لإحساس صاحبه، و"إن حمل الشاعر على أن يقول غير ما يفيض به شعوره حمل له على أن يحطّم قيثارة الشعر وأن يقول كلاما لاتفيض به عنده عاطفة، ولا ينبض به له قلب "[3] .

وعلى ذلك يمكن القول :إن شعراء الأندلس ، وإن اتفق نتاجهم مع نتاج المشارقة في بعض الوجوه ، كان له ما يميّزه عن شعر المشرق من الخصائص والسمات. فما هي خصائص ما قيل منه في الاتجاه الوطني في القرن الخامس الهجري ؟

---

1 الذخيرة ، 12/1/1

2 م.ن .

3 حسن جاد حسن ومحمد عبد المنعم خفاجة : الأدب العربي في الأندلس ،ص68 .

نحاول بيان ذلك من خلال حديثنا عـــن بعض المقومات الفنية، كاللغة،والصورة، والإيقاع ، وغيرها .

1- اللغة :

اللغة هي أول وسائل الأديب، وهي أول مقومات عملـــه الإبداعي .ولذلك نجد كثيرا من النقاد والباحثين ينوهون بها، ويشيدون بدورها، ويهتمون بدراستها .

وإذا كان بعضهم لا يراها إلا وسيلة – كميخائيل نُعيمة الذي يقول : "إن اللغـــة ليست سوى وسيلة من وسائل كثيرة اهتدت إليها البشرية للإفصاح عن أفكارها "[4] – فإن غيره يراها أكثر من وسيلة عادية . يقول الدكتـــور عز الدين اسماعيل : " هي الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير، وهي أول شيء يصادفنا، وهي النافذة التي من خلالها نطلّ ، ومن خلالها نتنسّم ، وهي المفتـــاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب، والجناح الناعم الذي ينقلنـــا إلى شتى الآفاق" [5]. ويقـــول الدكتور إبراهيم السامرائي : " اللفظة هي الفكرة ، وهي الحياة الاجتماعية " [6] .

وإذا كان هذا هو شأن اللغة في كل عمل أدبي، فإن ذلك الشأن ليعلو إذا كان هذا النتاج الأدبي شعرا . يقول بهي الدين زيان :" إن اللغة هي الأداة الأولى التي يستعين بها الشاعر على صنع شعره "[7] . ويرى إبراهيم عبد القادر المازني أن اللغة الشعرية هي لغة "الأفواه السماوية التي تخرج منها ، وتندّ عنها" [8] .

فكيف تعامل شعراء الأندلس في أشعارهم الوطنية مع اللغة ؟

أ – المعجم الشعري

يخرج الدارس لمعجم ذلك الشعر بعدة ملاحظات لعل أهمها ما يلي :

---

[4] الغربال ، بيروت:دار بيروت للطباعة والنشر، الطبعة السابعة، 1964،ص 105 .

5 الشعر العربي المعاصر ،القاهرة:دار الكتاب العربي،د.ط،1976، ص173 .

6 لغة الشعر بين جيلين، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية،دت،ص38 .

7 الشعر الجاهلي : تطوره وخصائصه،القاهرة: دار المعارف بمصر،د.ط،د.ت.، ص 134 .

8 عز الدين منصور : دراسات نقدية ونماذج،بيروت: مؤسسة المعارف،الطبعة الأولى،1985، ص72 .

- سار الشعر الأندلسي مثل شعر المشرق في اتجاهين، هما : طريقة القدماء ، ومذهب المحدثين. وتبدو طريقة القدماء هي الغالبة في الشعر الوطني. ومن سمات اللغة في الشعر السائر في هذا الاتجاه : الجزالة.

فقد تجلت تلك الطريقة مثلا عند أبي اسحاق بن خفاجة الذي كان يستخدم معجما شعريا، أول ما نلحظ فيه ألفاظ الشعر القديم التي تطبعها القوة وتسمها الفخامة. ومن ذلك ما في قوله [9]:

أَكُرُّ بِطَرْفِي فِي مَعَاهِدِ فِتيَةٍ ... ثَكلْتُهُمُ بِيضَ الوُجُوهِ شَبَابَا

فَطَالَ وقُوفِي بيْنَ وَجْدٍ وزَفْرَةٍ ... أُنادِي رُسُومًا لا تُحِير جَوَابا

وَحَسْبِيَ شَجْوًا أَنْ أَرَى الدَّار بَلْقَعًا ... خَلاَءً وأَشْلاَءَ الصَّدِيقِ تُرَابا

فهو قد استعمل ألفاظا كثيرة من المعجم القديم، منها : "معاهد"، و"وقوف"، و"رسوم"، و"الدار"، و"بلقع".

ومثل هذا المعجم نلاحظه في كثير من أشعاره التي قالها في الحنين . ومن الأمثلة على ذلك قوله من القصيدة التي أوردها سابقا، والتي عنوانها في ديوانه:" هل أوبة إلى الجزيرة":[10]

وَأَيْنَ فِنَا دَارٍ إِلَيَّ حَبِيبَةٍ ... وَحَسْبُكَ مُصْطَافًا،هُنَاكَ،ومَرْبَعًا

ومثل ذلك المعجم الجزل نجده في كثير من الأشعار التي قيلت في رثاء المدن الأندلسية التي سقطت في أيدي النصارى، أو في رثاء الدول الأندلسية التي أسقطها المرابطون وخلعوا ملوكها. ويكفي الاستشهاد برائية ابن عبدون؛ ففيها لغة جزلة. يقول في أولها : [11]

اَلدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ ... فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ؟

---

[9] ابن خفاجة : م.س.، ص 52.

[10] م.ن.، ص 160.

[11] ابن بسام: م.س.، 721/2/2.

أهاكَ أنـــهَاك لا آلوكَ موْعِظَـــةً عَنْ نَوْمَةٍ بَيْنَ نَابِ اللَّيْثِ و الظُفُـــرِ
فَالدَّهْرُ حَـــرْبٌ وَإِنْ أَبْدَى مُسَالَمَةً وَالسُّودُ وَالْبِيضُ مِثْلُ البِيضِ وَالسُّمُرِ

– إلى جانب الأشعار التي يميل معجمها إلى الجزالـــة والقوة، نجد أشعارا يجنـــح معجمها إلى الرقة والسلاسة. ومن تلك الأشعار بعض ما قيل في الحنين إلى الأوطان، أو قيل في التنويه بطبيعة الأندلس الجميلة، أو نُظم في رثاء المدن.

ومن نماذج شعر الحنين إلى الوطن التي غلبت على لغتها السلاسة وطبعتهـــا الرقّة : تلك الأرجوزة التي قالها ابن زيدون ،متشوقا إلى قرطبة عندمـــا كـــان في مدينـــة "بطليوس". ومنها قوله : [12]

قَدْ مَلأَ الشَّوْقُ الْحَشَـــا نُدُوبَا
فِي الْغَرْبِ إِذْ رُحْتُ بِهِ غَرِيبًا

ومن نماذج الرثاء: القصيدة التي قالها الشاعر المجهول في بكاء طليطلة؛ ففي كثير من أجزائها نلمس تلك السلاسة، ونلحظ تلك الرقّة، كما في قوله : [13]

لِثُكْـــلِكِ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثُغُورُ سُرُورًا بَعْدَمَا بَيِسَـــتْ ثُغُورُ

وقد لاحظ ذلك بعض الدارسين، فذكر الدكتـــور عمـــر الدقّاق أنها " تتّســـم بالسلاسة " [14]،ووصفها الدكتور إحسان عبّاس بأنّهـــا "سهلة سائغة" [15]

– يُلاحَظ أن معجم الشعر الوطني في الأندلس متأثّر، فضـــلا عن تأثره بالمعجـــم الشعري القديم، باللغة الدينيـــة، وذلك نتيجـــة لغلبة الثقافة الدينية في الأندلس؛ ففي أشعارهم نجد كثيرا من ألفـــاظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ومـــا إليها. ولقد لاحظ ذلك الأستاذ عبد القادر محداد في الشعـــر الأندلســـي في القرن السادس الهجري، فقال :" إن أكبر الشعراء هم من الكتاب والقضاة وذوي المناصب الدينية...

---

[12] ابن زيدون : م.س.، ص14.

[13] المقري: م.س.، 483/4

[14] ملامح الشعر الأندلسي، ص296.

[15] تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف و المرابطين، ص186.

وشعرهـــم شعر أدباء وفقهـــاء تشرّبـــوا كثيرا من كتب الأدب والتفاسير القرآنيـــة والأحاديث النبوية..."[16]. ويظهر أثر تلك الثقافة، أكثر ما يظهر، في شعر الفقهاء من أمثال ابن العسّال وأبي إسحاق الإلبيري وغيرهما. ومن الأمثلة على ذلك : ما نلاحظه في قول ابن العسّال في القصيدة التي قالها في فاجعة"بربشتر".ومن ذلك هذه الأبيات:[17]

لـــولا ذنـــوبُ المسلمين وأنّـــهم ركبـــوا الكبائر ما لهن خَفَاءُ

ما كـــان يُنصَر للنصارى فـــارس أبـــداً عليهم فالذنوبُ الـــداء

فشِرارُهـــم لا يختفـــون بشرِّهـــم وصَلاحُ منتحلي الصلاح رِياء

ففيها نجد من المعجم الديني الكلمات التالية: "ذنوب" ، و "الكبائر"، "الصلاح" .

- يختلف استخـــدام الشعراء المطبوعين عن استخدام الشعراء العلمـــاء للغة،فالشعراء المطبوعون يتجاوزون المعاني المعجمية للمفردات ،فتغدو ذات إيحاءات متعددة وظلال مختلفة. ومرد ذلك إلى ما يختلج في نفوسهم من مشاعر جياشة وأحاسيس ملتهبة . أما الفقهاء ، فغالبا ما يطبع لغتهم التقرير والبساطة والسطحية ، فتأتي خالية من الإيحاء .

ومن الأمثلة على الصنف الأول : لغة الشاعر المطبوع ، أبي عامر أحمد بن شُهيد. قال من قصيدته المذكورة التي رثى فيها مدينة قرطبة لما دمّرتها الفتنة البربرية : [18]

ما في الطُّلولِ من الأحبّـــة مخبر فمَن الذي عـــن حالها نستخبر؟

لا تسألنّ سوى الفـــراق فإنّه ينبيك عنهـــم أنجدوا أم أغوروا

جار الزمان عليهـــمْ فتفرّقـــوا في كـــلّ ناحية وبَادَ الأكثـــر

...يا جَنّةً عصفت بها وبأهلها ريحُ النوى فتدمّرتْ وتدمّـــروا

..يا منزلاً نزلت بـــه وبأهله طير النوى فتغـــيّروا وتنكّـــروا

---

[16] صفوان بن إدريس : زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، تحقيق عبد القادر محداد، بيروت: دار الرائد العربي،د.ط،1970، مقدّمة التحقيق، ص6-7.

[17] شكيب أرسلان، م.س، 541/3.

[18] ابن شهيد : م.س.، ص 65-66.

فكلمة "الطلول" تدل على القفر والهجران، وتوحي بالخراب والبلى، وكلمة "الفراق" تدل على الخلو ،ولفظة"جار" توحي بشدة الخراب والطمس، وكلمة"باد" توحي أيضا بشدة الخلو والفناء،وكلمة "النوى" تدل على البعد والفراق، وهكذا. فالشاعر استعمل ألفاظا موحية بدلالات مناسبة لما اعتراه من حزن وأسى لما أصـــاب مدينته وحاضرة دولته وعاصمة وطنه.

وربما كان ابن خفاجة من أكثر شعراء ذلك العهد استخداما للغة الموحية. ويكفي أن نذكر من شعره تلك الأبيات التي رثى فيها مدينته "بلنسية" عندما دمّرتها "خمينا"، كما أسلفنا. ومنها قوله مخاطبا إياها :[19]

فإذا تردّد في جنـــابك نـــاظر طال اعتبـــار فيك واستعبـــار

ومن الأمثلة على الصنف الثاني :ما نلاحظه في قصيدة ابن العسّال التي ذكرنا أبياتا منها منذ حين؛ ففي لغتها مباشَرة وتقرير ،وليس فيهاُ إيحاء .

ب- النسج :

للنسج أهمية كبيرة. ولذلك نوه به القدماء من النقاد، وأشاد به المحدثون. قال ابن رشيق مبرزا تلك الأهمية :" ألا ترى أن الدر –وهو أخو اللفـــظ ونسيبـــه- إذا كان منثورا لم يؤمَن عليه ولم ينتفع به. فإذا نظم كان أصون له من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال. وكذلك اللفظ"[20].وقال الدكتور محمد مندور:" إن العبرة ليست بمفردات اللغة، بل بجملها وتراكيبها وطرائق التعبير فيها . واللفظ العادي قد يكتسب قوة شاعرية بارزة إذا أُدخل في جملة أو تركيب شعري".[21] وتختلف سمات النسج من شعر إلى آخر، تبعا لعوامل مختلفة.

ولعل أهم ما يميز النسج في الشعر الوطني في الأندلس في المرحلة التي تهمنا، ما يلي:

---

[19] ابن بسام : م.س.، 100/1/3 .

[20] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ص40.

[21] الأدب وفنونه، القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر،ط2،دت، ص 40.

- تتسم الأشعار التي وقفنا عندها بإحكام النسج وجودة السبك. ويرجع ذلك إلى أن أسلوب الشعر في الأندلس كان ما يزال محتفظا بقوته، ولم يصبه ما أصاب الشعر بعد من ضعف وهلهلة، كما قد يعود إلى أن الشعراء الذين قالوا في هذا الاتجاه كانوا من الفحول، كابن زيدون وابن عمار، والمعتمد، وابن اللبانة، وابن خفاجة، وغيرهم ممن أنجبهم ذلك العصر. وحسبنا أن نمثل على تلك الأشعار بقول ابن عمّار في الحنين إلى مدينة "شلب" :[22]

أَشِلْبٌ وَلَا تَنْسَاب عَبْرَةُ مُشْفِقٍ ... وَحِمْصُ وَلَا تُعْتَادُ زَفْرَةُ نَادِم

كَسَاهَا الْحَيَا بُرْدَ الشَّبَابِ فَإِنَّمَا ... بِلَادٌ بِها عَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي

ذَكَرْتُ بِهَا عَهْدَ الصِّبَا فَكَأَنَّمَا ... قَدَحْتُ بِنَارِ الشَّوْقِ بين الحَيَازِمِ

لَيَالِيَ لَا أَلْوِي عَلَى رُشْدِ لَائِم ... عَنَانِي وَ لَا أَثْنِيه عَنْ غَيِّ هَائِمِ

فنسج هذه الأبيات محكم، وسبكها جيد. ولقد نوّه بها ابن بسام ذاكرا أنها من "القصيد الفريد" وأنها من كلام ابن عمّار "الرائق الرائع".[23]

- إن ما سبق لا يعني أنه لا توجد أشعار غلب على أسلوبها الركاكة، واعترى نسجها بعض الهلهلة. ففي ما سبق أن استشهدنا به من الأشعار الوطنية أمثلة على ذلك الضعف. ومن تلك الأمثلة : أبيات ذلك الشاعر المجهول الذي يقول في مدينة قرطبة[24] :

بِأَرْبَعٍ فَاقَتِ الأَمْصَارَ قُرْطُبَةُ ... مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ الْوَادِي، وَجَامِعُهَا

هَاتَانِ ثِنْتَانِ، وَالزَّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ، ... وَالْعِلْمُ أَعْظَمُ شَيْءٍ، وَهْوَ رَابِعُهَا

- شيوع أ لوان البيان والبديع في أساليب الشعر قصد تحليتها وتجميلها.

---

[22] ابن بسام، م.س.، 372/1/2.

[23] ينظر : م.ن.، ص 371.

[24] المقري : م.س.، 153/4.

فقد شُغف شعراء الأندلس بألوان البيان ولا سيما التشبيه، حتى أن بعض العلماء ألف كتابا في عصر سابق، جمع فيه تشبيهات الأندلسيين. وأكثر مـــا نجد استخدامهم للتشبيه في الأشعار التي قالوها في وصف الطبيعة والعمران. ويكفي أن نتتبع أشعار ابن دراج وابن حمديس ، التي سبق الاستشهاد بها في الفصل الثاني، للوقوف على شيـــوع هذا اللون.

كذلك نـــجد لبعضهم بعض الاهتمـــام بالمحسنـــات البديعية . وفي النصوص التي استشهدنا بها غير ما مثال على ذلك. وأهم تلك المحسنات البديعية: الجناس، والطباق، وردّ العجز على الصدر.

فمن النماذج التي ورد فيها الجناس قول ذلك الشاعر المجهول في رثاء طليطلة [25] :

لِثُكْلِكِ كَيْفَ تَبْتَسِـــمُ الثُّغُـــورُ سُرُورًا بَعْدَمَـــا يَئِسَتْ ثُغُورُ ؟

ففيه جناس بين "الثغور" –بمعنى الأفواه- والثغور – بمعنى المناطق الحدودية التي يُخاف منها دخول الأعداء – وهو جناس تام.

ومن تلك النماذج قول ابن زيدون من الأرجوزة التي نظمها في الحنين إلى قرطبة[26]:

يَا دَمْعُ صُبَّ مَا شِئْتَ أَنْ تَصُوبَا وَيَـــا فُـــؤَادِي آنَ أَنْ تَذُوبَـــا

ففيه جناس بين "تصوبا" و"تذوبا". وهو غير تام. وهذا النوع أكثر شيوعا من السابق.

ومن النماذج التي ورد فيها الطباق:قول ابن زيدون في مخمسته المذكورة، مخاطبا مدينة قرطبة[27] :

نَهَـــارُكِ وَضَّـــاحٌ وَلَيْلُكِ ضَحْيَانُ وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ وغُصْنُكِ نَشْوَانُ

وفيه طباق بين " نهارك" و"ليلك". وهذا المحسن المعنوي شائع كثيرا. وهو غير مقصود في الغالب.

---

[25] المقري : م.س 483/4

[26] ابن زيدون : م.س.، ص 14.

[27] م.ن.، ص 39.

ومن الأمثلة على "رد العجز على الصدر" قول ابن اللبانة في رثاء المعتمد بن عباد[28] :

وكنا رعينا العز حـــول حماهـــم فقد اجدب المرعى وقد أقفر الحمى

وفي النصوص التي وقفنا عليها ما يستغرق ألوانه المعروفة.

ومن التورية ما في قول ابن اللبانة كذلك، وذلك في تائيته المذكورة التي رثى فيهـــا المعتمد[29]:

ونحن من لعب الشطرنج في يده وطالما قمـــرت بالبيدق الشـــــاة

فكلمة "الشاة" لها معنيان : فهي تُطلَق على الواحدة من الغنم، وهذا هو معناها الظاهر غير المقصود، كما تُطلَق على إحدى قطع الشطرنج، وهذا هو المعنى الخفي المقصود.

2- الصورة :

تُعدّ الصورة الوسلية الأساسية للتعبير الشعري. ولذلك وجب الكلام عليهـــا في كل مبحث يتناول الخصائص الفنية لشعر ما. وإذا كان النقاد المحدثون قد تحدثوا عنها بشكل موسّع ، فإن القدماء قد أشاروا إلى أهميتها. فالـــجاحظ يصف الشعر بأنـــه " جنس من التصوير "[30] وعبد القاهر الجرحاني يشبه الشاعر في التصوير بالنحـــات[31].

وإذا تتبعنا الصورة في الشعر الوطني في الأندلس في القرن الخامس الهجري خرجنا بعدة نتائج، منها ما يلي :

- كثر طلب الصورة عنـــــد أغـــلب الشعراء الذين أتينا بنماذج من أشعارهم. وهم بذلك يشبهون غيرهم من شعراء الأندلس الذين كانوا مهتمين بها اهتماما لعله فاق اهتمام شعراء المشرق . ولقـــد تنبه الدكتور إحســـان عباس إلى هذه الظاهرة في العملية الشعرية عند الأندلسيين فقال في تقديمه لكتاب " التشبيهات من أشعار أهـــل

---

[28] ابن اللبانة : م.س.، ص 88.

[29] م.ن.، ص 24.

[30] كتاب الحيوان،تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: دار الكتاب العربي،الطبعة الثالثة،1969، 132/3.

[31] ينظر : أسرار البلاغة، تصحيح محمد رشيد رضا، القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده،الطبعة السادسة،1959، ص 275

الأندلس" الذي ألفه أبو عبد الله محمد بن الكتـــاني " إن المؤلف قد حاول أن يعرض المجالات التي اتصلت بها ملكة التصـــوير عند الأندلسيين... وإنه قد أطلعنا، من خلال هذه المختارات، على مبلغ ما بلغه الشعر الأندلسي من عناية بالصورة في دور مبكـــر من تاريخه، حتى أصبح طلب الصورة فيه غاية كبرى، بل أصبح بعد زمن أكبـــــــر غاية[32].

-يتفاوت الشعراء الذين ذكرنا لهم أشعارا في ذلك الطلب؛ فإذا كان بعضهم يبدو "مقتصدا" فيه، فإن غيره كان مبالغا. فالشاعر ابن خفاجة كان كثير الطلب للصـــور حتى ازدحمت في شعره. وقد عابه شيوخ ابن خلدون بسبب الغموض الذي أدّى إليه ذلك الازدحام[33]. على أن النقاد المحدثين يستحسنون ذلك الازدحـــام وإن أدى إلى غموض، ويرونه دليلا على سعة الخيال.

- يتجلّى طلب الصورة في هذا العصر – وقد يكون ذلك في باقي عصور الأدب الأندلسي- في المقطوعات الشعرية، وذلك لأن المقطوعة – بحكم قصرها-"أكثـــر مناسبة لتأليف الصورة من القصيدة الطويلة" [34]. وقد لاحظ ذلك الدكتور إحســـان عباس فقال متحدثا عن مذهب بعض الشعراء :[35] " وكان هذا المذهب، منذ عهـــد الطوائف بالأندلس، قد أخذ يقيم خطّاً واضحاً بين المقطوعة والقصيدة. أما المقطوعة فإنها لتقارب أجزائها تقـــوم على طلب الصور...وأما القصيدة فإنها بناء مكتمل... يُدرج فيه الشاعر الصورة بين الحين والحين"[36].

- إذا كان الشعراء الذين قالوا في الشعر الوطني قد رددوا كثيرا من صـــــــــور

---

[32] ابن الكتاني: م.س.، المقدمة، ص 22.

[33] ابن خلدون : م.س.، 1107/2 .

[34] محمد محيي الدين : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان،1998/1997 ص480.

[35] منهم ابن الزقاق والرصافي البلنسي وغيرهما.

[36] الرصافي البلنسي: ديوانه،جمع وتحقيق إحسان عباس، بيروت : دار الشروق،الطبعة الثانية، 1983، مقدمة التحقيق، ص 22.

السابقين، فإن المتتبع لشعرهم يجد فيه أيضا ، كثيرا من الصور الطريفة التي لم يُسبَقوا إلى تأليفها. ومن الأمثلة على تلك الصور قول السمسير في مقطوعته السابقة التي بكى فيها مدينة " الزهراء" [37]:

كـــأنما آثار من قد مضـــى نـــوادب يندبـــن أمـــواتـــا

3 – الإيقاع :

لا يوجد قول شعري بدون إيقاع. و يُعتبر الإيقاع أحد أعمدة الشعـــر الـــتي يرتــــكز عليها. و لذلك أولاه النقاد اهتماما بالغا؛ فالجاحظ يرى أنّ من مقومات الشعر "إقامة الوزن" [38]، وقدامة بن جعفر يرى أن الشعر "قول موزون مقفى" [39]... وقد اهتـــم الباحثون المحدثون بدراسة الإيقاع الشعري، فخرجوا بعدة نتائج. قال عزّ الديـــن منصور [40] :"إن موسيقى الشعر ليست شيئا خارجا عن الشعر يضاف إليه، بل هـــي نابعة منه، تفرضها أحاسيس الشاعر وأفكاره، وتبرزها عاطفته. فهي نابعة منها متأصّلة فيها". و قال الدكتور عزّ الدين اسماعيل [41] :"الإيقاع الشـــعري ينطوي على بعد إبلاغي أصيل . فهو –في الوقت نفسه– يشحـــن معه مجمـــوع الأحاسيس و الانفعالات... إن موسيقى الشعر لم تعد مجرد أصوات رنانة تـــروع الآذان، بل أصبحت توقيعات نفسية تنفذ إلى صميم المتلقي لتهز أعماقه في هدوء ورفق".

ويعتمد الإيقاع الشعري على دعامتين، هما : الوزن و القافية. فما هي خصائـــص الأوزان و القوافي في الأشعار الوطنية في الأندلس في القرن الخامس ؟

---

[37] المقري : م.س.، 527/1.

[38] ينظر : الحيوان، 3/131-132.

[39] نقد الشعر، ص 15.

[40] دراسات نقدية و نماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر، ص 13.

[41] الشعر العربي المعاصر، و قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية، ص 66-67.

أ- الأوزان :

الوزن هو المفرّق بين الشعر و النثر. و هو ليس" مجرّد قالب تُصَبّ فيه التجربة الشعرية، و إنما هو جزء هام في تشكيل القصيدة"[42]. وتتجلّى وظيفته في "قدرته على إثارة الانفعال و جعل المادة الإبلاغية تطفو على سطح النص"[43].

ومن أهم ما يلاحظه المتتبع لأوزان الشعر الوطني في الأندلس ما يلي :

- لم يخرج الشعراء عن البحور التي نظم فيها القدماء، كالطويل، و البسيط، والكامل، والوافر، وغيرها.

- أكثروا النظم، مثل سابقيهم، في بحر الطويل. فكل ما قاله ابن زيدون في الحنين إلى وطنه منظوم في هذا البحر عدا نصا واحدا هو تلك الأرجوزة التي قالها، في مدينة بطليوس، يصف فيها شوقه إلى قرطبة. ولابن خفاجة أكثر من قصيدة من هذا البحر كتلك التي جاءت في ديوانه بعنوان " هل أوبة إلى الجزيرة ؟ " .

و مطلعها :

أجبتُ وقد نادى الغرام فأسمعا عشية غناني الحمام فرجعا

وقد جاءت قصيدة ابن حزم، في رثاء قرطبة لما دمرتها الفتنة، من هذا البحر. قال في أولها :

سلام على دار رحلنا وغُودِرَتْ خلاء من الأهلين موحشة قَفْرا

إن بحر الطويل "يتسع لجميع أغراض الشعر"[44]، و لذلك استخدمه شعراء الأندلس في عدد من أغراض شعرهم الوطني.

- إن كثيرا من مراثي المدن و الممالك قد جاءت في البحور الثلاثة : البسيط، والوافر، والكامل.

---

[42] نور الدين السد : الأسلوبية و تحليل الخطاب، 139/2.

[43] سمير أبو حمدان : الإبلاغية و البلاغة العربية، ص 66.

[44] محمد علي الهاشمي : العروض الواضح و علم القافية، ص 32.

فمن القصائد التي جاءت في بحر البسيط : رائية ابن عبدون التي قالها في رثاء دولة بني الأفطس والتي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح و الصور

و منها دالية ابن اللبانة التي بكى فيها دولة بني عبّاد، والتي يقول في أولها :

تبكي السماء بمزن رائح غاد على البهاليل من أبناء عبّاد

وبحر البسيط "من أشهر بحور الشعر العربي وأكثرها استعمالا. و من أكثرها استيعابا للأغراض و المعاني المختلفة"[45].

ومن القصائد التي جاءت في بحر الوافر : تلك القصيدة التي قالها ذلك الشاعر المجهول في رثاء مدينة طليطلة، والتي أولها :

لثكلك كيف تبتسم الثغور سرورا بعدما سُبيت ثغور

وبحر الوافر "أكثر البحور مرونة وألينها وزنا، وأغناها موسيقية. يشيع فيه النغم العذب الحنون، وتنطلق الموسيقى الشجية المطربة. وهو صالح لمعظم الموضوعات، ومن أكثر البحور استعمالا.نظم عليه الأقدمون والمعاصرون شتى الأغراض والمعاني ، فاحتواها بكل طواعية ومرونة ويسر"[46].

ومن القصائد التي نُظمت في الكامل: قصيدة ابن العسّال التي وصف فيها فاجعة بربشتر، والتي يقول في أولها :

ولقد رمانا المشركون بأسهم لم تخط لكن شأنها الإصماء

وبحر الكامل كذلك " يلائم كلّ أنواع الشعر، لهذا ركب متنه الشعراء السابقون والمتأخرون"[47].

---

[45] م.ن.، ص 47.

[46] م.ن.، ص 80.

[47] م.ن.، ص 75.

- استخدم بعض الشعراء بحر المتقارب للتعبير عن حنينهم إلى أوطانهم. فقد استخدمه ابن حمديس في قصيدته التي يقول منها :

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها

كما ركبه ابن حصن الإشبيلي في نصه الذي أوله :

ذكرتك يا حمص ذكر هوى أمات الحسود وتنعيته

ولبحر المتقارب" رنّة واضحة ونغمة حماسية مطربة محببة"[48]

- قلّما نظم الشعراء في البحور الأخرى.

- يرى بعض الدارسين أن بين الوزن والعاطفة صلة قوية، فلا يوظّف الشعراء إلا الأوزان التي تنسجم مع عواطفهم، في حين يرى آخرون أنه لا علاقة بينهما، فالشاعر يتخير من الأوزان ما يشاء دون مراعاة لإحساسه. وإني أرجّح الرأي الأول، لأنه لا يُعقَل أن ينظم الشاعر في بحر لا يناسب عاطفته، وذلك لأن " كل انفعال شعري أو قول شعري له إيقاع ووزن يتّسق مع الحالة الشعورية في القصيدة"[49]. قال الدكتور محمد زكي العشماوي، معلقا على نص للشاعر الانكليزي "كولردج" : "مصدر الوزن عند كولردج هو العاطفة أو الانفعال، بمعنى أن الذي يختار الوزن الشعري انفعال الشاعر نفسه"[50].

وعليه يمكنني أن أقول : إن الشعراء الأندلسيين الذين نظموا في الاتجاه الوطني كانوا يستخدمون الأوزان التي تستدعيها عواطفهم وتتطلّبها انفعالاتهم؛ فقصيدة ابن العسال –مثلا– تطلبت بحرا "أقرب إلى الشدّة والعنف"[51]، هو بحر الكامل، وذلك لأنها نُظمت لتصف الأعمال الشنيعة التي اقترفها الأعداء في استيلائهم على مدينة بربشتر، ولتؤنّب المسلمين على اقترافهم للذنوب التي كانت سببا في هزيمتهم وسقوط مدينتهم؛

---

[48] م.ن.، ص 39.

[49] رجاء عيد : القول الشعري، ص 64.

[50] قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص 227-228.

[51] محمد علي الهاشمي : م.س.، ص75.

وقصيدة ابن حمديس استدعت بحرا يحرّك الأشجان ويهزّ الأعماق طمعا في التسلية، هو بحر المتقارب الذي لا يصلح مثله للترفيه عن النفس من وطأة البعد والفراق. وقد ارتأى ذلك الشاعر المجهول أن يضرب على وَتر "الوافر" لأنه رآه مناسبا لحزنه وأساه بسبب ما حدث لوطنه، وذلك لما يتميز به ذلك البحر من "الموسيقى الشجية"[52].

ب- القوافي :

لم يكن اهتمام الشعراء بالقوافي أقل من اهتمامهم بالأوزان. فقد أولوها هي كذلك عناية خاصة. كما حاول بعض الباحثين أن يربطوا القافية بعاطفة الشاعر، فرأوا أن الشاعر يختار لقوافيه الحروف التي تناسب عواطفه وخوالج نفسه.

والمتتبع لقوافي الشعر الوطني في الأندلس في القرن الخامس يستنتج ما يلي :

- استخدم الشعراء الحروف التي كانت شائعة في قوافي الشعر العربي القديم، كالراء، والدال، والميم، والهمزة، وغيرها.

- شيوع حرف الراء في قوافي القصائد التي وقفنا عليها؛ فقد استخدمه ابن حزم وابن شهيد في رثاء قرطبة، وابن عبدون في رثاء دولة بني الأفطس، والمعتمد بن عباد في الحنين إلى قصوره وملكه الضائع، وابن حمديس في تشوّقه إلى وطنه، وذلك الشاعر الطليطلي المجهول في بكاء مدينته... وحرف الراء قد تربع على المرتبة الأولى في كثير من دواوين الشعر العربي القديم، وذلك لما يمتاز به من خصائص؛ فهو حرف لثوي مكرر، صفته بين الشدّة والرخاوة، وهو مجهور منفتح فموي...[53] ثم هو من الحروف الشائعة في نهاية الكلمات.

---

[52] م.ن.، ص 80.

[53] ينظر : أحمد علي : تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي، ص 63.

- من الحروف التي كثر استخدامها كذلك حرف الدال. ومن خصائص هـــذا الحرف أنه أسناني شديد مجهور منفتح فموي[54] وهو كذلك شائع في نهايـــة الكلمات. ومن الشعراء الذين بنوا عليه قصائد : ابن اللبانة في مرثيته الـــتي نظمها في دولة بني عباد، وأبو عمرو بن القلاس في نصه الذي أولـــــه:[55]

بطليوس لا أنساك ما اتصل البعد فلله غور في جنابك أو نجد

وابن السيد البطليوسي في مقطوعة يقول منها :[56]

يا منظرا إن نظرت بهجته أذكرني حسن جنة الخلد

- لا نكاد نجد أثرا للحروف المهجورة في مـــجال القوافي كالجـــم مثلا الـــذي استخدمه أبو الفضل بن شرف في مقطوعته التي مطلعها :[57]

حط الرجال ببرجه وارتد لنفسك بهجه

- اهتم جل الشعراء بتصريع المطالع مقتدين بالشعراء السابقين. ومن الأمثلة على ذلك :

مطلع رائية ابن عبدون المذكورة وهو :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

- تنوعت قوافي الشعر الذي وقفنا عليه بين : المؤسسة، والمردوفة، والخالية مـــن الردف والتأسيس. ولعل لاختيار أحد تلك الأنواع علاقة بالحالة النفسيـــــة للشاعر.

- لا أثر للزوم ما لا يلزم الذي اهتم به أبو العلاء المعري، في المشرق، في نفـــس العصر.

- لم ينظم،في شكل المخمّس،إلا ابنُ زيدون.

---

[54] م.ن.، ص 63.

[55] المقري؛ م.س.، ص186/1.

[56] م.ن.، ص 644.

[57] م.ن.، ص 151.

ثانيا : النثر

كان الأدباء الأندلسيون يسيرون على غرار المشارقة. وهكذا كانت طرائق الكتابة التي تظهر بالمشرق تنتقل إلى الأندلس. ومن يتتبع النثر الأندلسي يجد " لمسات" عبد الحميد، وابن العميد، والقاضي الفاضل، بيّنة واضحة.

و لم يكن النثر الأندلسي في القرن الخامس – ومنه السائر في الاتجاه الوطني- خارجا عن ذلك. وحسبنا أن نذكر ممن ساروا على نهج المشارقة في طريقة الكتابة ابـــن أبي الخصال الذي كان متأثّراً بأبي العلاء المعرّي و الحريري وابن نباتة. وإن الخطبة الـــتي يحضّ فيها على الجهاد قد عارض بها خطبة لابن نباتة[58].

و من الخصائص التي ميّزت النثر الأندلسي السائر في الاتجاه المذكور في ذلك القرن ما يلي :

- كان الكتاب الأندلسيون يجنحون إلى استخـــدام اللغة الســـهلة الواضحـــة، ويبتعدون عن الألفاظ الصعبة الغريبة وما إليها مما يشين جمال النثر. ولقد ذكر ابن بسّام أحد الأدباء شذّ عن هذه القاعدة، فقال فيه منتقدا :" وكان يستعمل وحشيّ الألفاظ، ويخاطب العوام بكلام لـــو خُوطِبَ به رؤبة بن العجاج ما فهم عنه" [59] .

وفي النصوص التي مرت بنا ما ينهض دليلا على ذلك، فلا نجد فيها إلا كلمات قليلة غير متداوَلة.

- كانت لغة النثر الأندلسي متأثّرة بالقرآن الكريم، فقد كان الناثرون من كتّاب وخطباء يستخدمون المعجم القرآني أو يقتبسون أو يستشهدون. والأمثلة على ذلك كثيرة في النصوص التي عرضنا، في الفصل الثالث، نماذج منها.

فمن الأمثلة على الاقتباس قول الكاتب ابن عبد البرّ:"والحرب سِجال، والدهـــر دول، و(لكل أمة أجل)". وقد أبدع الكاتب في اقتباس هذه الآية، فقد جاءت، مثل

---

[58] ينظر : إحسان عباس : م.س.، ص 286.

[59] م.س.، 818/2/3.

الجمل التي سبقتها، قصيرة. ومن تلك الأمثلة قول أبي عبد الله محمد بن مسلم في رسالة لـــه ذات مضمون وطني[60] :" فصارت عينا سلسبيلا، و(كـــان مزاجـــها زنجبيلا)...فكلّ(خرّ راكعاً وأناب)"، وقوله :" وبناه (أولو قوة وأولو بأس شديد)"، وقوله :" بنتـــــه (ملائكة غلاظ شداد)".

ومن الأمثلة على الاستشهاد قول ابن عبد البرّ في منشوره :" كأنهم في مثل اليوم الذي ذكره الجليل، في مُحكَم التنزيل:(يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت)"، وقـــول الهوزني في الرسالة التي وجّهها إلى المعتضد بن عبّاد "...ولمّا تمثل أدب العزيز الحكيـــم في قوله:(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد)". ومن تلك الأمثلة: قول ابن أبي الخصال في خطبته المذكورة:"... إلاّ لما عهد إلينا وأعلمنا، إذ يقول سبحانه : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مـــا بأنفسهم)".

وقد كان للاقتباس من القرآن الكريم والاستشهاد به الأثر في تعضـــيد الكـــلام وتحســـين الأسلوب.

- تأثرت لغتهم كذلك بلغة الحديث النبـــوي الشريف، كـــما اقتبسوا منـــه واستشهدوا به، كما فعل ابن حزم في رسالته المذكورة.

- أكثر بعض الناثرين تضمين الحِكم والأمثال، تجميلا لأسلوبهم، وتوكيـــــــدا لأفكارهم. وفي منشور ابن عبد البرّ عدة أمثلة، كما في قوله :" والمرء كثير بأخـــيه، وإلى أمه يلجأ اللهفان، وإلى الصوارم تفزع الأقران؛ والسعيد من وُعظ بغيره، والشقيّ من عميـــت عيناه...والحرب سِجال، والدهر دُول...". وقد بلغ ابن زيـــدون في رسالته المذكورة في استخدام الحكم والأمثال ما لم يبلغه غيره من كتاب الأندلس الذين عاصروه.

---

[60] م.ن.، 432/1/3 و ما بعدها.

- مزج بعض الناثرين، فيما أنشأوا من نصوص، بين النثر والشعر، وذلك للترويح عن نفس القارئ بما في الشعر من خفّة وموسيقى، وأيضا للاستدلال أو لابراز المقدرة على النظم أو للادلال بحفظ الأشعار. ولنا فيما استشهدنا به من رسالتي الهوزني وابن زيدون أمثلة.

- كان الكتّاب كثيرا ما يستخدمون الجمل الاعتراضية. وقد جاء بعض هذه الجمل طويلا وبعضها قصيرا، واستُخدم في أغلبها لفظ الجلالة (الله)، وجاء كثير منها للدعاء. ومن تلك الجمل :" أهلكهم الله"،و" أعادها الله"،وغيرهما. وفي منشور ابن عبد البر عدّة أمثلة.

- إذا كان شعراء الأندلس في ذلك القرن قد استخدموا كثيرا من صور البيان فإن الناثرين كانوا مقتصدين نسبيا في ذلك. وقد استخدموا بخاصّة التشبيه، وذلك لجلاء أحاسيسهم وبيان أفكارهم. ومن الأمثلة على ذلك قول ابن عبد البر في المنشور السابق :" وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكا، وكالأنامل في اليد اشتراكا"، وقوله في المنشور المذكور :" وإنما هو كالبركان الذي يصيب بحممه الداني والقاصي، أو كالطوفان الذي سيغرق الأندلس كلّها".

- بدأ السجع يظهر بشكل لافت للانتباه منذ أواخر القرن الرابع الهجري. وقد اتخذ منه الكتاب دعامة يرتكزون عليها. وقد لا نجد نثرا، مهما كان نوعه، لم يُثقله صاحبه بالسجع[61] . وإذا تتبعنا النصوص النثرية السابقة نجد أن بعض الناثرين الأندلسيين لم يكن حريصا على تقييد نصّه بهذا المحسّن، في حين أن بعضهم قد التزمه التزاما.

فمن الكتاب الذين لم يحرصوا على استخدام السجع ابن حزم في رسالته المذكورة. يقول في جزء منها :"...ثم لما ضمّنا المجلس الحافل بأصناف الآداب، والمشهد الآهل

---

[61] ينظر : علي شلق :النثر العربي في نماذجه وتطوره لعصري النهضة والحديث، بيروت : دار القلم، الطبعة الثانية، 1974، ص 40.

بأنواع العلوم، والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمترل المحفوف بكل لطيفة وسيعة من دقيق المعاني وجليل المعالي...".

ومن أولئك الكتاب ابن زيدون. يقول في جزء من رسالته الجدية :" ولعمري إن صريح الرأي أن أتحوّل إذا بلغتني الشمس، ونبا بي المترل، وأصفح عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال، فلا أستوطئ العجز ولا أطمئنّ إلى الغرور...".

وقد استغنى الكاتبان عن السجع بنوع آخر من التنغيم، هو الازدواج أو المماثلة [62]. ولعلّ ابن حزم كان همّه هو بيان فضل بلاده، والردّ على ابن الربيب، فلم يُعنَ نتيجة لذلك بجمال الصياغة إلا عناية قليلة.

ومن الكتّاب الذين حرصوا على السجع : ابن بسّام، وابن عبد البر، وابن أيمن. ويظهر ذلك الحرص فيما عرضنا لهم من نماذج.

ولقد تنوع السجع في ذلك النثر، فجاء :

أ- ممتدّاً : وهو الذي تبدو فيه الأنغام متواصلة والقوافي مستمرة على وتيرة واحدة حتى يستقرّ النفَس[63]. ومن الأمثلة عليه : قول ابن حزم في رسالته المذكورة – وهو من السجع القليل فيها- " فإنّ هممهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم، ومكارم ملوكهم، ومحاسن فقهائهم، ومناقب قضاتهم، ومفاخر كتابهم، وفضائل علمائهم".

ب- أو متواثبا : وهو خفيف النبرات، سريع الحركات، يقفز بالقارئ قفزا، لما فيه من تعابير قصيرة تنتهي بسرعة إلى فواصل موسيقية كثيرة النبرات[64].ومن أمثلته: قول ابن عبد البر :" واستحكمت فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف،

---

[62] ينظر :علي بن محمد : م.س.، 2/654-655.

[63] ينظر :م.ن.، ص 659.

[64] ينظر : م.ن.، ص 660.

وأثخنتهم الجراح، وعبثت بهم زُرق الرماح... وقـــد صُمّت الآذان،بصراخ الصبيان، ونياح النسوان، وبكاء الولدان، وعـــلت الأصوات، وفشت المنكرات".

ج- أو متراكبا : وهو الذي يبدو كأن بعضه يريد أن يركب بعضا، فتوحـــي الأنغام المتصاعدة منه بجموح شديد، وتسابق وازدحام[65]، كما في قول ابن عبد الـــبر في منشوره :" تمرد الشيطان، وظهرت الصلبان، وأفصحـــت النواقيس، وجَلّحـــت الأباليس... ومشيخة الرجال، مقرنين في الحبـــال، مصفّدين في السلاسل والأغلال، إن استرحموا لم يُرحَموا، إن استطعموا لم يُطعَموا، وإن استسقوا لم يُسقَوا، وقد طاشت أحلامهم، وذهلت أوهامهم، وسخنت أعيانهم،وتغيرت ألوانهم".

- استخدم ناثرو الأندلس، في ذلك العصر، محسنات أخـــرى، لفظية ومعنويـــة، كالجناس والطباق والمقابلة وغيرها.

---

[65] ينظر : م.ن.

الخاتمة

بعد أن تتبّعت عناصر هذا الموضوع، مسهبا تارة، وموجزاً تارة أخرى، أذكر فيما يلي، بعض نتائج بحثي.

-كان الظرف السياسيّ الذي عرفته الأندلس باعثاً،بشكل مباشر،على بروز الاتجاه الوطنيّ في الأدب الأندلسيّ؛ فاندلاع الفتنة البربريّة، وسقوط الخلافة وتشتّت الوحدة الوطنيّة، ونشاط حركة الاسترداد، وسقوط دول الطوائف، وغيرها، كلّها كانت من عوامل ظهور ذلك الاتجاه.

- ظهر ذلك الاتجاه في كثير من ألوان الشعر الأندلسي في ذلك العصر، كرثاء قرطبة لما دمّرتها الفتنة ، ورثاء المدن الأندلسيّة التي سقطت في يد النصارى ، وبكاء دول الطوائف التي أسقطها المرابطون، والإشادة بمحاسن الأندلس ، والحنين إلى الوطن، وغيرها.

فقد بكى شعراء قرطبة مدينتهم الجميلة التي حوّلتها الفتنة المبيرة إلى أطلال وغيّرت محاسنها ، ووقفوا متأسّفين متحسّرين لما آل إليه أمر مأواهم من خراب ودمار. وكان أجودهم تعبيرا عن تلك المأساة شاعر قرطبة الفذّ، أحمد بن شُهيد. وتُعَدّ قصيدته التي نظمها في تلك النكبة أجمل ما قيل في ذلك النوع.

وقد سجّل شعراء الأندلس بشعرهم أحداث سقوط المدن الأندلسيّة في يد النصارى، داعين إلى نجدتها،مستنهضين الهمم لإغاثتها. ومن أفضل ما خلّفوا في ذلك ما فاضت به قرائحهم في فاجعة "بربشتر" وما صدر عنهم في نكبة طليطلة.

وكان ما صدر عن شعراء الأندلس من رثاء لدول الطوائف التي أسقطها المرابطون كثيرا وجيّدا. وفي مقدّمة ذلك الرثاء : داليّة ابن اللبّانة في دولة بني عبّاد، ورائيّة ابن عبدون في دولة بني الأفطس.

ولشعراء الأندلس في ذلك القرن أشعار كثيرة في الإشادة بمحاسن بلدهم؛ فقد وصفوا القصور والدور وغيرها، ونوّهوا بطبيعة بلادهم وأبرزوا محاسنها...

وقد خلّفوا في الحنين إلى الوطن نصوصا، هي من أجمل ما جادت به قرائحهم، في أولها : ما قاله ابن زيدون، والمعتمد بن عبّاد،وابن خفاجة، وابن حمديس. وهو يعكس تعلقهم الشديد بوطنهم، ويصف معاناتهم في غربتهم .

ولهم في انتقاد ملوك الطوائف، وفي هجو المرابطين، أشعار قليلة، ولكنّها تدل على رفضهم وثورتهم على ما يتعارض ومصالح وطنهم.

- برز الاتجاه الوطنيّ كذلك النثر الأندلسيّ في ذلك القرن. وتناول ذلك النثر عدّة قضايا وطنيّة، كالانتصار للأندلس وبيان فضلها على البلدان، والدعوة إلى الجهاد، والاستغاثة، وغيرها. ومن أحسن ما بين أيدينا من ذلك النثر : رسالة ابن حزم في بيان فضل الأندلس التي ردّ فيها على رقعةٍ لابن الربيب القيروانيّ، ومنشور ابن عبد البر في استنهاض الهمم لنجدة أهل "بربشتر"، ورسالة الهوزنيّ إلى المعتضد بن عبّاد مستغيثا إياه لسكان تلك المدينة.

- لم يكن الأدب الوطني في الأندلس يختلف إلا قليلا عن غيره في المقوّمات الفنّيّة. إنّ الاتجاه الوطني ليس كغيره من الاتجاهات الأخرى، وإنّ الحديث عنه لشيّق ممتع. وما ذلك إلا لأنّ حبّ الوطن من أسمى العواطف وأنبل المشاعر. وقد تزداد تلك العواطف سموا، وتلك المشاعر نبلا، إذا كان ذلك الوطن هو الأندلس، الفردوس العربيّ المفقود.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : الكـــــتـب

1- القرآن الكريم

2-ابن الأثير : الكامل في التاريخ، بيروت : دار صادر، د.ط.، 1982.

3-ابن بسّام، أبو الحســن علي الشنتريني : الذخيرة في محاســن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ليبيا-تونس: الدار العربيّة للكتاب، د.ط.، 1978 .

4-ابن بشكوال : كتاب الصلة، القاهرة : الدار المصرية للتأليف و الترجمة، د.ط.، 1966.

5-ابن حمديس، عبد الجبار : ديوان ابن حمديس، تصحيح إحسان عباس، بيروت : دار صادر ودار بيروت، د.ط.، 1960.

6- ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم : ديوان ابن خفاجة، بيروت : دار صادر ودار بيروت، د.ط.، 1961.

7-ابن خلدون، عبد الرحمن: تار يخ ابن خلدون، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1992.

8-ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد : وفيات الأعيان، تحقيق إحســان عباس، بيروت : دار صادر،د.ط.، د.ت.

9- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني :

- ديوان ابن رشيق ، جمع عبد الرحمن ياغي، بيروت : دار الثقافة، د.ط.، د.ت.

-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد قرقزان، بيروت: دار المعرفة، ط، 1988.

10-ابن زيدون، أبو الوليد أحمد : ديوان ابن زيدون، تحقيق كرم البستاني، بيروت، دار صادر، د.ط.، 1975.

11- ابن شاكر الكتبي، محمد : فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت:دار صادر،د.ط.، 1974 .

12- ابن شهيد، أبو عامر أحمد : ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله، جمعه وحققه محيي الدين ديب، بيروت : المكتبة العربية، ط1، 1997.

13- ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب، في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنسال، بيروت : دار الثقافة، د.ط.، د.ت.

14-ابن قينة، عمر:أدب المغرب قديما، الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعية،د.ط.، د.ت.

15-ابن الكتاني : كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق إحسان عباس، بيروت : دار الثقافة، د.ط.، د.ت.

16-ابن اللبانة، محمد بن عيسى الداني : شعر ابن اللبانة الداني، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، بغداد : دار الكتب للطباعة والنشر،د.ط.، 1977.

17-ابن محمد،علي : النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس: مضامينه وأشكاله،بيروت : دار الغرب الإسلامي،د.ت.، 1990.

18-إحسان عباس :

-تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة، بيروت : دار الثقافة، ط6، 1981.

-تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين، بيروت : دار الثقافة، ط1، 1962.

19-أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة : مكتبة النهضة المصريـــة ، ط3، 1960.

20- أسعد حومد : محنة العرب في إسبانيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط2، 1988.

21-الأصفهاني،عماد الدين الكاتب : خريدة القصر و جريدة العصر : قسم شعراء المغرب و الأندلس، تحقيق آذرتاش آذرنوش، تنقيح و زيادة محمد المرزوقي و محمد العروسي المطوي و الجيلاني بن الحاج يحيى، تونس : الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى، 1971.

22-بدير متولي حميد : قضايا أندلسية، القاهرة : دار المعرفة، ط1، 1964.

23-بروكلمان،كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين وفارس البعلبكي، بيروت : دار العلم للملايين، ط1، 1948.

24-البستاني، بطرس : أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بيروت : دار الجيل، د.ط.، د.ت.

25-البستاني، فؤاد أفرام: ابن خفاجة : منتخبات شعرية، بيروت : دار المشرق،ط4، 1983.

26- بونار، رابح : المغرب العربي : تاريخه وثقافته، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،د.ط.، 1968.

27-بريس، هنري : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف : ملامحه، وموضوعاته الرئيسية، وقيمته التوثيقية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، القاهرة :دار المعارف بمصر،ط1، 1988.

28-بيضون، إبراهيم : الدولة العربية في الشعر العربي، لبنان : دار النهضة العربية للطباعة والنشر،ط2، 1980.

29-الحاوي، إيليا : فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، لبنان : دار الكتب اللبناني مصر : دار الكتاب المصري، ط3، 1980.

30-حجاجي، حمدان : حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1982.

31-حسن جاد حسن ومحمد عبد المنعم خفاجة: الأدب العربي في الأندلس، القاهرة: المطبعة المحمدية بالأزهر، ط1،د.ت.

32-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت : دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، 1969.

33-الجرجاني، عبد القاهر : أسرار البلاغة، تصحيح محمد رشيد رضا، القاهرة مكتبة و مطبعة محمد علي صبيح و أولاده، الطبعة السادسة، 1959.

34-خالص، صلاح : إشبيلية في القرن الخامس الهجري، بيروت: دار الثقافة، د.ط.، 1975.

35-الداية، محمد رضوان :

- أبحاث في الأدب الأندلسي و المغربي، مطبعة خالد بن الوليد ،د.ط.، 1980.

- الأدب العربي في الأندلس و المغرب، مطبعة جامعة دمشق، د.ط.، 1983.

36-الدقاق ، عمر: ملامح الشعر الأندلسي، حلب: منشورات جامعة حلب، ط3، 1978 .

37-ديوارانت،ول: قصة الحضارة:عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، ط2 ، 1964 .

38- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد: التفسير الكبير، بيروت: دار إحياء التراث العربي ، ط3 ، د.ت.

39-الرصافي البلنسي، أبو عبد الله محمد بن غالب : ديوان الرصافي البلنسي، جمع وتحقيق إحسان عباس، بيروت : دار الشروق، الطبعة الثانية، 1983.

40- الركابي ، جودت: في الأدب الأندلسي، القاهرة: دار المعارف بمصر، ط3 ، 1970.

41- زغلول ، سعد: تاريخ المغرب العربي: المرابطون ، صنهاجة ،الصحراء والملثمون في المغرب والسودان والأندلس، الإسكندرية: منشأة المعارف، ط1،1995 .

42- زيان بهي الدين : الشعر الجاهلي: تطوره و خصائصه الفنية ،القاهرة : دار المعاف بمصر : دط,دت

- 43 سالم , السيد عبد العزيز :

- تاريخ المغرب العربي الكبير : العصر الإسلامي : دراسة تاريخية وعمرانية و أثرية , بيروت : دار النهضة العربية للطباعة و النشر , د.ط , 1981

- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس : دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي , بيروت : دار النهضة العربية للطباعة و النشر , د.ط, 1971

- 44 السامرائي , إبراهيم : لغة الشعر بين جيلين ,بيروت : المؤسسة العربية للدراسات و النشر , الطبعة الثانية , د.ت .

- 45 السد نور الدين : الأسلوبية و تحليل الخطاب , الجزائر : دار هومه للطباعة و النشر د,ط,1997

- 46 سعد, احمد علي : تهذيب المقدمة اللغوية للعلا يلي , دمشق : دار السؤال للطباعة و النشر ط2, 1981

- 47 سعدون ,نصر الدين: تاريخ العرب السياسي في الأندلس , بيروت دار النهضة العربية للطباعة و النشر ,ط.1,1998.

-48 سمير ابو حمدان:الإبلاغية والبلاغة العربية ،بيروت:منشورات عويدات الدولية,د,ط. 1991

-49 شبارو ، عصام محمد : الأندلس من الفتح المرصود ، إلى الفردوس المفقود ،بيروت : دار النهضة العربية للطباعة و النشر ،د.ط،د.ت.

-50 شريط، عبد الله : تاريخ الثقافة و الأدب في المشرق و المغرب، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ،3، 1983

-51 الشكعة ، مصطفى : الأدب الأندلسي : موضوعاته و فنونه ، بيروت دار العلم للملايين ،ط9،1997

- 52 شكيب ارسلان : الحلل السندسية , في الأخبار و الآثار الأندلسية, بيروت : منشورات مكتبة الحياة ,د.ط,د.ت.

-53 شبلي , سعد إسماعيل : أبن حمديس الصقلي : حياته من شعره ،القاهرة :دار غريب للطباعة ,د.ط,د.ت.

- 54 شلق، علي : النشر العربي في نماذجه و تطوره العصري النهضة و الحديث ، بيروت : دار العلم ،ط2 ،1974

-55 شوقي ضيف :

- تاريخ الأدب العربي : عصر الدول و الإمارات، القاهرة : دار المعارف بمصر، د.ط.،د.ت.

- الرثاء ، سلسلة" فنون الأدب العربي " ، القاهرة : دار المعارف بمصر ، ط2، 1955.

- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، القاهرة : دار المعارف بمصر ، ط7، 1969 .

56-صفوان بن إدريس، أبو بحر : زاد المسافر،و غرة محيا الأدب السافر، تحقيق عبد القادر محداد، بيروت : دار الرائد العربي، د.ط.، 1970.

57- الضبي،أحمد بن يحيى: بغية الملتمس، في تاريخ رجال أهل الأندلس، مجريط:مطبع روخس،د.ط، 1881 .

58-طنوس، وهيب : الوطن في الشعر العربي، حلب : منشورات جامعة حلب، د.ط.، 1980.

59- عاصي، ميشال : الشعر والبيئة في الأندلس ، بيروت : منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 ، 1970 .

60- العبادي ، أحمد مختار : في التاريخ العباسي والاندلسي ، بيروت: دار النهضة العربية ، د.ط.،د.ت.

61-عتيق ، عبد العزيز : الأدب العربي في الأندلس ، بيروت :دار النهضة العربية ، ط2، 1976 .

62-عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر : قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية، القاهرة : دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، د.ط.، 1976.

63-عز الدين منصور : دراسات نقدية و نماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر،

64- العشماوي، محمد زكي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث بيروت : مؤسسة المعارف، الطبعة الأولى، 1985.

65- عنان ، محمد عبد الله :

- تراجم إسلامية شرقية و أندلسية ,القاهرة : مكتبة الخانجي:الطبعة الثانية 1970.

- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي , القاهرة : مكتبة الخانجي ,ط2, 1969.

- الدولة العامرية و سقوط الخلافة الأندلسية , القاهرة : مكتبة الخانجي , ط3, 1970.

- 66 عيد , رجاء : القول الشعري, مصر: منشأة المعارف , د.ط, 1995

- 67 غرسية غومس , اميليو : الشعر الأندلسي , بحث في تطوره و خصائصه , ترجمة حسين مؤنس ,القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ,د.ط,د.ت.

- 68 غريب, جورج: العرب في الأندلس , بيروت : دار الثقافة ,د.ط.د.ت.

- 69 الفاخوري , حنا : الجامع في تاريخ الأدب العربي : الأدب القديم , بيروت: دار الجيل ,ط2 ,1995

- 70 العشماوي , محمد زكي : قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث , بيروت : دار النهضة العربية ,د.ط.1979

- 71 فوزي , سعد: في الأدب الأندلسي , الإسكندرية:دار المعرفة الجامعية , د.ط., 1999

- 72قدامة بن جعفر ، ابو الفرج : نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى مصر: مكتبة الخانجي، بغداد : مكتبة المثنى د.ط.1963

- 73 القرطبي ، محمد بن احمد : جامع الاحكام ، تحقيق احمد عبد العليم البردوني، القاهرة : دار الشعب ،ط 2 ، 1972

- 74 قيصر مصطفى : حول الأدب الأندلسي ,بيروت : مؤسسة الأشرف, د.ط,د.ت.

- 75 كحالة ,عمر رضا: الفنون الجميلة في العصور الإسلامية, دمشق: المطبعة التعاونية,د.ط,1972

- 76 مؤنس, حسين : تاريخ المغرب و حضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي ,بيروت : العصر الحديث للنشر و التوزيع , ط 1،1992.

77-محمود حسن أبو ناجي: الرثاء في الشعر العربي، بيروت : منشورات مكتبة الحياة، ط2 1402 هـ.

78- محمود حسن أحمد ومنى حسن محمود : تاريخ المغـرب والأندلس من الفتـح العربي حتى سقوط الخلافة ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ط1 ، 1999.

79-المقري، أبو العباس شهاب الدين أحمد التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت : دار صادر، د.ط.، 1968.

80-مكي، الطاهر أحمد : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامـة، القاهرة: مكتبة وهبة، ط2، 1977.

81-مندور، محمد : الأدب و فنونه، القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة و النشر، الطبعة الثانية ، د.ت.

82-الناعوري ، عيسى : في ربوع الأندلس، د.ط.، د.ت.

83-نعنعي، عبد المجيد : تاريخ الدولة الأموية في الأندلس: التاريخ السياسي، بيروت : دار النهضة العربية، د.ط.، 1986.

84-نعيمة، ميخائيل : الغربال، بيروت : دار بيروت للطباعة و النشر، الطبعة السابعة، 1964.

85- الهاشمي محمد علي : العروض الواضح وعلم القافية، بيروت : دار البشائر الإسلامية، ط؟، 1995م

86-هيكل، أحمد : الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، القاهرة : دار المعارف بمصر، ط11، 1994.

87-ياقوت، أبو عبد الله شهاب الدين الحموي : معجم البلدان، بيروت: دار صادر ودار بيروت، د.ط.، د.ت.

ثانيا : الدوريـــــات

1- مجلة الحضارة الإسلامية، وهران : المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، العدد الأول، 1993.

جامعة أبي بكر بلقايد ... العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

2- المجلة العربية الثقافية، تونس : المنظمة العربية للثقافة و العلوم، العدد السابع و العشرون، 1994.

3- مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، العدد الثاني و الثلاثون، 1981.

الرسائل الجامعية :

- محي الدين محمد : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، رسالة دكتوراه جامعة تلمسان، 1997/1998.

الفهرس

رقم الصفحة	العنوان
أ	المقدمة..
1	الفصل الأول : عوامل ظهور الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي في القرن الخامس الهجري.........
2	1- الفتنة الكبرى وتصدع الوحدة الوطنية..................................
21	2- نشاط حركة الاسترداد..
34	3- زوال السيادة الأندلسية وإلحاق الأندلس بالمغرب..........................
49	4- ابتعاد بعض الأدباء عن أوطانهم..
59	الفصل الثاني : الاتجاه الوطني في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري..........
60	1- رثاء قرطبة لما دمرتها الفتنة..
72	2- رثاء المدن التي سقطت في أيدي النصارى..............................
88	3- رثاء دول الطوائف..
114	4- الإشادة بمحاسن الأندلس..
129	5- الحنين إلى الوطن..
146	6- انتقاد ملوك الطوائف وعمالهم....................................
148	7- مدح المرابطين وهجاؤهم..
151	الفصل الثالث : الاتجاه الوطني في النثر الأندلسي في القرن الخامس الهجري..........
152	1- بيان فضل الأندلس والإشادة بمحاسنها..............................
162	2- الدعوة إلى الجهاد، وطلب الإغاثة..................................
177	3- حب الوطن والتعلق به..
180	الفصل الرابع : الخصائص الفنية..
181	أولا : الشعر..
182	1- اللغة..
189	2- الصورة..
191	3- الإيقاع..
197	ثانيا : النثر..
202	الخاتمة..
205	قائمة المصادر والمراجع..